الدَّعْــوَةُ الإِسْــلَامِيَّةُ

مَنْهَجُهَــا .. ومَعَالِمُهَــا

بقـــلم

الدكتور أحمـد عمر هـاشم

نائب رئيس جامعـة الأزهــر

النـاشر

مكتبة غريب

٣٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)

تليفون ٩٠٢١٠٧

« بســم الله الرحــمن الرحــيم »

قـال الله تعــالى :

﴿ ادع إلى سبيل ربـك بالحكمـة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلـم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ . .

« صـــدق الله العظيـــم »

[ســورة النحـل آيـة ١٢٥]

« بسم الله الرحمن الرحيم »

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . .

أما بعد :

فإن الدعوة الإسلامية هى أشرف عمل فى الوجود ، لأنها رسالة الرسل والأنبياء ، قال الله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ [1] .

وللدعوة أركان أساسية هى :

- مادة الدعوة .
- والدعاة .
- والمدعوون .

وللدعوة إلى الله تعالى منهجها الذى حدده القرآن الكريم وفصلته السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وقد اتسمت الدعوة الإسلامية بفقه عظيم وتدرج فيما يتصل بالمأمورات والمنهيات وفيما يتصل باقتلاع الرذائل وغرس الفضائل وما إلى ذلك من الأحكام .

ومن أهم سمات الدعوة الإسلامية أنها عامة وخالدة وأنها دعوة إلى السلام تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن لأن الإسلام دين السلام وما شرع الجهاد فيه إلا للدفاع لا للهجوم ، وللحفاظ على السلام والأمن والاستقرار وهى دعوة إلى حقوق الإنسان ، بالعلم والإيمان ، ودعوة إلى تزكية النفس الإنسانية إلى ما فيه سعادتها دنيا

---

(١) سورة يوسف (١٠٨)

وأخرى. وهذا الكتاب يوضح منهج الدعوة ومعالمها ويلقى الضوء على أهم جوانبها وقضاياها .

والدعوة : هى تبليغ هداية الله تعالى إلى حلقه فى ضوء ما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والسيرة النبوية العطرة ، وما أثر عن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين المهديين . .

إنها بإيجاز : تبليغ لرسالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه . والتكاليف الإسلامية ترتبط بالدعوة ، فلا تكليف بدون دعوة وإعلام بما يُكلَّف به الإنسان فلابد إذاً من دعاة يُبصرون الناس بأموردينهم وينشرون دين الله فى كل الأرض .

والدعوة الإسلامية فرض كفاية على الأمة الإسلامية كلها ، بحيث يلزم الأمة أن تُعد جماعة متفقهة فى الدين ، لديها القدرة على تبليغ الدعوة ، **﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾** [(1)] .

وعلى كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية واجب خاص وهو أن يدعو بما يعرف كلَّ من يستطيع أن يُبَلِّغه الدعوة ، وتتعين الدعوة ، وتكون فرض عين على من تعين عليهم التوجيه ودعوة الناس حيث لا يوجد غيرهم فى موطن من المواطن ، أوكانوا أعلم من غيرهم فى الأحكام التى يحتاجها الناس .

وترك الدعوة اثم كبير ، لأن التكليف العام للأمة واضح فى الآية الكريمة : **﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾** [(2)] .

ولابد للداعى أن يكون لينا فى الدعوة ، داعيا بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، وأن يكون مؤمنا بما يدعو إليه مقتنعا به ، فإنه إن لم يكن كذلك لا يستطيع اقناع الغير ، يروى أن رجلا قال للحسن البصرى كَلَاماً حسناً ، فقال له الحسن : إما أن يكون بنا عيب أوبك ، إنا لم يؤثر فينا قولك ، إن ما كان من القلب يصل إلى القلب [(3)] ، ولابد للداعى من الخبرة الواسعة بطريقة الدعوة وعرض المعلومات ، ودعوة الناس .

---

(١) سورة التوبة (١٢٢) .

(٢) سورة آل عمران (١٠٤) .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ـ المؤتمر السابع لمجمع البحوث الإسلامية بحث للشيخ أبوزهرة ص ١٢١ .

وأن يكون ذا اطلاع واسع ، ومعرفة غزيرة بالعلوم الإسلامية ، وأن تكون جهود الدعاة وطاقاتهم مصونة من تسربها وتبدّدها فى أمور فرعية أو أشياء جانبية أو جدل عقيم لا فائدة منه إلا الخصومات وضياع الوقت . وألا يخالف قوله فعله ، وأن يكون بعيدا عن الشبهات لأنه قدوة لغيره ، فلابد أن يكون متمثلا ما يدعو إليه .

وأمـا مادة الـدعوة : فتتكون من كتاب الله تعالى ، والحديث النبوى الشريف ، والسـيرة النبـوية العطرة ، والتعرف على العالم ومشكلاته وأحواله وما يلزم ذلك من علوم أخرى وثقافات مساعدة وأساليب للدعوة : تتمثل فى الكتب والمجلات والإذاعات والخطابة والمحاضرات والدروس .

وأما بالنسبة للمدعوين :

فلابد من دراسة أحوالهم والتعرف على مشكلاتهم وما يلزمهم من تشخيص الداء ليتحدد الدواء الناجع لهم . وعليهم أن يستجيبوا لما يُدعون إليه وأن يسألوا أهل العلم عما يحتاجون إليه **﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾** .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب كل قارىء وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . .

المـؤلف

الفصـــل الأول :

منهـــج الدعـــوة

* دعــوة الحــق .
* الدعوة إلى الله .
* التدرج فى الدعوة مع المدعو
* التدرج فى الدعوة حول ما يتصل ببعض المحرمات .
* التدرج فى الدعوة حول ما يتصل باقتلاع الرذائل وغرس الفضائل
* ادفع بالتى هى أحسن .
* الطريق إلى حماية الدعوة .
* الدعوة الإسلامية عامة وخالدة .

دعــــوة الحــــق

قال الله تعالى : ﴿ **له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ [1] .

إن دعوة الحق : هى دعوة التوحيد ، التى اخرجت الناس من ظلام الوثنية وجهالتها إلى نور الإيمان ، وحياة العلم والمعرفة ، ومن الظلم والطغيان إلى العدل والاستقامة ، ومن الخوف والاضطراب إلى الأمن والاستقرار .

إنها دعوة (لا إله إلا الله) كما جاء فى تفسيرها قول على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ **له دعوة الحق** ﴾ قال : التوحيد . وقال ابن عباس وغيره (له دعوة الحق) لا إله إلا الله . وفى ظل هذه الدعوة لا يتجه المسلم إلا للخالق الواحد . عبادة وسؤالاً واستعانةً ، مرددا من كل أعماقه ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فلا يعبد إلا الله ولا يستعين إلا بالله كما جاء فى الحديث : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » . .

ويضرب القرآن الكريم المثل لأولئك الذين نأوا عن دعوة الحق وضلوا ضلالا مبينا ، فدعوا غير الله ، فكانوا فى ضلال وضياع ، إنّ مَثلهم كمثل إنسان وقف على شفير بئر وقد بسط كفيه إلى الماء يريد أن يتناوله من بعد وهو فى ارتفاعه عن البئر يبسط كفيه إلى الماء بغية أن يصل إلى فمه . وليس هذا بالأمر المعقول ولا بالشىء الممكن وما هو ببالغه .

فكذلك حال هؤلاء المشركين الذين يدعون غير الله ويتجهون إلى سواه، إنهم لا ينتفعون بمعبوداتهم ، ولا تصل إليهم منهم أية منفعة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فليسوا بمستجيبين لهم وليس دعاؤهم إياهم إلا فى ضياع وضلال .

لقد انبثقت من دعوة الحق مبادىء عالية، وقيم رفيعة أخذت بيد الإنسانية إلى مرافىء الأمن والطمأنينة . . وفى ظل التوحيد ، حررت العقل البشرى من الضلالة والخرافة وصاغت الحياة بمكارم الأخلاق .

---

(١) سورة الرعد (١٤) .

وقد ذكر (الألوسى) أنه لما ظهر النبى ﷺ بمكة ودعا إلى الإسلام فبعث أكثم بن صيفى ابنه (حبيشا)، فأتاه بخبره . فجمع بنى تميم وقال لهم :

إن ابنى شَافهَ هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف ذوو الرأى منكم : إن الفضل فيما يدعو إليه ، وإن الرأى ترك ما ينهى عنه . ثم : إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا .

هذا هو أحد حكماء العرب ، استنتج بفطرته وعقله . فرأى أن الخير كل الخير فى اتباع دعوة الحق ، وفيما يدعو إليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا هو « النجاشى » عندما هاجر المسلمون وفروا بدينهم إلى الحبشة وبعث القرشيون إلى النجاشى فى طلبهم وردهم . . قائلين له : إنه قد نجا إلى بلدك منا غلمان سفهاء . فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقدبعثناإليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلم بهم منا ، وأعلم بما عابوا عليهم . فرأى النجاشى بثاقب فكره ألا يحكم على القوم ، قبل أن يسمع حجتهم وكلامهم ، فبعث إلى أصحاب الرسول ﷺ فدعاهم . فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فقال له جعفر بن أبى طالب : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبدالله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى وأن نأتى ما كنا نستحلّ من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك . ولما قرأ عليه صدرا من سورة مريم ، بكى النجاشى ثم قال : إن

هذا والـذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم التفت إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمـرو بن العـاص ، فقـال لهما : انـطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما . على هذا المنهج المنصف وبمثل تلك النظرة الثاقبة الفاهمة يرى كل عاقل دعوة الحق ، ولا يسعه إلا أن ينقذ نفسه بالانضواء تحت رايتها ، وترسّم معالمها . وذلك هو الفوز العظيم .

* * *

منهج الدعوة إلى الله

« مع الدعاة »

لقد أرسى القرآن الكريم منهج الدعوة إلى سبيل الله ووضح طريقها ، فى قول الله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** [1] ﴾ .

وإن الدعوة يتشكل أسلوبها على حسب أحوال الناس الذين ندعوهم فلكل مقام مقال ، فالخاصة لهم أسلوبهم المحكم ، والعامة لهم العظة التى يمكن أن تصل إلى مداركهم وتستوعبها عقولهم ، والمعارضون لهم المناظرة الهادئة الهادفة والمجادلة بالتى هى أحسن .

ومادة الدعوة وأدواتها ، لها أكبر الأثر فى استجابة الناس واجتذابهم وتوضيح معالم الحق أمام أعينهم حتى يتبينوا النتيجة التى يصلون إليها عندما يستجيبون للداعى ويلبون نداء الحق والخير ، أما موضوع الدعوة : فهو الإسلام وأساسه تلك العقيدة الواحدة التى نؤمن فيها بالإله الواحد الأحد الذى لا شريك له ، وقد أمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، أن يخبر الناس بأن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هى سبيله ، يدعو إلى الله سبحانه وتعالى بها على بصيرة وبرهان ويقين وإيمان ، ويدعو كل من اتبعه إلى ما دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام . قال الله تعالى :

﴿ **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين** [2] ﴾ .

ومن أهم ما يتمثل به الداعى أن يكون ملتزما بالعمل الصالح ، عاملا بما يدعو إليه ، يأتمر بما يأمر الناس به ، وينتهى عما ينهاهم عنه ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين** [3] ﴾ .

---

(١) سورة النحل (١٢٥) .

(٢) سورة يوسف (١٠٨) .

(٣) سورة فصلت (٣٣) .

فلا يكـون من أولئك الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه فلا يعظون أنفسهم بسوء ما يصنعون ، حتى أشبه صنيعهم صنيع الجاهل بالشرع ، أو من لا عقل له . قال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** (١) ﴾ .

والـدعوة إلى الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب الإنسان المسلم كفرد وواجب الجماعة الإسلامية وواجب الأمة ـ ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** (٢) ﴾ .

إن من أهم خصائص المجتمع المؤمن أنه مجتمع حريص على الخير والهدى ـ جاد فى الدعوة إلى الله تعالى على هدى وبصيرة .

ومن أهم ما يحرص عليه المؤمنـون كجـماعـة متضامنة ، أنهم يتعاونوا فيما بينهم على إزالة المنكر من مجتمعهم وتطهيره وتنقيته من كل آفة ورذيلة ، فهم دائما وأبدا ذاكرون ربهم داعون إليه ، على عكس المنافقين الذين طمس الله على بصيرتهم وضلوا فى متاهات الجهالة وخاب سعيهم فى الحياة فأصبحوا لا يشكلون خطرا داهما على الفضيلة من ذات أنفسهم ، ولكنهم يشكلون خطرا مزدوجا من أنفسهم ومن غيرهم حيث يأمرون بالمنكر ولا يكتفون بفعله ، وينهون عن المعروف ولا يكتفون بتركه ، لقد نسوا الله فنسيهم الله فعليهم اللعنة ولهم سوء الدار .

﴿ **المنـافقـون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضـون أيـديهم نسـوا الله فنسيهم إن المنـافقـين هم الفـاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حَسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم** (٣) ﴾ .

وأمـا المؤمنـون الـذين يكـونـون المجتمـع الإيمانى الصحيح ، المجتمـع الـواعى والـداعى ، فإنهم فى حبهم لبعضهم وتضافر قواهم على نشر الفضيلة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرسون حدود الله فى الأرض ويدافعون عنها ، ويقيمون شرائع الله ويؤدون عباداته ، فيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، ويقيمون كتاب ربهم سائرين على منهج الحق ، مترسمين معالم الطريق وهؤلاء يرحمهم الله ويكتب لهم الفوز فى الدنيا وفى الآخرة وذلك هو الفوز العظيم .

---

(١) سورة البقرة (٤٤) .

(٢) سورة آل عمران (١٠٤) .

(٣) سورة التوبة (٦٧ ، ٦٨) .

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم [(1)] ﴾

وإذا كان الإسلام قد رسم منهج الدعوة وأقامه بروح الرفق واللين والحكمة والموعظة الحسنة فإن الله سبحانه وتعالى : قد تكفل بحفظ من يدعو إليه وبنصرته وتأييده فلا خوف على الدعاة إلى الحق السائرين على الجادة الذين لا يضعفون فى دعوتهم ولا يتباطئون . فالدعوة يقوم منهجها إذًا بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن . ويتسم أسلوبها باللين لكن فى غير ضعف ولا تباطؤ . وقد بين القرآن الكريم هذه العقيدة واضحة فحين أمر لله موسى وهارون أن يذهبابآيات الله وحججه وبراهينه ومعجزاته ، نهاهما عن التباطؤ والضعف ، أو الفتور فى ذكر الله ، وليكن ذكر الله قوة لهما . وعونا لهما عليه . فقال تعالى : **﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ﴾** ثم أمرهما باللين فى القول والرفق فى الدعوة ، ليكون ذلك أوقع فى النفس وأبلغ .

﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ ثم بين سبحانه أنه معهما يسمع ويرى ، وهو مع كل داع إلى الحق ينصره ويؤيده ـ فلا يخشى الداعى من أن يفرط عليه المدعو أو أن يعتدى ويطغى عليه .

ولقد حكى القرآن موقف موسى وهارون حين خافا أن يعتدى عليهما فرعون وبين لهما أنه معهما . فقال سبحانه :

﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال : لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ؟ [(2)] ﴾

* * *

---

(١) سورة التوبة (٧١)

(٢) سورة طه الآيات (٤٢ ـ ٤٦)

التـدرج فى الدعـــوة

« مـع المدعـــو »

تميزت الـدعـوة بأسلوب التـدرج الـذى يأخـذ الإنسـان تدريجيا إلى ما فيه الهدى والرشاد ، ولم تأخذ الدعوة فى منهجها توجيه الناس دفعة واحدة بكل ما هو منهى عنه وبكل ما يتصل بالعقيدة والعبادات والأخلاق والعادات الاجتماعية . . ولكنها تدرّجت فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة فى كثير من المجالات . . وانتقلت بالناس بعد التركيز على جانب العقيدة وتثبيتها إلى الجوانب الأخرى . غير أن أمر الدعوة فيما يتصل بشأن العقيدة ، لم يكن يحتمل التدرج حتى فيما يتصل به من عادات أو تقاليد ، وذلك لأن التوحيد هو الأساس الذى سيقوم عليه بناء الجماعة ومنه ستنبثق العبادات . وعلى أساسه يُقبل العمل .

فكان لابد من حسم قضية العقيدة من أول الأمر وتوضيح العقيدة الواحدة التى لا يختلف فى شأنها ووضوحها إلا مكابر وضالّ ، لا سيما وأن البيئة فى ضلالة عمياء ، وكان المجتمع الوثنى غارقا فى جهالة لا تعرف النور والهدى فكان لابد من كشف هذا الليل وإزاحة تلك الظلمات ليشرق على الحياة فجر جديد تستضىء بنوره البشرية فى كل خطاها .

وكان أسلوب التدرج بعد ذلك سِمَةَ الدعوة فيما يتصل بالأمور الآتية :

أولا : فى الأمور المأمور بها والتى يُدعى الناس إليها .
ثانيا : فى الأمور المنهى عنها والتى حرمها الإسلام وأمر بتركها وحذّر من فعلها .
ثالثا : فيما يتصل بالمجادلة والمعارضة والتدرج مع القوم حتى يفيئوا إلى الإسلام وإلى روحه ومبادئه الفاضلة ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن** ﴾ .

وفى هذا المبحث نتحدث عن الجانب الأول من هذه الجوانب ، وهو **جانب ما أمر به الله ورسـولـه ومـا دعت إليـه الشريعة الإسلامية من عبادات وتكاليف** . هى بمثابة الدعائم للإسلام . قال الإمام البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن زكريا بن إسحاق عن يحيى بن عبد الله بن صيفى عن أبى معبد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ بعث معاذا رضى الله عنه إلى اليمن فقال : ادعهم إلى شهادة

أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم . وفى صحيح الإمام مسلم ما يوضح أنه كان مرسلا إلى قوم من أهل الكتاب ، وبهذا ندرك كيفية الدعوة إلى الإسلام . وأن الدعوة يتحدد مسارها ومنهجها على حسب أصناف الناس الذين ندعوهم . وعلى حسب موقفهم فى العقيدة ، أوفى العمل ، هل الذين ندعوهم مؤمنون أم غير مؤمنين وهل هم أهل كتاب أم لا .

فلما كان معاذ قد أرسل إلى من يُقرّ بالإله والنبوات وهم أهل الكتاب كان أول ما يدعوهم إليه هو توحيد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فهو يدعو إلى الإقرار والإيمان بالله الواحد ، وبنبوة محمد ورسالته صلوات الله وسلامه عليه ، فلئن كان القوم معترفين بالإله إلا أنهم كانوا يجعلون له شريكا . وذلك لدعوة النصارى أن المسيح ابن الله ودعوة اليهود أن عزيرا ابن الله ، تعالى عما يقولون علوا كبيرا ، ولعدم تصديق أولئك القوم بالرسول ﷺ .

من أجل هذا كان أول ما يُدعون إليه هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم تدرجت بهم الدعوة من الإيمان إلى العمل البدنى بالصلاة ومن العمل البدنى إلى العمل المالى بالزكاة وهكذا .

وفى صحيح الإمام مسلم ما يوضح أنهم من أهل الكتاب لقول النبى ﷺ : « إنك تأتى قوما أهل كتاب » حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب وإسحاق بن إبراهيم جميعا عن وكيع . قال أبو بكر : حدثنا وكيع عن زكريا بن إسحاق قال : حدثنى يحيى بن عبد الله بن صيفى عن أبى معبد عن ابن عباس عن معاذ بن جبل . قال أبو بكر : ربما قال وكيع عن ابن عباس ، قال : قلت لرسول الله ﷺ : قل لى فى الإسلام قولا . لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » رواه مسلم .

فالاستقامة لا تتأتى إلا بعد الإيمان والإقرار وبعد التصديق وبها يلتزم المسلم منهج الحق والصراط المستقيم فلا يحيد ولا ينحرف فى عقيدته وعبادته وسلوكه قال الله تعالى : **﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون * نُزلا من غفور رحيم * ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين [1] ﴾** .

---

(١) سورة فصلت (٣٠ - ٣٣) .

التـــدرج فى الدعـــوة

« حـول ما يتصل ببعـض المحرمـات »

وكما أخذت الدعوة بأسلوب التدرج فى بعض المأمورات ، فقد أخذت به كذلك فى بعض المنهيات ، وينبغى أن نبدأ فى هذا الجانب بملاحظة لها أهميتها فيما يتصل ببعض هذه الأحكام ولاسيما فى جانب التحريم ، وذلك بأن التدرج كان فى وقت يتطلب هذا المنهج ، ومـع جماعـة استحكم فيهم ما ألفـوه ، وبعض الأمـور التى أخـذت طريقة التدرج فى تحريمها ، كانت فى ظرف زمنى يستدعى ذلك .

ولم تكن الدولة فى أول عهد الإسلام فى مكة ، وقبل الهجرة ، دولة إسلامية بل كانت مشركـة ، وكان المشركون يمثلون قوة عنيفة ، فكان الأنسب التركيز على جانب التوحيد أولا ، ثم تأتى الأحكام بعد ذلك . فحين نقول اليوم بأسلوب التدرج فى الدعوة أمرا ونهيا فإنما نقصد به المنهج التربوى الإسلامى العام الذى كان أولا ، والذى يمكن أن نطبقه اليوم بالصورة اللائقة به ، وفى الزمان والمكان المناسبين له .

فمثلا : لا نقول بأسلوب التدرج فى التحريم بالنسبة للخمر فى دولة إسلامية دينها الرسمى الإسلام ؛ لأن أمور التحليل والتحريم والنهى والتحذير وغير ذلك من الأحكام قد استقرت فلا حاجة إلى أن نأخذ المتهاونين بأحكام الشريعة المستهترين بآدابها بالتدرج .

نعم يمكن أن يكون ذلك ونحن نتجه بالدعوة فى بلاد غير إسلامية أو نتجه بالدعوة إلى قوم غير مسلمين ، أويتجه بعض المسرفين على أنفسهم فى علاج ما ألفوه من بعض العادات بهذه الطريقة . وقال العالم الجليل الشيخ محمد أبوزهرة رحمه الله ، « وإن عدم وجـود أحكـام للمعـاملات فى مكة سببه أن الدولة التى كانت قائمة دولة شرك وأن من المستحيل أن تنفذ أحكام المعاملات الإسلامية فى ظلها وكان الاتجاه الأول إلى إخراجها من الشرك وإدخـالها فى التوحيد أولا ، ثم بعد ذلك تكون الدولة الإسلامية المنفذة ، ولكن المحرمات كانت ثابتة من أول تشريع الإسلام ، وإن كان مسكوتا عنها ، فلم تكن موضع إباحة ، بل كانت موضع سكوت وعفو حتى ينزل التشريع بتحريمها تحريما قاطعا ، فما

كانت الخمر مباحة ولكن كان مسكوتا عنها أو كانت فى مرتبة العفو كما يقول علماء الأصول حتى إذا كان المنع الصريح فى المدينة ، كان معه العقاب وهكذا كل ما كان مسكوتا عنه لم يكن موضع إباحة [1] » .

وإذا أخذنا تحريم الخمر مثالاً لأسلوب التدرّج الذى اتخذته الدعوة مستضيئين فى خطوات التدريج بالكتاب والسنة الشريفة اتضح لنا أن القرآن قد بدأ بتوضيح حالها وأنها أمر مستقبح ومستهجن ، وغير مستحسن ؛ وذلك لأن العرب كانوا قد ألفوها وتعودوها وفاخروا بشربها فبين لهم قبحها حيث قابلها بالأمر الحسن ، وما قابل الحسن فهو غير حسن أى قبيح ، قال سبحانه : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** [2] ﴾ .

كان هذا فى مكة ، أما بعد الهجرة وبعد أن خالطت بشاشة الإيمان القلوب نزل من القرآن ما يوجب تحريمها حيث وضح الله تعالى أن ضررها أكثر من نفعها ، وما كان كذلك يحكم العقل بتحريمه إلا أنه لم يكن نصا صريحا فى التحريم ، قال تعالى : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** [3] ﴾ .

ثم تدرج التحريم شيئا فشيئا ، بطريقة تربوية حكيمة ، تُحدّ من تلك العادة وتُربى النفس وتُنشّئها وتُعودها على البعد عن الخمر ، وذلك بأن نهى الله المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون ، أى أنهم لا يقربون الصلاة إلا فى وعى كامل ، والنهى عن المقارفة فى غاية القوة والبلاغة ومثل هذه الحالة المطلوبة فى الصلاة لا تتم إلا بتأتى الوعى الكامل قبل الصلاة وإلا بتركها مدة طويلة ، وبذلك يتعودون البعد عنها . قال سبحانه ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** [4] ﴾

وهكذا عالجت دعوة القرآن ما ألفه الناس من هذه العادة السيئة ثم نزل بعد ذلك النهى القاطع بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يُوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويُصدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** [5] ﴾

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٥

(٢) سورة النحل (٦٧) .

(٣) سورة البقرة (٢١٩) .

(٤) سورة النساء (٤٣) .

(٥) سورة المائدة .

وتوضح السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، المنهج الذى اتبعه الإسلام فى تحريم الخمر ، وخطوات التدرج ، وذلك فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ، قال : حدثنا شريح ، حدثنا أبومعشر عن أبى وهب مولى أبى هريرة عن أبى هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات . قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر فسألوا رسول الله ﷺ عنهما ، فأنزل الله : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس** ﴾ إلى آخر الآية .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى البقرة ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير** ﴾ فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التى فى سورة النساء ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قال : حى على الصلاة نادى : لا يقربن الصلاة سكران ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا [1]

* * *

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .

التـدرج فى الدعـوة

ما يتصل باقتلاع الرذائل وغرس الفضائل

وكما أخذت الدعوة بأسلوب التدرج فى الأمر وفى النهى فقد أخذت به فى معالجة الحياة ودعوة النـاس إلى الخير وتجنيبهم الوقوع فى الرذائل أو التردى فى الفحشاء والمنكر فناهضت الدعوة عادات مرذولة وتقاليد قبيحة .

وعملت على اقتلاع تلك الرذائل التى كانت ضاربة بجذورها فى النفوس قبل الإسلام .

وأتت على كل الانحرافات عن الإسلام من العقبات المتراكمة التى كادت أن تسد الطريق أمام مجرى الدعوة . . وأتت على تلك الانحرافات التى كانت متفشية فى الاعتقاد والعبادات والسلوك .

أتت على كل تلك الانحرافات من القواعد . فقضت على أساسها الذى كان يتمثل فى الانحـرافـات فى العقيدة وخلصت العقـل البشرى من المزاعم الباطلة . والمعتقدات الزائفة والسلوك القبيح .

فهذا الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ومنحه عقلاً مفكراً وأرسل له رسولاً هادياً إلى الخير وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا كيف لهذا الإنسان العاقل ، كيف لهذا المخلوق فى أكرم صورة يتطامن أمام أصنام ومعبودات من دون الله . لا تملك لنفسها نفعا أوضرا : وكيف يعكف هذا الإنسـان على عادات ورذائل تطمس حقائق الحياة والهدى ويضل فى متاهات الباطل والردى ؟ كان لابد للدعوة من اقتلاع تلك الرذائل ، حتى يمكن أن يكـون هناك مجال لفضائل الإسلام ، وحتى يمكن للغرس الجديد أن ينمو ويترعرع إذ أن كل غرس أو نبات لا يمكن أن ينمو ويزدهر إلا إذا اقتلعت من حوله تلك النباتات الخبيثة والحشائش الضارة ، التى تعوق نموه وتعطل ازدهاره وتتلف ثماره وكذلك الحال بالنسبة لتلك الفضائل فإنها لا يمكن أن تنمو مع نمو الرذائل وانتشارها .

ومن هنا جاءت الدعوة حين جاءت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، تأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ولم تأت الدعوة بتعاليمها فيما يتصل باقتلاع الرذائل وغرس الفضائل طفرة .ولم تدع إلى ذلك دفعة واحدة . وإنما أخـذت بأسلوب التـدرّج وأخذت أوامر الدعوة ونواهيها تتدرّج مع الناس . على حسب ما يصلحهم وبمقـدار ما ينفعهم . وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يصدر أوامره أو نواهيه يصدرها بما يعالج به الجماعة ، وبما يشفى أمراضها وأسقامها . وكان إذا سأله سائل أجابه بما يليق بحاله وما ينبغى عليه أن يقوم به . وهذا ما ينبغى أن يكون عليه الداعية الذى يدعو إلى الإسلام ويقوم بدعوة المجتمع وإصلاحه . عليه أن يكون كالطبيب الماهر الذى يصف لكل مريض ما يناسبه من العلاج والعقاقير ، فليس لكل المرضى علاج واحد . وليست الأمراض واحدة وإنما هى مختلفة وأنواع العلاج بالنسبة إليها أيضا مختلفة ومـا يصلح لإنسان لا يصلح لغيره . كما أنه لا يعطى للمريض العلاج كله دفعة واحدة ولا يسقيه الدواء جميعه فى مرة واحدة ، وإلا فإنه إن فعل ذلك ما كان لعلاجه جدوى ، وما استطاع أن يقوم المريض بتنفيذ ذلك بل إنه إن استطاع ما أفاده بل أضره وربما قضى على حياته . وهكذا الحال بالنسبة للداعية فإنه يجب عليه أن يعطى كل إنسان أو جماعة ما يناسبهم ، وأن يتدرج معهم فيما يدعوهم إليه من فضائل وفيما ينهاهم عنه من رذائل .
روى الإمام مسلم بسنده عن ابن عباس قال : قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا هذا الحى من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر فلا نخلص إليك إلا فى شهر الحرام فمرنا بأمر نعمل به وندعو إليه مَنْ وَرَاءَنَا . قال آمركم بأربع : وأنهاكم عن أربع . الإيمان بالله ، ثم فسرها لهم فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسـول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم » . وأنهاكم عن الدباء والحَنْتم والنقير والمقير. [1] و(الدّباء) القرع اليابس (والحنتم) جرَارٌ خُضرٌ و(النقير) جذع ينقر وسطه و (المقيّر) المزفت المطلى بالقار . فنهى عن الانتباذ فيها وهو أن يجعل فى الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلو ويشرب ، وخصصت بالنهى لأنه يسرع الإسكار فيها ، وفى حديث آخر يوضح الرسول ﷺ ما يرضاه الله لعباده ، وما يكرهه لهم فيقول : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا . يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال [2] » .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

وهكذا من يتبع الهدىَ النبوى الحكيم يجد وصايا عديدة تحمل الأمر بالخير والنهى عن الشر ، ويجـد مقاومة للرذيلة ودعوة إلى الفضيلة ، ويتدرج أسلوب الدعوة ، ويجيب رسول الله ﷺ كل سائل بما يليق بحاله ، وينصح كل جماعة بما يقوّم سلوكها . حتى يعالج النفـوس من أمـراضهـاالـدينية والأخلاقية والاجتماعية وينشئها على قوة العقيدة وسلامة الأخلاق وصلاح الجماعة ، لتنهض مؤمنة بربها ورسولها صادقة فى سيرها واتجاهها مكونة مع غيرها خير أمة أخرجت للناس .

* * *

ادفـــع بالتى هـى أحســـــن

والنموذج الأعلى والأمثل للدعوة والأسوة الحسنة للدعاة يتمثل ذلك فى دعوة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، لقد أرسله الله سبحانه وتعالى ، داعيا للحق هاديا إليه . أرسله سبحانه شاهدا على أمته ، وأرسله يبشر بالنعيم كل من اتبع دعوته ، وسلك منهجه واستقام على الجادة ، وينذر بالعقاب وبالعذاب كل من خالف دعوته . وحاد عن منهج الحق وانحرف عن الصراط المستقيم ، وأرسله داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا [1] ﴾ .

ولقد جمع الله سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام من أسباب الحق والخير والكمال ما يمكنه أن يؤلف بين القلوب ، وأن يجمع الناس على كلمة سواء . جمع الله لرسوله ، بين قوة البيان ، ووضوح الحجة ، ولين الجانب ، واتسمت دعوته بالرفق وحسن معالجة الأمور ، ومقابلة السيئة بالإحسان . جاء أعرابى إلى النبى ﷺ يطلب منه شيئا ، فأعطاه ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم النبى ﷺ ثم قام ودخل المنزل ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئا ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ . قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال له النبى ﷺ : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك . قال : نعم : فلما كان الغد أو العشى جاء فقال ﷺ : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى أكذلك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال ﷺ : مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها منكم وأعلم . فتوجه لها ، بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار .

---

(١) سورة الأحزاب (٤٥ ـ ٤٦)

واتسمت دعوة الحق بالرفق ـ وحض عليه رسول الله ﷺ حتى تأخذ الدعوة مجراها ولا يكون للقسوة والغلظة عواقبها فى النفور من الدعوة وبعد الناس عنها فإن الرفق زينة كل شيء ، وهو بالنسبة للدعوة من أهم الأساليب التى لها أثرها العميق ، يقول الرسول ﷺ : « إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه [1] » .

وقد أمر الله تعالى رسوله صلوات الله عليه وسلامه بالرفق ، وخفض الجناح مع أولئك الذين اتبعوه من المؤمنين . فقال تعالى : ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عَصَوْكَ فقل إنى برىء مما تعملون** [2] ﴾ .

ولقد طبق رسول الله ﷺ ، منهج الدعوة بين أصحابه . فى كل قول وعمل . وفى كل الأحوال والظروف ليغرس فى نفوس المسلمين الطريقة المثلى فى التعامل مع الناس فى كل أمورهم ، فإذا أغلظ بعضهم القول معه كان يدفع بالتى هى أحسن ويحسن إلى من أساء إليه ، إن روح التسامح والرفق ، وإن مبدأ المعاملة الحسنى ، والمجادلة بالتى هى أحسن يمثل جانبا هاما من جوانب منهج دعوة الحق ، فإنه بلا شك ، من أهم ما يجب على كل داع ومصلح أن يلتزمه فى دعوته ، وفى كل خطاه الإصلاحية ، حتى يستطيع هديه أن ينفذ إلى القلوب ، وحتى يكون هو بهذا الخلق مثلا يحتذى فى الدعوة إلى الخير .

وقد أعلن القرآن الكريم أن الله تعالى لم يجعل فى هذا الدين من حرج ، وإنما اليسر والرفق والتسامح من سمات الدعوة إليه ، ومن صميم مبادىء الدين وجوهره ، قال سبحانه : ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** [3] ﴾ .

* * *

---

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة الشعراء (٢١٥ ، ٢١٦) .
(٣) سورة الحج (٧٨) .

الطـريق إلى حمـــاية الدعـــوة

تتضح معالم الطريق إلى حماية الدعوة بترسيخ أصول الحق فى أرض الإيمان وبتنقية ما حولها وإضاءة الحياة بهدى الله ، وبالتضحية والجهاد والاستشهاد فى سبيل العقيدة .

فأما ترسيخ تلك الأصول فيكون بالدعوة الحارة المخلصة والتى تتمثل فيها القدوة قبل التوجيه وأما تنقية ما حولها فيكون باقتلاع جذور الشك والفساد وصدّ كل فكر معاد للإسلام . ورد كل حملات التشكيك المسمومة . التى يشنها أعداء الإسلام بين فترة وأخرى .

وأمـا إضـاءة الحياة بهدى الله فذلـك بنشر الثقـافة الإسلامية الأصيلة على أوسع مستوى . وبكل وسيلة من الوسائل ، وفى كل مجال من المجالات حتى لا تكون الفكرة الإسلامية غريبة على كثير من الناس الذين لا يتيسر لهم دراسة مفاهيم الإسلام وأصوله ، وآدابه ومعاملاته .

وأما الجهاد والتضحية فمجال واسع كبير ، يقدم فيه كل مسلم غيور على الدعوة أمين على عقيدته ما يستطيع من النفس أو المال أو الكلمة ، وطريق حماية الدعوة يتخذ جانبين :

الجانب الأول : الداخلى . **والجانب الثانى** : الخارجى ، **فأما** الجانب الداخلى : فيكون بتربية النشء تربية إسلامية تتشكل فيها حياة الشباب منذ الصغر تعليماوتوجيها ، وتربية وتدريبا وتقويما .

وأما ما يتصل بالتعليم والتوجيه فينبغى التركيز فيه على حفظ كتاب الله تعالى ، وهذا أهم العنـاصر ، ومحاولة تقديم تفسيرات متنوعة تتسم باليسر وسهولة الأسلوب وإيضاح المعنى حتى يتغذى شبابنا بغذاء الإسلام ويهضم كل منهم تعاليمه ، فينمو الواحد منهم ويكبر وقد سرى فى روحه ودمه وكل كيانه حب الإسلام والغيرة عليه . والدفاع عنه والحفاظ على تراثـه ومقـدساته وجميع تعاليمه . وهذا الغذاء الروحى لابد أن يكون بجانبه غذاء روحى آخر مكمل وموضح له وهو حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وسيرته وسيرة صحابته والسلف الصالح .

ولهذا الغذاء الروحى أهمية كبرى لا تقل - بل تكثر - عن أهمية الغذاء المادى الذى به قوام البدن والأعضاء . لأن فى هذا الغذاء قوام النفس والروح .

وإذا كان علماء الطب والأعضاء والمتخصصون فى علم وظائف الأعضاء يقولون بأن بعض أنواع الغذاء من طعام وشراب لها دخل فى تكوين الطفل ونموه وقوته وضعفه . وذكائه أو غبائه إلى غير ذلك من الأمور فإن فى الغذاء الروحى آثاراً بعيدة المدى فى التأثير على قوة عقيدة النشء . وعلى أخلاقه وعاداته . وتقاليده وسلوكه فى الحياة وحمايته من المؤثرات الخارجية والتقاليد الوافدة التى تهدم بناء الأخلاق وتقوّض الكيان الخيرى فى داخل الإنسان ، وأما ما يتصل بالتربية والتدريب والتقويم فذلك يكون عن طريق الأسوة الحسنة فى الوالدين وفى الأساتذة فى المدارس والمعاهد والجامعات ، وفى الأقران والزملاء والأصدقاء وفى الأمة الإسلامية بصفة عامة . . ولابد أن تستمد هذه الأسوة من الأسوة الأولى التى أمرنا الله تعالى بها وبالاقتداء بصاحبها صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه . وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ .

وفى مجال التربية والتدريب ينبغى الاهتمام بملاحظة ما يقوم به الناس فى معاملاتهم وعباداتهم وسلوكهم وتصرفاتهم من خير أو شر فجانب الخير يعطى العناية والتشجيع عليه وجانب الشر يقاوم ويناهض بحيث لا يترك حتى لا يستشرى الفساد ، ويتفاقم الشر والخطر ، وتسرى عدوى الشر والرذيلة من إنسان لآخر .

أما الجانب الخارجى لحماية الدعوة فذلك بمنع تسرب المجلات الخليعة والكتب الماجنة والصحف المسمومة التى تعمل على نشر الفساد والرذيلة ، وبمقاومة الدعاوى الخادعة المزيفة التى تثير الأقاويل وتضخم من أعمال وسلوك الأعداء وحسن معاملاتهم ومقاومة ما يثار حول المسلمين من أنهم لا ثقة فى وعودهم وأعمالهم .

ومن جوانب حماية الدعوة على الصعيد الخارجى ، مقاومة الغزو الفكرى والثقافات المادية الملحدة التى تحارب الدين ، وتقاوم الفكر الإسلامى بما تثيره من دعاوى زائفة وأفكار مسمومة .

وهناك جانب آخر له أهميته الكبرى وهو نشر الثقافة الإسلامية الأصيلة على أعلى مستوى ، وفى أوسع نطاق داخلياً وخارجياً فى الصحف والمجلات وفى الكتب والنشرات التى تقدم مبادىء الإسلام وتعاليمه السمحة ، وترد على كل ما يثار من أعداء الإسلام . . وتقدم نماذج لرجال الإسلام والسلف الذين أفنوا أعمارهم فى خدمة الإسلام وحماية دعوته .

ولا يمكن أن نغفل أهم ركن فى حماية الدعوة وهو الجهاد فى سبيل الله لنصرة الإسلام وتأمين دعوته وتذليل كل العقبات أمام المد الإسلامى الواسع .

ونماذج المجاهدين فى سبيل الله من سلفنا لا حصر لهم . والمتصفح لتاريخ الأمة الإسلامية وسلفها يرى مشاهد رائعة ، وبطولات فذة . قدمت العديد من المواقف جهادا فى سبيل الله تعالى . وتضحية بالنفس والمال وبأغلى ما فى الوجود .

ولقد كان للسلف جهادهم المشكور وشوقهم العارم إلى الاستشهاد فى سبيل الله لأنهم على يقين بما أعده الله للمجاهدين والشهداء . يقول خيثمة ـ وكان ابنه قد استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ـ لقد اخطأتنى وقعة بدر . وكنت والله عليها حريصا حتى ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها ، يقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة . وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة ، فدعا رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأُحُد شهيداً .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا ، فلما توجه إلى أُحُد أراد أن يتوجه معه فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ؟ وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ . فقال : يا رسول الله إن بَنِىَّ هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك ، وإنى والله لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة ؟

فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أُحُد شهيداً .

هكذا كان سلف هذه الأمة التى وصفها القرآن بأنها خير أمة أخرجت للناس . كانوا على جانب من حب الجهاد وحماية الدعوة . والتضحية فى سبيلها . حتى إنهم قد نذروا أرواحهم لله وقدموها رخيصة فى ساحة الجهاد والاستشهاد والعزة والكرامة لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى . وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فصدقهم الله ما وعدهم به من الفوز فى الدنيا والآخرة . وذلك هو الفوز العظيم . .

* * *

الدعــوة الإســلامية عــامة وخــالدة

لقد ختم الله سبحانه وتعالى رسله وأنبياءه ، بسيدنا محمد ﷺ قال الله سبحانه : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً** [1] ﴾ .

ولأنه صلوات الله وسلامه عليه خاتم النبيين ، فقد جاء بالشريعة الباقية التى ستسير عليها البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، إنها شريعة خالدة لا تبديل فيها ولا تغيير ﴿ **وكان الله بكل شىء عليما** ﴾ فالله جلت حكمته هو ـ وحده ـ الذى يعلم ما يصلح البشرية فى كل زمان ومكان ، ولذا فقد أنزل سبحانه على رسوله الخاتم ﷺ كتابا اشتمل على كل هدايات الأنبياء من قبله ، وكان تبيانا لكل شىء ، فكان ما جاء به هو الكلمة الأخيرة للوحى ، والصورة التى تشمل كل زمان ومكان وجميع الأجناس والألوان . وأما الرسالات السابقة ، فقد كانت خاصة ، يختص كل رسول بدعوة قومه ، فإذا جاء غيره إلى هؤلاء القوم نسخ اللاحق دعوة السابق ، اللهم إلا القدر المشترك بين الرسالات وهو عبادة الله وحده واجتناب ما دونه من الباطل ، قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** [2] ﴾ ، ولما كانت الأمم السابقة تختلف أحوالهم وأوضاعهم ، فقد تغايرت الرسالات بتغاير الأحوال وكان لكل أمة منهاج ، كما قال الله تعالى ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** [3] ﴾ .

ووضح القرآن الكريم أن الرسل السابقين كان كل رسول منهم مبعوثا إلى قومه خاصة فقال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين** [4] ﴾ .

وقال سبحانه ـ فى شأن هود ـ ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا** [5] ﴾ . وقال تعالى ـ فى شأن صالح ـ ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا** [6] ﴾ . وقال تعالى ـ فى شأن شعيب ـ ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا** [7] ﴾ . وقال سبحانه ـ فى شأن عيسى ـ عليهم جميعا صلوات الله وسلامه :

---

(١) آية (٤٠) سورة الأحزاب .
(٢) آية (٣٦) سورة النحل .
(٣) آية (٤٨) سورة المائدة .
(٤) آية (٢٥) سورة هود .
(٥) آية (٥٠) سورة هود .
(٦) آية (٦١) سورة هود .
(٧) آية (٨٤) سورة هود .

﴿ **وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** [1] ﴾ .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد وضح أن كل رسول من الرسل السابقين كان يرسل إلى قومه خاصة ، حتى بلغت الإنسانية نضجها فجاءت الرسالة العامة الخالدة والرسول الخاتم الذى لا رسول بعده ولا نبى ، فرسالته عامة لكل الأجناس والألوان ، خالدة إلى قيام الساعة .

وكان لتلك الشريعة العامة الخالدة ما يكفل لها العموم والخلودحيث أكملها الله تعالى وأتمها كما قال سبحانه : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** [2] ﴾ .

وأكد القرآن الكريم عموم الرسالة وخلودها ، وأن الرسول ﷺ مرسل إلى الناس كافة قال سبحانه : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا** [3] ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** [4] ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** [5] ﴾ .

كما أشار سبحانه إلى أن الكتاب الذى جاء به هذا الرسول الخاتم ﷺ له صفة العموم والخلود أيضا : ﴿ **وما هو إلا ذكر للعالمين** [6] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** [7] ﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** [8] ﴾ .

وهذه الآية الكريمة من صدر سورة الفرقان وهى آية مكية تشير إلى أن الرسالة عامة من أول وهلة ، لا كما يزعم بعض المؤرخين أنها نشأت أول ما نشأت محلية ثم كانت عالميتها بعد اتساع الفتوح ، فهى عالمية منذ عهدها الأول ، وعبر فى الآية عن القرآن بكلمة (الفرقان) ، لأنه فرق بين الحق والباطل ، كما فرق بين عهد محلى إلى عهد عالمى حيث بلغت الإنسانية نضجها ورشدها ، إنه عهد انتهت فيه الإقليمية وابتدأت فيه عالمية الدعوة وختام الرسالة بمعجزة عقلية دائمة خالدة .

(١) آية (٦) سورة الصف .
(٢) آية (٣) سورة المائدة .
(٣) آية (٢٨) سورة سبأ .
(٤) آية (١٠٣) سورة الأنبياء .
(٥) آية (١٥٨) سورة الأعراف
(٦) آية (٥٢) سورة القلم .
(٧) آية (٢٧) سورة التكوير .
(٨) آية (١) سورة الفرقان .

وقد وضح رسول الله ﷺ مكانته عند ربه ، وأن الله تعالى قد أعدّه لرسالته وليكون خاتم النبيين ، ففى حديث العرباض بن سارية - رفعه - « إنى عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته [1] ».

لقد ختم الله تعالى برسوله ﷺ المرسلين ، وأتم به شرائع الدين ، والإتمام والإكمال إنما هما للتحسين والكمال العام ، وإلا لاستلزم أن يكون الأمر بدون ذلك ناقصا وليس كذلك فإن شريعة كل نبى بالنسبة إليه كاملة ، ولكن المراد النظر إلى الإكمال بالنسبة للشريعة المحمدية مع الشرائع الأخرى الماضية .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجلٍ بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين [2] »

أما جانب الإتمام والإكمال : فقد تحدث الرسول ﷺ عنه حيث قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » فوضح سبب بعثته ، وأنه يتركز فى إتمام المكارم ، وكل ما هو حسن من الأخلاق . وفى حديث آخر يقول صلوات الله وسلامه عليه : بعثت بالحنيفية السمحة ، فهو عليه الصلاة والسلام بعث ليكمل ويتمم مكارم الأخلاق ، ولم يبعث بما فيه تشديد أو حرج على الأمة ، وإنما بعث بالحنيفية السمحة العامة الخالدة الخاتمة ، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين وكتابه خاتم الكتب ودعوته خاتمة الدعوات ، ومتممة لما سبقها من الرسالات يصدق كتابُه - وهو القرآن الكريم - الكتب السماوية الصحيحة التى أنزلت على الرسل السابقين ، ويهيمن عليها ، قال الله تعالى ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** [3] ﴾ أى أن الله تعالى قد أنزل القرآن الكريم بالحق والعدل لا ريب فيه ، وجاء القرآن مصدقا للكتب السماوية التى أنزلت من قبله ، ومهيمنا أى مؤتمنا على الكتب وحاكما على ما قبله منها قال الزمخشرى : أى رقيبا على سائر الكتب ، لأنه يشهد لها بالصحة والثبات . وقال ابن كثير : اسم المهيمن يتضمن ذلك فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره .

---

(١) رواه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) آية (٤٨) سورة المائدة .

كما وضح القرآن هذه الحقيقة الكبرى ، وهى حقيقة إكمال الدين وإتمام النعمة فى قول الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** [1] ﴾ .

لقد أكمله الله تعالى بالرسول الرؤوف الرحيم الذى بعثه وأكمله الله بالكتاب الذى نزل تبيانا لكل شىء ، وأكمله الله تعالى بما شرع من أحكام وعقائد وتشريعات تفى بحاجات الناس وتصلح لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة .

وقد وضح الله تعالى أن رسوله عليه الصلاة والسلام هو خاتم النبيين فى قوله جل شأنه : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ . وكونه خاتما للأنبياء خصوصية من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه ، تحدث عنها فى قوله « . . وختم بى النبيون » ومعنى هذا أنه لا نبى بعده ولا رسول ، فكل من ادعى نبوة أو رسالة بعده فهو كذاب وضال ومضل كافر بالله ورسوله .

وكل دعوة من دعوات المتنبئين قديما وحديثا باءت بالفشل الذريع والخسران المبين ، والضلال الذى ما بعده من ضلال ، ولقد وضح رسول الله ﷺ أنه لا نبى بعده فقال : « أنا العاقب فلا نبى بعدى » ، وكما كان ﷺ خاتم الأنبياء والرسل ، فإنه كان أول المسلمين كما قال الله تعالى : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** [2] ﴾ ، لقد كان أول المسلمين فى كل شىء ، فى صلاته ونسكه وسائر عباداته بل كل ما تنبض به حياته بل ومماته كل هذا لله رب العالمين .

كما وصف الله تعالى القرآن الكريم وهو الكتاب الخالد والأخير والخاتم الذى أنزل على الرسول الخاتم بأنه أحسن وأعظم ما أنزل إلى الناس فقال تعالى : ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم** [3] ﴾ . وقد اختار الله تعالى رسوله الخاتم ﷺ واصطفاه فجاء من خير الأصلاب والأرحام ، ومن أفضل القبائل والعشائر ، قال ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم [4] » .

وكما اصطفى الله رسوله الخاتم ﷺ من خير القبائل فقد بعثه من خير القرون وأفضلها .

---

(١) آية (٣) المائدة .

(٢) (١٦٢ ، ١٦٣) من سورة الأنعام .

(٣) آية (٥٥) سورة الزمر .

(٤) رواه مسلم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا ، حتى كنت فى القرن الذى كنت منه [1] » .

ولمكانة هذا الرسول الخاتم ﷺ ، أخذ الله سبحانه وتعالى العهد والميثاق على النبيين أن يؤمنوا به وأن ينصروه قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** [2] ﴾ .

وامتن الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بما منَّ به عليها من بعثة هذا الرسول العظيم الذى يبلغ رسالة ربه ويتلو عليهم الآيات ويزكيهم ويطهرهم من الأدناس ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، قال سبحانه : ﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** [3] ﴾ .

ولقد كان قرنه ﷺ خير القرون بحق بوجوده فيه كما قال ﷺ : « خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم [4] » .

ولطالما سعد أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ونعموا برؤيته ورأوا طلعته ، وسعدوا بهُداهُ، وسنته ، وكانت أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم كما قال ﷺ : « والذى نفس محمد فى يده ليأتين على أحدكم يوم لأن يرانى ثم لأن يرانى أحب إليه من أهله وماله معهم [5] » قال أبو إسحاق المعنى فيه عنده : لأن يرانى معهم أحب إليه من أهله وماله وهو مقدم ومؤخر أى أن تقدير الكلام : لأن يرانى معهم أحب إليه من أهله وماله ثم لا يرانى ، وقد جاء الحديث بمثل ذلك فى مسند سعيد بن منصور :

« ليأتين على أحدكم يوم لأن يرانى أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله ثم لا يرانى » وقال الإمام النووى : ومقصود الحديث حثهم على ملازمة مجلسه الكريم ومشاهدته . . للتأدب بآدابه ، وتعلم الشرائع وحفظها ، ليبلغوها ، وإعلامهم أنهم سيندمون على ما فرطوا فيه من الزيادة من مشاهدته وملازمته ، ومنه قول عمر رضى الله

---

(١) رواه البخارى .

(٢) آية (٨١) سورة آل عمران .

(٣) آية (١٦٤) من سورة آل عمران .

(٤) رواه البخارى .

(٥) رواه مسلم .

عنه : ألهانى عنه الصفق .ولئن فات المسلمين ـ اليوم ـ شرف رؤيته ﷺ فلا يعدمون شرف معايشة حديثه وسنته الشريفة ، وسيرته العطرة ومصاحبة أنفاسه الطاهرة ، كما قال القائل ـ فى أهل الحديث :

أهل الحديث همو أهل النبى وإن لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

فصلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله يا من بعثك الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

ولقد أكد رسول الله ﷺ للناس أنه أرسل إلى الخلق كافة وأن الله تعالى ختم به النبيين ، وتلك بعض خصوصياته التى اختصه الله بها ففى الحديث : « . . وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون [1] » وقطع على أهل الزيغ والباطل افتراءهم وادعاءهم فبين أنه لا نبىّ بعده ، فقال لعلى : « أنت منى بمنزلة هارون وموسى إلا أنه لا نبى بعدى [2] » ، وكما دل القرآن دلّت السنة النبوية على أن رسولنا سيدنا محمدا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ولا نبى بعده .

وكما دلَّ القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة على أن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، فقد انعقد اجماع المسلمين قديما وحديثا على ختم النبوَّة والرسالة بسيدنا محمد ﷺ ، وأصبح هذا معلوما من الدين بالضرورة .

وقد وضح الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . . » وضح هذه الحقيقة بقوله « وقد أخبر الله تعالى فى كتابه، ورسوله فى السنة المتواترة عنه، أنه لا نبى بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال مضل » وقال الآلوسى فى تفسيره : « وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب ، وصدعت به السنة ، وأجمعت عليه الأمة فيكفر مدعى خلافه » .

ومن المفكرين المصلحين الذين وفقهم الله تعالى للدفاع عن عقيدة ختم النبوة المفكر الإسلامى محمد إقبال ، الذى نبّه إلى أهمية عقيدة ختم النبوة وضرورتها فى الدين ، وحراستها لكيان الأمة الإسلامية ، ووحدتها حيث قال فى إحدى رسائله : « إن عقيدة أن محمدا ﷺ خاتم النبيين هى الخط الفاصل بكل دقة بين الدين الإسلامى والديانات الأخرى التى تشارك المسلمين فى عقيدة التوحيد والموافقة على نبوة محمد ﷺ ولكنها تقول

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

باستمرار الوحى وبقاء النبوة » . . ثم يقول : « وبهذا الخط الفاصل يستطيع الإنسان أن يحكم على طائفة بالاتصال بالإسلام أو بالانفصال عنه ولا أعرف فى التاريخ طائفة مسلمة اجترأت على تخطى هذا الخط . . » .

ثم إننا نعلق ـ عقليا ـ إلى جانب ما اتضح آنفا من أدلة الكتاب والسنة والإجماع أن الذين يدعون وجود نبوة أو رسالة ماذا عساها تفعل هذه النبوة الجديدة أو الرسالة المزعومة ؟ وما فائدتها ؟

إن الدين قد كمل ، وإن النعمة بالإسلام وبرسوله الخاتم سيدنا محمد ﷺ قد تمت ، فلا فائدة لوجود نبى أو رسول أو نبوة أو رسالة ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** [1] ﴾ .

فكل من يدعى نبوة أو رسالة فهو كذاب ضال ومضل ، وكل من ابتغى الهدى فى غير كتاب الله فهو ضال « **ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله** » .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة وهى التمسك به وعدم طلب شىء سواه ، وأن من يبتغى شيئا من الدين أو العقيدة غير الإسلام فهو مرفوض غير مقبول .

يقول الله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه** [2] ﴾ .

ولقد وجهنا الرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه أن نتمسك بالقرآن وبالسنة ، وأن فيهما الغناء والكفاية والهداية ، وأن فيهما النجاة من الفتن فقال صلوات الله وسلامه عليه : « تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » .

نعم فكتاب الله جاء تبيانا لكل شىء ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ [3] والسنة النبوية مفصلة وموضحة للقرآن ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** [4] ﴾ .

وعموم رسالة سيدنا محمد ﷺ للزمان والمكان ، وختمها للرسالات خصوصية من خصوصيات الرسول ﷺ ، يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أعطيت خمسا لم يُعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة [5] » .

---

(١) سورة المائدة آية (١) .
(٢) سورة آل عمران آية (٨٥) .
(٣) سورة الاسراء آية (٩) .
(٤) سورة الحشر (٧) .
(٥) رواه البخارى .

فعموم الرسالة وخلودها وختمها للرسالات السابقة من خصوصيات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وليس لأحد من الرسل السابقين عموم فى رسالته .

وهذا العموم والخلود لرسالة سيدنا محمد ﷺ كان فى أصل بعثته ومن مبدئها وأولها .

فهو عموم فى بقاء شريعته إلى يوم القيامة ، فلا نبى بعده ولا شريعة بعد شريعته . وللحافظ ابن حجر فى هذا المقام كلام طيب دقيق ، أرى من تمام الفائدة أن أورده هنا ، قال رحمه الله تعالى : « ولا يعترض بأن نوحا عليه السلام كان مبعوثا إلى أهل الأرض بعد الطوفان ، لأنه لم يبق إلا من كان مؤمنا معه ، وقد كان مرسلا إليهم ، لأن هذا العموم [١] ليس فى أصل بعثته ، وإنما اتفق بالحادث الذى وقع ، وهو انحصار الخلق فى الموجودين بعد هلاك سائر الناس » .

وأما نبينا ﷺ فعموم رسالته من أصل البعثة ، فثبت اختصاصه بذلك .

وأما قول أهل الموقف لنوح ـ كما صحّ فى حديث الشفاعة : « أنت أول رسول إلى أهل الأرض » فليس المراد به عموم بعثته ، بل إثبات أولية إرساله ، وعلى تقدير أن يكون مراداً ، فهو مخصوص بتنصيصه سبحانه وتعالى ـ فى عدة آيات ـ على أن إرسال نوح كان إلى قومه ولم يذكر أنه أرسل إلى غيرهم [٢] .

وقد جاء فى السنة قوله ﷺ : « وبعثت إلى كل أحمر وأسود [٣] » والمراد بالأحمر العجم ، وبالأسود العرب ، وقيل : الأحمر الإنس والأسود الجن ، وفى رواية أبى هريرة رضى الله عنه ما هو أصرح من ذلك فى الدلالة على عموم الرسالة وخلودها : « وأرسلت إلى الخلق كافة [٤] » . ولخلود رسالته ﷺ وختمها لسائر الرسالات تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظها ، وحفظ دستورها السماوى وهو القرآن الكريم ، قال الله تعالى ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

وكما تكفل الله تعالى بحفظ دستور الرسالة الخاتمة فقد تكفل بحفظ كل حقيقى من السنة النبوية المطهرة ، ليكون بيانا للقرآن الكريم الذى تكفل بحفظه الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه** [٥] ﴾ .

---

(١) يقصد مايشبه العموم .

(٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر جـ ١ ص ٤٥٣ ط الحلبى .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

(٥) سورة القيامة آية (١٧ ـ ١٩) .

وذلك حتى لا يكون عذر لمعتذر ، ولا علة لمتعلّل فى ترك الاقتداء به أو العدول عن الاهتداء بهديه والإيمان بما جاء به . . بل إنه لم تتوفر همم المسلمين على جمع تراث وتفاصيل حياة بأكملها كما توفرت لجمع كل ما يتصل بحياة خاتم الأنبياء ، ورسول الله الذى بعثه الله رحمة للعالمين .

فلقد جمعت أقواله صلوات الله وسلامه عليه ، وأفعاله وتقريراته وصفاته الخُلقية والخِلقية وسيرته ومغازيه . . وكان اهتمام المسلمين بالغا ودقيقا فى تسجيل جميع عباداته وعاداته وحركاته وسكناته . لقد سجلت كتب السنة والسيرة والتاريخ جميع شمائله وكل ما يمكن أن يتصوره العقل البشرى فيما يتصل بحياة رسول الله ﷺ ، ولم يكن ذلك مجرد جمع وتسجيل فحسب ، بل كان بأدق الطرق فى النقل والصحة مما لا يسع المطلع عليه إلا الإيمان به وتصديقه ، وحسبنا أن نلقى نظرة عابرة على موازين التحمل والأداء ، وقوانين الرواية ، وقواعد الجرح والتعديل ، وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب علوم الحديث . .

ولم يقتصر تسجيل وقائع الحياة ، على حياته العامة فقط ، ولا على عبادته ﷺ ومعاملاته ، بل إنه شمل حياته الخاصة ، ودقائق ما يتصل بها مثل : مرضعاته ، وحواضنه ، وأعمامه ، وأزواجه وخدمه ، وكُتّابه وشُعرائه ، ودوابه ، وملابسه . وغير ذلك من أموره وشئونه الخاصة .

ثم ما يتصل بهديه فى أكله وشربه ونومه وانتباهه وركوبه ، وبيعه وشرائه وجلوسه ، واتكائه ، وضحكه وبكائه . وما نقلته كتب الشمائل المحمدية وغيرها من كتب السنة والسيرة والتاريخ الإسلامى .

ولم يكن هذا كله ليقع مصادفة ، ودون حكمة من الله تعالى العزيز الحكيم ، وإنما نقل كل ما يتصل برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين .

وكان طبيعيا أن يحفظ الله تعالى سنة النبى ﷺ ، ويوفق المسلمين فى كل عصر ومصر ليتناقلوها ، ويدونوا كل ما يتصل بحياته بحيث من شاء أن يصدر فى حياته عن سنة رسول الله ﷺ ، وأن يقتدى به وجد الأمر سهلاً وميسرا . فهو النبى الخاتم الذى لا نبى بعده ، فالاقتداء به دائم ومستمر إلى أن يقوم الناس لرب العالمين .

وقد وجه الله تعالى المسلمين للاقتداء به ، واتخاذه الأسوة الحسنة لكل من يرجو الله واليوم الآخر ، ويعرف لله حقه . ويذكره ذكرا كثيرا ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** [1] ﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب (٢١) .

وقد أشار الأستاذ أبو الحسن الندوى إلى أخبار الأنبياء السابقين وتاريخهم المطمور فى الماضى . . قال :

« . . أما الأنبياء الآخرون ، وعظماء الملل والديانات السابقة فيصح القول بأن أخبارهم وصور حياتهم مطمورة فى ركام الماضى . وهناك حلقات رئيسية لا يكمل بغيرها التاريخ ولا يتسنى بدونها الاقتداء والتقليد مفقودة لا يمكن البحث عنها ، والاهتداء إليها فى هذا العصر المتأخر ، وهذا ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ، فالمُثُل الإنسانية لها أعمار طبيعية وحيوية محدودة فإذا انتهت لم تكن مصلحة فى تناقلها .

أما ما كانت الحاجة إليه قائمة دائمة ، فتبقى على اختلاف الزمان والمكان واستمر وانتشر وأورق وأثمر [1] .

وإلى جانب حفظ الله تعالى لمصادر الرسالة الخاتمة فقد بشّر بأن الإسلام سيبلغ منتهاه وذروته ، وتعلو كلمته ، ويظهره الله تعالى على الدين كله قال سبحانه : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** [2] ﴾ .

وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً** [3] ﴾ .

وأعلن الله تبارك وتعالى أنه متكفل بحفظ هذا الدين وإتمامه وإظهاره على الدين كله مهما حاربه أعداؤه ، ومهما حاولوا إطفاء نوره ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون** [4] ﴾ .

ومن ذلك كله نقف على مكانة هذا الدين الخاتم وهذا الرسول الخاتم ، لأن الله تعالى متكفل بحفظ مصادر الإسلام وبحفظ الدعوة الإسلامية ومظهرها على كل الدعوات ومتمم لها . ومهما حاول أعداء الإسلام قديما وحديثا أن يطفئوا نورها فلن يستطيعوا ولن ينالوا منها منالا أو يبلغوا منها مبلغا ، لأن حافظها وممسكها هو الله تعالى الذى يمسك السموات والأرض . سبحانه رب العالمين .

ولقد كرّم الله تعالى رسوله ﷺ تكريما يشير إلى أن الإسلام هو الدين الحق والرسول ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن أتباع الرسل أهل الأرض يجب عليهم الإيمان

---

(١) النبى الخاتم للأستاذ أبى الحسن الندوى .
(٢) سورة الصف (٩) .
(٣) سورة الفتح (٢٨) .
(٤) سورة الصف (٨) .

به والاقتداء به ، فقد اقتدى به جميع الرسل فى رحلة الاسراء والمعراج إشارة إلى ما يجب على أتباعهم من الإيمان بالرسول الخاتم .

وقد وضح الله تعالى لرسوله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج منزلته وأظهر للرسل والنبيين وأتباعهم مكانته وختمه لهم حيث جعله إماماً لهم ، فصلوا واقتدوا به ، إشارة إلى أن الإسلام هو الدين الخاتم ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ .

ولقد كان رسول الله ﷺ يدعو الناس راجيا أن يكون أكثر الأنبياء تابعا ، ويربط هذا بأن آيته الكبرى ومعجزته العظمى وهى ما أوحاه الله إليه ، إنه القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم ، والذى جاء تبيانا لكل شىء ، والذى كان دستور الدعوة الخاتمة العامة للرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة [1] » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

الفصـــل الثانى :

الدعــــوة إلى الســـلام

* دعوة الاسلام إلى السلام .
* استتاب الأمن ثمرة الإيمان والعمل الصالح
* السلام المسلح ضرورة حتمية فى الاسلام .
* السلام أساس العلاقات الانسانية فى الاسلام .
* نهاية أعداء السلام وأعداء الاسلام .

دعـــوة الإســـلام إلى الســـلام

لقد نادى الله تعالى عباده المؤمنين أن يدخلوا فى السلم كافة ، وألا يتبعوا خطوات الشيطان ، فان الشيطان لهم عدو مبين ، يحرمهم نعمة السلام ، فإذا بهم يحارب بعضهم بعضا ، والحرب لا غالبا رحمت ولا مغلوبا ، يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** [1] ﴾

ووضح الرسول ﷺ أن فى الإسلام سلاما للانسان دنيا وأخرى ، فعندما أرسَلَ ﷺ دِحْيَةَ بن خليفة الكلبى إلى هرقل عظيم الروم بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام بين له أن ثمرة الدخول فى الاسلام هى السلام ، فلا خوف على ملكه ولا على نفسه ولا على دنياه ولا على أخراه ، لقد قال له « فإنى أدعوك بدعاية الاسلام ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » [2] .

وقد أمر الله تعالى المسلمين بالسلام وبين أن أعداءهم ان مالوا إلى السلام ورغبوا فى الصلح فعلى المسلمين ان يجيبوهم إلى ما طلبوا إليه ان كان فى هذا الصلح والسلم مصلحة لهم ، وأن يفوضوا الأمر لله تعالى مع الأخذ فى الأسباب .

لقد أمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يستجيب لدعوة السلام .

﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها** ﴾ وأمره بالتوكل على الله حتى لا يخشى من اتباع السلم ﴿ **وتوكل على الله** ﴾ والأمر بالتوكل على الله سبحانه وتعالى ليكون الله عونا لهم على السلم ونصيرا لهم فى كل خطاهم ، وهو سبحانه وتعالى السميع لأقوالهم العليم بنياتهم ، إنه يعلم ما إذا كانوا صادقين فى دعوتهم وجنوحهم للسلم أم لا .هو وحده علام الغيوب قال الله تعالى ﴿ **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** [3] ﴾ .

---

(١) سورة البقرة (٢٠٨) .

(٢) هم الأتباع أو الزراع والحديث رواه البخارى ومسلم .

(٣) سورة الانفال (٦١) .

ومن دعوة الإسلام المؤكدة للسلام أن أمر الله تعالى المؤمنين أن يثبتوا فى الغزو والجهاد وحذرهم أن يقتلوا أحدا قال كلمة الاسلام أو قال تحية الإسلام وشعاره وهى : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ولا يتعجلوا فى القتل حتى يتبين لهم المؤمن من الكافر ، وإذا حدث هذا عند الاختلاط عليهم فى معرفة المؤمن من الكافر فأولى بهم ثم أولى عندما يتحققون أنه مؤمن لا شك فى ذلك ، حيث قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ [1] .

وقد جاء فى سبب نزول هذه الآية الكريمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «لحق المسلمون رجلا فى غنيمة له فقال : «السلام عليكم» فقتلوه وأخذوا غنيمته ، فنزلت الآية ، أى لا تقولوا لمن حياكم وألقى عليكم تحية الاسلام : لست مؤمنا ، لتطلبوا الغنيمة والمال فعند الله مغانم كثيرة ، وما هو خير من ذلك » .

وروى أنها نزلت فى شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك ، وكان قد أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول ﷺ عليهم غالب بن فضالة الليثى فهربوا وبقى مرداس لثقته باسلامه ، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد ، فلما تلاحقوا وكبروا ، كبر ، وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم ، فقتله أسامة بن زيد ، واستاق غنمه ، فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد [2] وجدا شديدا وقال :

قتلتموه إرادة ما معه ، فقال أسامة : إنه قال بلسانه دون قلبه ، وفى رواية : إنما قالها خوفا من السلاح .

فقال عليه الصلاة والسلام : « هلا شققت عن قلبه » ثم قرأ الآية على أسامة فقال :

يا رسول الله استغفر لى فقال : « كيف بلا إله إلا الله » .

قال أسامة : فما زال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر لى وقال : « أعتق رقبة » [3]

ومن دقة الاسلام وتأكيده فى الدعوة إلى السلام والأمن قوله تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** ﴾ [4] ومن أجل حقن الدماء ، وحتى لا ينتشر القتل والاعتداء ، وصيانة للنفس الانسانية وإن لم يكن صاحبها

---

(١) سورة النساء (٩٤) .
(٢) أى حزن .
(٣) تفسير أبى السعود .
(٤) سورة التوبة (٦٠) .

مسلما ، راعى الاسلام السلام والأمان لغير المسلم من المعاهدين وأهل الذمة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاما [1] » .

أهـداف الدعـوة إلى السـلام

تتضح أهداف الدعوة إلى السلام ، فى الأمن والاستقرار كما قال ﷺ : « أسلم تسلم » .

لطالما ضحى الاسلام فى سبيل اقرار السلام بشروط كان ظاهرها أنها مجحفة وظالمة ، ولكن جعل الله تعالى فيها الخير للمسلمين الذين أرادوا السلام وبذلوا فى سبيله كل غال ، فها هو رسول ﷺ فى صلح الحديبية ، وكانت شروط قريش جائرة ، وقد عارضها بعض الصحابة وفى مقدمتهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولكن الرسول ﷺ كان حريصا على السلام ، فقبلها وقد جاء فيها : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة [2] مكفوفة وأنه لا إسلال [3] ولا إغلال [4] وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . . . » [5]

ومن أهـداف السـلام : الأمن الذى هو من أعظم النعم وأكرمها ، عن عبد الله ابن محصن الأنصارى رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم آمنا فى سربه معافى فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها [6] » .

ومن أهداف السلام فى جانب الأفراد والجماعات أن يسلم المسلمون من أذى الناس سواء كان الأذى بألسنتهم أو بأيديهم .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) [7] .

---

(١) رواه أحمد والبخارى والنسائى .
(٢) معـاهدة .
(٣) لا يسل سيف .
(٤) لا عذر ولا خيانة .
(٥) سيرة ابن هشام .
(٦) رواه الترمذى .
(٧) رواه البخارى ومسلم .

ومن أهداف السلام : الاستقرار والأمان ، ومضا عفة العمل والانتاج لأنه فى جو السلام والاستقرار يحيا الناس فى راحة وأمان ، ويقوم كل منهم بالعمل المنوط به خير قيام وينطلق الفكر فى روية وأناة يعمل لخير البلاد والعباد .

وللحفاظ على الاستقرار والأمان والعمل ، وللحفاظ على الأرض والعرض ، وعلى العقيدة والدين ، شرع الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وكان الرباط فى سبيل الله لحراسة حدود الله وحرماته ، وصيانة حقوق الناس ، ولرد الظلم والعدوان ، أى أن الجهاد شرع للحفاظ على السلام وعلى مكاسب السلام ، وما هو الا علاج ومقاومة لنزعات الشر التى تبطش بالأمن والاستقرار والانتاج .

وفى سبيل ذلك أمر الله تعالى بالاصلاح بين المتخاصمين ، وأرسى القرآن الكريم منهجا فى الاصلاح بالعدل ، فقال جل شأنه : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ (1)

ولا يكون المسلم خليقا بوصف الاسلام الكامل إلا إذا سلم المسلمون من لسانه ويده .

بل إن الإسلام ـ حفاظا منه على السلام ـ أمر الناس إذا مروا فى المساجد أو فى الأسواق أن يمسكوا على نبالهم حتى لا تصيب أحدا ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من مر فى شىء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشىء) (2) .

ويجعل الإسلام كل من حمل السلام على المسلمين بعيدا عن حظيرة الدين ، بعيدا طريق الإسلام الكامل الذى يدعو أتباعه للأمان والسلام وعدم الرعب والخوف والفزع . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » (3)

ويحذر الإسلام من كل تصرف أو سلوك من شأنه أن يثير الرعب أو الفزع فى نفوس الناس جادا كان أو لاعبا . عن عبد الله بن السائب عن أبيه عن جده أنه سمع النبى ﷺ يقول : « لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعبا ولا جادا (4) » وعن أبى هريرة رضى الله عنه

---

(1) سورة الحجرات (9) .
(2) رواه البخارى ومسلم .
(3) رواه مسلم .
(4) رواه الترمذى .

أن النبى ﷺ قال : « من أشار إلى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه حتى ينزع وإن كان أخاه لأبيه وأمه »[1] .

وهكذا نرى الإسلام قد حرم الاشارة بحديدة ، حتى وإن لم يضرب ، وحتى إن لم يصب أحدا ، لكن مجرد الاشارة يحذر الاسلام منها ، حفاظا على السلام والأمان والهدوء والاستقرار .

بل مجرد النظرة التى يخيف بها غيره قد حرمها الاسلام ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه بها بغير حق أخافه الله يوم القيامة[2] » .

وهكذا نرى الإسلام فى كل وصاياه دين السلام والأمان ، فواجب المسلمين فى كل الأرض أفرادا أو جماعات أمما وشعوبا ، حكومات ومنظمات أن يحافظوا على السلام .

* * *

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الطبرانى .

استتاب الأمن ثمرة الإيمان والعمل الصالح

لقد وعد الله سبحانه وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ان يجعل أمته خلفاء الأرض ، وأئمة الناس ، وجعل صلاح البلاد بهم ، كما وعد بأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، وقد حقق الله سبحانه وتعالى ذلك كما قال جل شأنه : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ .

ولقد تحقق هذا الوعد من الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام فلم ينتقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى جوار ربه حتى فتح الله عليه مكة وخيبر وسائر جزيرة العرب .

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه بمكة ، مكثوا نحوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده لا شريك له سرا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمرهم الله تعالى بالهجرة إلى المدينة وأمرهم بالقتال ، وكانوا خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ما شاء الله تعالى لهم أن يصبروا ، فقال رجل من الصحابة : يا رسول الله ، أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ، ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة » وانزل الله هذه الآية الكريمة ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح .

ثم ان الله سبحانه وتعالى لما قبض رسوله عليه الصلاة والسلام كانوا كذلك آمنين فى عهد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ولقد وعد رسول الله صلوات الله عليه المسلمين بنعمة الأمان حين قال لعدى بن حاتم ، حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة ؟ قال : لم أعرفها ولكن سمعت بها ، قال : فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز ، قلت : كسرى بن هرمز قال : نعم ؟

وليبـذلن المال حتى لا يقبله أحد ، قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد .

ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها .

وهكذا حدث الأمن كما وعد رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وجاء ثمرة مترتبه على الإيمان بالله ، وتوثيق الصلة به وعمل الصالحات .

والأمن كما هو نعمة فى الدنيا دعا بها الأنبياء والمرسلون ، كما فى دعوة ابراهيم عليه السلام : ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾وكما فى الآية السابقة : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا . .** ﴾ فهو أيضا من نعم الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ينعم بها عباده المؤمنون المخلصون كما قال تعالى : ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين** ﴾ وكما قال جل شأنه : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة ، قال رسول الله ﷺ : « قيل لى أنت منهم » وقال صلوات الله وسلامه عليه : « من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر » وسكت فقالوا : يا رسول الله ماله ؟ قال : ﴿ **أولـئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ .

وكما أن الأمن ثمرة الإيمان والعمل الصالح فهو أيضا سمة المؤمن الصادق فى إيمانه فإذا صدق إيمان الفرد وإذا صدق أيضا ايمان الجماعة عاشوا حياتهم آمنين لا يخافون ولا يفزعون ولا يخيفون أحدا ، ولا يروعون الناس ، بل ان الناس يلجئون للمؤمنين الصادقين ويأمنونهم على دمائهم وأموالهم .

ولقد وضح رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سمة من سمات المؤمن وهى أن يأمنه النـاس فقال صلوات الله وسلامه عليه : «والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم [(1)]» .

وتركيزا على (الأمن) كعلامة مميزة للمجتمع المؤمن وسمة ملازمة للمؤمنين نرى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ينظر إلى من يرجى منه الخير ولا يخاف أحد منه ويؤمن الشر من جانبه بأن هذا الانسان هو خير الناس ، فيقول صلوات وسلامه عليه : « خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره » [(1)]

وقد أنكر الاسلام من يستخدم السلاح فى غير موضعه ، وبغير وجه حق يروى عن الحسن : ان رجلا شهر سيفه على رجل ، فجعل يفرقعه فبلغ ذلك أبا موسى الأشعرى

---

(١) رواه الترمذى .

فقال : ما زالت الملائكة تلعنه حتى غمده أو أغمده . وحرم الإسلام قتال الانسان لأخيه الانسان وترويعه بأى حال من الأحوال ، وتوعد الإسلام المسلمين المتقاتلين بالنار ، لخروجهما على دعوة الإسلام للأمن والأمان ، والاستقرار والاطمئنان .

عن أبى بكرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه ، فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل : يا رسول الله هذا فى القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « انه كان حريصا على قتل صاحبه [1] » .

ويوضح رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن المؤمن هو الذى يأمنه الناس ولا يخافونه ولا يخونونه بل يأمنونه على دمائهم وأموالهم فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم [2] » .

ولقد وضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن طريق الدعوة الاسلامية طريق وادعة آمنة ، ومهما اعترضها من عقبات فان الله تعالى متم نوره ، وسوف يؤمن طريقها فقال صلوات الله وسلامه عليه لخباب ابن الأرت . « وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله » [3] .

ويقص علينا القرآن الكريم أروع صور الأمن والأمان التى هيأها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين والمخلصين فى أعمالهم ، وإنه سبحانه قد مكن للناس حرما آمنا فى مكة المكرمة ولكن فريقا من المشركين المقيمين هناك تذرعوا بأسباب واهية وتعللوا بعلل لا أساس لها من الصحة فقد احتجوا لعدم اتباع الهدى بأنهم يخافون على أنفسهم ولا يأمنون من أعدائهم ، فهم يخشون إن اتبعوا رسول الله ﷺ إن يتخطفهم المشركون الذين يجاورونهم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم تلك العلة الواهية ، ووضح لهم انه جعل لهم حرما آمنا ورزقهم من كل شىء فكيف نسوا انه حرم آمن لهم فى وقتهم الحاضر وكيف لا يكون أمنا لهم وسلاما لهم بعد ان يدخلوا فى دين الله . قال تعالى : ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما أمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون** [4] ﴾ .

والأمن والرخاء نعمتان من أجل النعم الإلهية يهبهما الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين المخلصين ، وهو سبحانه حين أمر بعبادته ذكّر عباده بهاتين النعمتين فقال للقرشيين :

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه .
(٣) رواه البخارى .
(٤) سورة القصص (٥٧) .

﴿فليعبـدوا رب هذا البيت* الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف [1]﴾ وإذا كان الأمن والرخاء نعمتين كريمتين للمؤمنين فانه يقابلهما نقمتان شديدتان يصلتهما الله تعالى على الكـافـرين والجاحدين وهما :- الخوف والجوع ﴿ واضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون [2] ﴾ .

* * *

---

(١) سورة قريش (٣ ، ٤) .
(٢) سورة النحل (١١٢) .

السلاح المسلح ضرورة حتمية فى الإسلام

لقد أمر الإسلام أتباعه باعداد القوة ، وليس فى اعداد القوة حتمية الجهاد والقتال ، ولكن الإسلام حين يأمر باعداد القوة يقصد أول ما يقصد إلى صيانة « السلام » وحمايته . ويمكن ادراك هذه الحكمة فى التعبير القرآنى الحكيم فى قول الله تعالى :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [1] .

فالآية الكريمة بينت علة الإعداد بأنها ارهاب أعداء الاسلام ومن يلوذون بهم ويناصرونهم من وراء ستار ، حيث يتظاهرون بأنهم على الحياد بينما هم يظاهرونهم ، ولئن كان المسلمون لا يعلمونهم فان الله تعالى يعلمهم ، ويطلع على سوء طويتهم وما يمدون به أعداء الإسلام بالمساعدات السرية ، من الأسلحة الحربية ، والأدوات العسكرية .

ولما كان هذا الإعداد للقوة بحاجة إلى بذل الأموال السخية من المسلمين قاطبة ختمت هذه الآية بالدعوة إلى الانفاق بأسلوب يحث على البذل فى سبيل الله تعالى حيث نكّر ما ينفق ليعم أى قدر وأى نوع يبذل فى سبيل الله .

- **﴿ وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾** .

وإن إعداد القوة ، صيانة للسلام وحماية له ، وذلك أمر واجب لأن السلام الذى لا تسنده قوة ولا تحميه أمة قوية ترهب تجار الحروب ومصاصى الدماء لهو سلام ضعيف غير حقيقى وأنه أقرب إلى الاستسلام .

أما السلام القوى الذى تحميه القوة ، فهو الذى يقوم على الحق والعدل والمساواة ، هذا السلام القوى هو الذى يدعو إليه الإسلام ، ولذلك عقب القرآن الكريم على آية الدعوة إلى اعداد القوة إلى الاستجابة إلى داعى السلام إن جنح إليه الأعداء :

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله [2] ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال (٦٠) .

(٢) سورة الأنفال (٦١) .

وان حاول الأعـداء أن يمكـروا وأن ينقضـوا عهـدهم فان الله تعـالى ظهـير لك وللمؤمنين ، وهو حسبك وهو سبحانه وتعالى الذى أيد رسوله ﷺ بنصره وبالمؤمنين .

﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين [1] ﴾ .

ومع حرص الإسلام على القوة التى تحمى السلام ، فانه أشد ما يكون حرصا على السلام نفسه وعلى تحقيقه وعلى كل خطة تستهدفه ، ومـا أروع قـول الرسول ﷺ - يوم الحديبية - :

« والله لا تدعونى قريش إلى خطة ، توصل بها الأرحام ، وتعظم فيها الحرمات إلا أعطيتهم اياها » .

* * *

---

(١) سورة الأنفال (٦٢) .

السلام أساس العلاقات الإنسانية في الإســـلام

لقد شرع السلام ليكون أساس العلاقات الانسانية بين جميع البشر ، والإسلام مأخوذ من مادة السلام لفظا واشتقاقا ، فانهما يشتملان على الأمن والطمأنينة عملا وتطبيقا ، ولا يقتصر ما يبذله المسلمون وما يتسمون به من مبدأ السلام على أنفسهم فحسب ، بل أيضا بالنسبة لغيرهم من غير المسلمين .

أما عن علاقة المسلمين بعضهم مع بعض ، فقد جاء الإسلام ليجمع قلوب المسلمين ، ويجعل من إخوة الايمان أكبر رابطة تجمع بين العباد (إنما المؤمنون إخوة) وقال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ .

ويقول الرسول ﷺ : « المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » فواجب المؤمنين أن يكونوا يدا واحدة ، ولكنهم إذا تخاصموا واختلفوا فيما بينهم وجب على أهل الحجى والرأى فيهم أن يصلحوا بينهم ، فان بغت طائفة على الأخرى وجب على المسلمين جميعا ان يجمعوا أمرهم لقتال الباغية . قال الله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ [١] .

وقد قاتل أبو بكر الصديق مانعى الزكاة وقاتل على الفئة الباغية واتفق الفقهاء على انها لا تخرج عن الاسلام ببغيها ، لأن القرآن وصفها بالإيمان مع مقاتلها فقال : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ .

وأما عن العلاقة بين المسلمين وغيرهم : فهى علاقة تعارف وعدل قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير** ﴾ [٢]

---

(١) سورة الحجرات (٩) .

(٢) سورة الحجرات (١٣)

وقـرر الإسـلام عدم الاكـراه فى الـدين ﴿ **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾ . كما صان الإسلام حقوق غير المسلمين من الحرية فى الجدل والمناقشة فى حدود العقل والمنطق مع التزام الأدب والبعد عن الخشونة والبعد عن العنف .

قال تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** [١] ﴾ وصيانة من الإسلام لمبدأ السلام الذى يأمن به الناس على دمائهم وتصان به حرمة أنفسهم. وضح القرآن الكريم أن قتل النفس يقض مضاجع الناس جميعا ، وأن سلام النفس أمن للناس جميعا ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** ﴾ [٢]

ولقد تولى الله تعالى بنفسه الدفاع عن الذين يستجيبون لنداء السلام حين يجنح إليه الغير ، فإذا ما توكلوا على الله تعالى فان الله سبحانه وتعالى معهم يؤيدهم وينصرهم حتى ولو كان الذين جنحوا إلى السلم أولا ، قد أخفوا عواطفهم وميولهم فى الغدر من وراء الجنوح للسلم مهما كانوا كذلك فما دام المسلمون مقدمين على السلم باخلاص فان الله تعالى معهم ويؤيدهم وهـو حسبهم وحـافظهم وهو الذى أيد رسوله ﷺ بنصره فى غزوة بدر ، وأيده بالمؤمنين ، وقد جمع قلوبهم وأرواحهم على إخوة الإيمان وألف بين قلوبهم التى كانت من قبل متنافرة .

﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** [٣] ﴾ .

وهكذا تحابوا بروح الله ، وأصبحوا بنعمته إخوانا ، وأشرق السلام فى صفوفهم . قال رسـول الله ﷺ : « إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى ، قالوا : يا رسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها والله إن وجوههم نور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس [٤] »وفى ظل السلام والحب والوئام يحيا الناس أحبة ودعاء فيرضى عليهم ربهم ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويوفقهم إلى ما فيه مرضاته » ، كما قال ﷺ : « إن المسلم إذا لقى أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما تتحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحر [٥] » .

---

(١) سورة العنكبوت (٤٦) .
(٢) سورة المائدة (٣٢) .
(٣) سورة الانفال (٦٣) .
(٤) رواه أبو داود .
(٥) رواه الطبرانى .

ادخلوا فى السلم كافة

وقد وردت الدعوة إلى السلام فى القرآن الكريم فى مواطن متعددة وبوجوه كثيرة ، كلها تؤكد الدعوة إلى الأمن والسكينة ، والاستقرار والطمأنينة ، والسير على هداية الإسلام .

قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** [1] ﴾ .

وأصل السلم : بالفتح والكسر الاستسلام والطاعة ، ويطلق أيضا على الصلح وترك الحرب والمنازعة ، وقيل : السلم الإسلام .

إن هذه الآية الكريمة دعوة للمؤمنين بصفة الإيمان التى تقتضيهم أن يجيبوا سريعا ما يُنَادون إليه ، دعوة بالوصف الحبيب إليهم أن يدخلوا فى السلم كافة .

والإنسان الذى يستجيب لهذه الدعوة ويدخل فى الإسلام ، إنما يدخل إلى السلم والأمان فى كل مناحيه ، وفى كل مجالاته ، إنه سلم مع النفس فتأمن ولا تخاف لا تفزع ، وسلم مع القلب فلا يحمل إلا الخير للإنسانية ولا يضمر شرا ولا سوءا للناس ، وسلم مع العقل فلا يفكر فيما فيه ضرر للإنسان ، ولا يفكر فيما فيه شر أو دمار للبشرية من الحروب أو نحوها ، وسلم مع الناس فلا يناصبهم العداء ، وسلم مع جميع الأحياء ، ومع كل الوجود من حوله ، لأنه لا يفكر فى شر ، ولا يضمر سوءا ، بل تفيض حياته سلما وأمنا .

فمادام مؤمنا فهو لا يسجد إلا لله وحده ولا يتجه إلا لله وحده ولا يعبد إلا الله وحده ، ولا يستعين إلا بالله وحده : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

إذن هو فى إيمانه وسلمه ، متجه إلى إله واحد قادر على كل شىء ، إنه صاحب القدرة القوية الحقيقية ، إنه القاهر فوق عباده ، إنه على كل شىء قدير ، إنه يجير ولا يجار عليه . .

ومادام الأمر كذلك فكيف لا يحيا فى سلام وأمان فى ظل هذه العقيدة ؟ وكيف يخشى من غير ربه ؟ إنه فى أمان من أية قوة زائفة أخرى ، لأنه مع القاهر القادر رب العالمين ، فلا يخاف أحدا ، ولا يخشى شيئا وهذا هو السلم بعينه .

---

(١) سورة البقرة (٢٠٨) .

هذا وقد خلقه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ لحكمة عليا نص عليها القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ﴾ فالإنسان مخلوق للعبادة ، وهو يريد بالخلافة على الأرض العبادة ، فالعبادة غايته ، وهو مخلوق من أجلها ، أى أن الإنسان بكل أعماله فى الدنيا وفى كل نشاط أو جهد يبذله إنما هو يتجه للغاية من خلقه وهى عبادة الله تعالى . .

ومن كان هدفه العبادة بكل عمل أو كسب أو نشاط هل يليق به أن يغدر ؟ هل يصح منه أن يخون ؟ هل يجوز له أن يطغى ، وأن يبغى أو يفتك أو يحارب أخاه ، أو يفجر فى الخصومة معه ؟ أو أن يتجبر عليه ؟ كلا . . كلا . . إن الذى خلق للعبادة وكل حركة أو نشاط له فى الدنيا إنما هو للعبادة ، من شأنه ألا تجيش عواطف الخوف أو القلق فى داخله ، وألا يكون مصدر خوف أو قلق لغيره . . بل إنه يستشعر السلام فى كل خطاه وفى كل حركاته وسكناته .

وإن الدين الذى يدين به الإنسان المسلم يصون حرمات الإنسان : دمه وماله وعرضه ، ويجعله مع إخوانه فى مودة ورحمة وعطف : « **مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** [(١)] » .

ويقول الرسول ـ ﷺ ـ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه [(٢)] » إن الإسلام يشيع السلام فى كل جنبات الحياة ومع كل الأحياء ، ويحمل أهل كل بلد أو حى المسئولية الجنائية لو مات فيهم إنسان جوعا لدرجة أن بعض الفقهاء يرى تغريم أهل الحى بالدية فى حالة ما إذا مات فيهم إنسان بسبب الجوع ، لإهمالهم ولعدم قيامهم بحقه ولأنهم لم يكفلوا له الأمن من الجوع ولم يمنحوه من مال الله الذى آتاهم .

ولا شىء بعد الدخول فى السلم كافة إلا ما يقابله ، وهو اتباع خطوات الشيطان ، أى أن الذى لا يدخل فى السلم ، والذى يعزف عن طريق الإسلام والأمان إنما يتبع خطوات الشيطان ، ولذا نجد القرآن الكريم بعد الأمر بالدخول فى السلم كافة يقول : ﴿ . . **ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) رواه مالك والبخارى ومسلم .

مسالمة من يسالم المسلمين ومحاربة من يحاربهم

لقد وضح الله تعالى فى كتابه العزيز أن الذين يلقون إلى المسلمين السلم ، ويكفون أيديهم عنهم فلم يقاتلوهم ما جعل الله لهم عليهم سبيلا ، بل على المسلمين أن يسالموهم ، وأن يبادلوهم أمنا بأمن وسلاما بسلام .

أما الذين لم يلقوا إلى المسلمين السلم ولم يكفوا أيديهم **فهؤلاء أمر الله تعالى** المسلمين بقتالهم وجعل لهم عليهم سلطانا مبينا .

﴿ . . فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا * ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردّوا إلى الفتنة أركسوا فيها ، فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا [1] ﴾ .

والفريق الأخير المذكور فى الآية الكريمة ، وإن حاولوا أن يظهروا بمظهر الموالاة والصداقة إلا أنهم فى الحقيقة وواقع الأمر أعداء للمسلمين ، والآية لا تأمر بأخذهم وقتالهم إلا بعد التحقق من شأنهم فهى تقول : **﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم . . ﴾** ، فالتعبير بقوله تعالى **﴿ ستجدون . . ﴾** أنهم سيجدونهم على فعل العداوة لهم حقيقة ويقوم دليل على أنهم يريدون ذلك ويتحقق المسلمون منهم .

أما الذين ألقوا السلم للمسلمين ، وسالموهم ولم يقاتلوهم فما جعل الله للمسلمين سبيلا عليهم ، فعليهم أن يسالموهم . .

فالسلام الذى يدعو إليه الإسلام أتباعه هو السلام القائم على العدل حيث لا يضار المسلمون ، ولا يُعْتَدى عليهم .

* * *

(١) سوّرة النساء (٩٠ ، ٩١) .

نهاية أعداء السلام وأعداء الإسلام

وقد صور القرآن الكريم نهاية أعداء السلام ، الذين استكبروا فى الأرض ، وطغوا وبغوا ، ونشروا فيها النزاع والخصام ، وهى أنهم فى ساعة الاحتضار ، وعند نهايتهم فى الدنيا حيث تتوفاهم الملائكة ظالمين لأنفسهم ، لأنهم حرموا أنفسهم من الإيمان والأمان ، وأوردوها موارد الخصومة والحرب والكرب والهلاك ، فكانت نهايتهم أليمة ، وعاقبتهم وخيمة . . ها هم فى لحظاتهم الأخيرة يستسلمون ويلقون السلم كاذبين وقائلين : ﴿ **ما كنا نعمل من سوء** ﴾ ولكن يأتيهم الجواب من قبل الحق ، وهو علام الغيوب - سبحانه وتعالى - ﴿ **بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ ، ويكون جزاؤهم جهنم ، **قال الله تعالى** : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون * فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين** [1] ﴾ .

ويحذر الرسول - ﷺ - من هواة حمل السلاح والضرب فى غير حق ، وأن عاقبتهم أنهم ليسوا على طريقة الرسول - ﷺ - وإنهم خارجون عن هديه حيث يقول : « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا [2] » .

وحرصا من الإسلام على السلام ، حتى لا يتلاعب الشيطان بيد أحد من الناس نهى الرسول - ﷺ - أن يعطى أحد السيف مسلولا ، عن جابر - رضى الله عنه - قال : « نهى النبى - ﷺ - أن يتعاطى السيف مسلولا [3] » . . بل إن مجرد الخوف بدون حرب نهى عنه الإسلام وجعل نهاية من يخيف إنسانا مؤمنا أنه لا يكون آمنا من أهوال يوم القيامة . عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من أخاف مؤمنا كان حقا على الله ألا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة [4] » .

كما وضح الله - تعالى - أن السلام والأمان من أعظم النعم الإلهية يهبهما الله - تعالى - لمن كان مؤمنا صادقا عاملا مخلصا عابدا ربه موثقا علاقته بخالقه وعلاقته بالناس على أساس الإسلام ودعوته ، وعليه أن يعبد ربه وأن يشكره على نعمة السلام والأمان ﴿ . . **فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** [5] ﴾ .

---

(١) سورة النحل (٢٨) .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه أبو داود والترمذى .
(٤) رواه الطبرانى .
(٥) سورة قريش (٣ ، ٤) .

وأما حين يكفر الناس بنعمة الله ـ تعالى ـ ويجحدونه فإنه يحرمهم من نعمة الرخاء والأمان ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** [1] ﴾ .

والسلام هو الطريق الذى رسمه الله تعالى للمؤمنين ، وهداهم إليه ووضحه لهم ، وهو طريق الحق والهدى والرشاد ﴿ **يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صرط مستقيم** [2] ﴾ .

والسلام الذى ينشده الإسلام من أتباعه إنما هو السلام القائم على الحق والعدل ، إنه سلام المؤمنين الذى تحميه قوة تدافع عنه وتسنده وليس سلام الضعفاء ولا سلام المستسلمين .

ومعنى كون السلام قائما على الحق والعدل ألا ينادى بالسلام قوم اغتصبت حقوقهم أو أرضهم أو سلبت أموالهم فيسكتون على الظلم ويرضون بالهوان والذلة ، وينادون بالسلام ويستسلمون للأعداء ، إن هذا ليس سلاما بل هو استسلام واستخزاء .

السلام الحقيقى فى الإسلام هو القائم على الحق والعدل كما سبق ، وهو فيما يتعلق بالأفراد بعضهم مع بعض وفى العلاقات الإنسانية نرى أن السلام يحتوى على العفو والتسامح حيث لا تضيع الحقوق وبشرط ألا يُظلم المسالم كما فى قول الله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سَلاما** [3] ﴾ .

ومن أخلاقيات السلام التى تؤدى إلى تثبيته المعاملة الحسنة والعلاقة الطيبة والصفح والتسامح كما قال الله تعالى : ﴿ **فاصفح عنهم وقل سَلام** [4] ﴾ .

وبهذه الأخلاقيات يصان السلام من التعرض للمهاترات وبعض التصرفات التى قد تؤدى إلى ضياعه أو تصدع أركانه ، أو إحداث شرخ فى علاقة السلام أو بعض بنوده مما يضطر إلى الرجوع عنه .

---

(١) سورة النحل (١١٢) .
(٢) سورة المائدة (١٦) .
(٣) سورة الفرقان (٦٣) .
(٤) سورة الزخرف (٨٩) .

إذن للسلام شروطه وأخلاقياته التى يجب توافرها حتى يتحقق ويستمر ، فإذا توافرت شروط السلام أمكن تحقيقه وإذا تحقق وجب على جميع الأطراف أن يلتزموا بأخلاقياته حتى يستمر ولا يتعرض للجحود أو التصدع وعدم الاستمرار .

ومن شروط السلام : (الحق) فلابد لإقرار السلام بين الأفراد والجماعات وبين الدول بعضها مع بعض أن يكون مستندا إلى الحق ، وأن يكون بعيدا عن الباطل ، وواضح أن الإسلام هو دين الحق ، جاء به الرسول ـ ﷺ ـ وأرسله ربه ـ سبحانه وتعالى ـ به حيث قال جل شأنه : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** [1] ﴾ .

ولا يصح أن يستقر سلام فى وجود باطل يشن إغارته على الناس أو يحاول طمس معالم الحق ويسكت الناس الباطل مدّعين أو زاعمين أنهم مسالمون وأهل سلام ، بل لابد من أجل أن يستقر السلام أن يأخذ الحق مجراه فى الحياة ويحصل كلٌ على حقه ، ولا يكون للباطل صولة ولا دولة ، حينئذ يكون السلام حقيقيا ، ويمكن أن يستمر وأن يستقر وأن يحيا الناس فى ظله آمنين . .

ومن شروط السلام : (العدل) لأن السلام القائم على العدل هو السلام الحقيقى الذى يمكن أن يستمر حيث لا يوجد طرف من الأطراف يعانى من ظلم الآخر ، وحيث لا تكون أرض مسلوبة ولا حقوق مغتصبة ، بل يسترد كل فريق حقه ، وترجع الحقوق لأصحابها ، ويقوم السلام حينئذ فيكون جديراً بالاستمرار ، ويأمن الناس فى ظله ، ويستشعرون الراحة النفسية ، فلا تحدثهم أنفسهم بظلم ولا باسترداد شىء سلب منهم ، أما السلام القائم على الظلم أو ضياع حق أو أرض أو نحو ذلك فهو سلام غير حقيقى لا يلبث أن يتنافر أهله ، وأن يطالب أحدهم بحقه وتصبح الحروب وشيكة الحدوث ، من أجل هذا كان (العَدل) من أهم شروط السلام .

ومن شروط السلام كذلك : أن يكون هناك عهد وميثاق بين الطرفين يلتزم كل فريق بوقف القتال ، واحلال السلام وعدم اعتداء أحد من الطرفين على الآخر .

قال الله تعالى : ﴿ **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ .

---

(١) سورة التوبة (٣٣) .

ومن شروط السلام : القوة وعدم الضعف والخنوع والاستسلام ، حتى لا يلحق المسلمين ذلة ولا هوان بسبب الدعوة إلى السلام ، قال الله تعالى : ﴿ **فلا تَهِنُوا وتَدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يَتِرَكُم أعمالكم** [1] ﴾ .

ومن أخلاقيات السلام : احترام العهود والمواثيق والالتزام بها ، وعدم تحرش أحد الفريقين بالآخر .

ومن أخلاقيات السلام فى الإسلام : التسامح والصفح ﴿ **فاصفح عنهم وقل سلام** ﴾ .

ومن أخلاقياته : التعاون ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعُدوان** [2] ﴾ .

ومن أخلاقياته : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة شعائر الإسلام : ﴿ **الذين إن مكناهُم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** [3] ﴾ .

ومن أخلاقيات السلام : أن تستظل الأمة بظلال الأمن الوارفة فيحيا الجميع بنعمة الأمن إخوانا متحابين ، يتركون التقاطع والتدابر والتباغض ، وينطلقون للبناء والتعمير ، وللإصلاح والتعاون ، والسعى إلى ما فيه خير العباد والبلاد .

وبمناسبة وقف الحرب بين البلدين الإسلاميين (العراق) و(إيران) وإحلال السلام ندعو الله ـ تعالى ـ أن يكلل مساعى السلام بالتوفيق ، وأن يبارك فى الجهود المخلصة الأمينة وبالله التوفيق .

— ◆ —

---

(١) سورة محمد (٣٥) .
(٢) سورة المائدة (٣) .
(٣) سورة الحج (٤١) .

الفصل الثالث :

الدعوة إلى حقوق الإنسان

* الشريعة الإسلامية دعوة إلى حقوق الإنسان .
* الدعوة إلى المحافظة على حرمة النفس وحقها فى الحياة .
* الدعوة إلى الحفاظ على حرمة الأموال .
* الدعوة إلى المحافظة على حرمة الأعراض .
* الدعوة إلى حق التعليم .
* مقاومة الإسلام للجهل والأمية .
* الدعوة إلى تعليم المرأة .
* الدعوة إلى العناية بتكوين الأسرة .
* الدعوة إلى التضامن الإسلامى .
* حق النشء و حمايتهم من الغزو الفكرى .
* الدعوة إلى حق الأمان .

دعوة الشريعة الإسلامية إلى حقوق الإنسان

اشتملت الشريعة الإسلامية على كل ما فيه سعادة البشرية فى الدنيا وفى الآخرة واستوفت بتعاليمها السمحة ، وقوانينها الثابتة المحكمة ، كل ما يكفل للفرد والجماعة حياة طيبة فى الدنيا ، ومثوبة عظيمة فى الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ (١)

وكان للشريعة الإسلامية فضلها الذى لا ينكر حتى من أعداء الإسلام فى ترسيخ دعائم الحق ونشر قوانين العدالة التى أنقذت الإنسانية المعذبة من مخالب الجهالة والضلالة وأخذت بيد الضعيف ورفعت من قيمة البسطاء العاديين والفقراء والكادحين وكل فئات النوع الإنسانى التى كادت تجرفها تيارات الضياع والهلاك وهى معزولة وضعيفة لا تملك من أمرها شيئا ، وكان للشريعة فضلها الذى لا ينكر فى نظرتها الحانية إلى الفقراء والمساكين ، وأبناء السبيل واليتامى والأرقاء والخدم وأصحاب المهن البسيطة والحرف العادية وغير ذلك ، فجعلت الشريعة لهم فى صفوف الحياة الكريمة مكاناً واضحاً ووضعا لا يغبنون فيه ، كل ذلك قبل أن تَعْرفَ المواثيقُ الدوليةُ حقوقَ الإنسان بأربعة عشرَ قرناً . وكان للشريعة فضلُها فى إعطاء المرأة حقَّها بعد أنْ كانت لا حقَّ لها ، بل كانت محرومةً من كل الحقوق حتى من حق الحياة نفسها إذ كانت توأد وهى طِفْلةٌ صغيرة ، إلى غير ذلك من الحقوق التى لا تُحصى ، فى شتى المجالات ، ولسائر فئات الناس من رجل أو امرأة ومن حُر أو عبد ومن غنى أو فقير ومن أفراد أو جماعات ومن أمم أو شعوب . لقد كفلت الشريعة الإسلامية لبنى الإنسان الكرامةَ والعزةَ يتمتع بها المؤمنون السائرون على هَدْيِهَا ومبادئها قال الله سبحانه : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** (٢) ﴾

أســاس حقــوق الإنســان

وأقامت شريعة الحق بناء دعوتها ، وجميع ما فيها من حقوق للإنسان على أساس الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له ، وهنا نقف على عظمة الشريعة الإسلامية وحكمتها

---

(١) سورة النحل (٩٧)

(٢) سورة المنافقون (٨)

وعلى قوة تنفيذ هذه الحقوق من الحاكم ومن المحكوم ، ومن الرئيس والمرءوس ومن الغنى والفقير وهكذا . . فإذا كان الإيمان هو القاعدة التى تنطلق منها دعوات المصلحين والنداء بحقوق الإنسان تشريعاً وتطبيقا فإن للإيمان أثَرَه فى الالتزام بتحقيق العدل والخير ، وبسرعة الطاعة فى كل أمر وتنفيذ كل حق من الحقوق ويظهر جانب الالتزام بتنفيذ كل الحقوق على هدى من الكتاب والسنة وطاعة لله ولرسوله . .

قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** [1] ﴾ .

وبين الله تعالى أنْ فى تنفيذ ما أَمَر به وفى طاعةِ رسوله ﷺ الرحمةَ للإنسان قال سبحانه : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون** [2] ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** [3] ﴾ .

وهنا نرى الفارق الكبير بين دعوة الشريعة إلى حقوق الإنسان ، وبين الدعوات الأخرى التى تنادى بها المواثيق الدولية ، فإن الدعوة إلى حقوق الإنسان فى رحاب الشريعة نابعة من الإيمان ، صادرة عن العقيدة الإسلامية التى يلتزم أمامها الإنسان المسلم ، ويرى ضرورة العمل والتطبيق وتنفيذ الحقوق بأسرع ما يكون ، ففى تنفيذها الأمن وفى تطبيقها الرحمة وفى البعد عنها والنكوص عما تنادى به بُعْدٌ عن حقيقة الإيمان ووقوع فى الخسران ، فثمرة حقوق الإنسان ، فى رحاب الإيمان ، أنها مأمونة الجوانب لا خوف عليها من أحد ، لأن المسلمين يصدُرون عن عقيدة وراءها حسابٌ وثوابٌ أو عقابٌ بخلاف غيرهم ، وأما الجانب الثانى : الذى يلتزم فيه بتطبيق وتحقيق حقوق الإنسان ، انطلاقا من الإيمان فهو جانب المراقبة وهذا ليس موجودا عند غير المسلمين ، ويظهر أثر ذلك فى سرعة إعطاء كل ذى حق حقه ، وعدم الجور على حقوق الآخرين ، فإذا حدَّثَتْ إنساناً نفسُهُ أن يسطو على مال الغير أو حياته أو عِرْضه أو حريته أو أن يسلبه حقا ما من الحقوق فإن عنصر المراقبة يوقظ فى أعماقه الضمير الدينى ، الذى يجعله يدرك خطورة ما يقع فيه ومدى عاقبة الجرم الذى يرتكبه ، فإنه يؤمن بأن الله مطلع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويعلم ما تبدون وما تكتمون .

---

(١) سورة النساء (٥٩) .

(٢) سورة النور (٥٦) .

(٣) سورة الحشر (٧) .

وكما رأينا بأن الإيمان هو الأساس الأصيل ومنه يكون الالتزام بأداء الحقوق ومراقبة الله السميع البصير فيها ، فإن فى الشريعة الإسلامية تطبيقات لحقوق الإنسان واجبة الأداء كالزكاة وصلة الرحم ، وإكرام الجار وحسن معاملته وإعطاء كل ذى حق حقه . فى البيع والشراء ، فى العمل وفى الشركة وفى الإجارة وغير ذلك من المعاملات التى استوفاها الفقه الإسلامى بأبوابه وفصوله . ثم كان فى الجانب الأخلاقى استثمار لهذه الحقوق وسموٌ بها إلى المثالية العالية حيث لا يكتفى الإنسان بالقيام بالواجب فحسب بل إن هناك جوانبَ ، نادى بها الإسلام ارتفاعا بحقوق الإنسان وشمولا لكل مناحى الحياة وجوانبها المختلفة وعلاقاتها المتعددة .

وتحقيقاً للأمان لهذه الحقوق نجد فى الحدود الإسلامية ما يحفظ للإنسان حقه فى الحياة وفى المال وفى العرض وفى الحرية والمساواة والعمل والشورى والكرامة وما إلى ذلك من الحقوق التى كفلها الإسلام وحافظ عليها ودعا لها .

ففى الاعتداء على حق « الحياة » تكون العقوبة من جنس الجريمة ، قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** [1] ﴾ . وبالنسبة لحق الإنسان فى الأمن نجد الشريعة قد جعلت للاعتداء على هذا الحق حدا هو حد الحرابة ، قال تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتّلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم** [2] ﴾ .

وبالنسبة لحق المال نجد الشريعة قد جعلت عقوبة الاعتداء على هذا الحق ما وضحه القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم** [3] ﴾ .

وعن حق النسل أو العرض ، نرى عقوبة ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** [4] ﴾ . وبالنسبة للمحصن الرجم وهكذا . إلى آخر الحدود والعقوبات التى جاءت فى الشريعة الإسلامية ولا نجد لها مثيلا فى أى قانون من القوانين الوضعية . .

---

(١) سورة البقرة (١٧٨ ، ١٧٩) .
(٢) سورة المائدة (٣٣ ، ٣٤) .
(٣) سورة المائدة (٣٨) .
(٤) سورة النور (٢) .

إنها حدود وعقوبات عادلة تقوم بحفظ حقوق الإنسان ورعايتها وصيانتها من التعرض لها . إنها تصون حقوق الإنسان فى حياته ونفسه ، وفى ماله ونسبه وعرضه ، وهكذا نرى فى شريعة الله المحافظة على حقوق الإنسان واستتباب الأمن والطمأنينة فى الحياة على شتى مجالاتها ، ومما سبق يتضح أن الشريعة الإسلامية ، قد استوفت كلَّ الحقوق بعقيدتها الصحيحة التى هى أساسُ العبادة والعمل والأحكام والأخلاق وبتشريعاتها ومبادئها المستقيمة ، التى تصون حقوق الإنسان وتحافظ عليها وتدعو لها على هدى وبصيرة . إنها الشريعة التامة الكاملة التى أكملها الله وأتم بها النعمة ، قال سبحانه : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** [1] ﴾ .

وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى [2] » .

وبهذا التشريع الربانى المحكم ، والوحى الإلهى صان الإسلام حقوق الإنسان ، ونادى بتطبيقها وشرع الحدود عقوبة للمعتدين عليها والمقتحمين حماها بغير حق ، وبهذا أعطى الإنسان حقه فى الحياة الكريمة بعد حقبة من الزمن عاشها الإنسان يرسف فى أغلال الظلم والاستعباد حتى جاء الإسلام ففك هذه الأغلال وحرره وكرمه وجعل حياة المجتمع الإسلامى تشرق بالتوحيد الخالص الذى لا شرك فيه وبالعدالة الكاملة التى لا ظلم معها وأحلّ الإسلام الكرامة محل الاستذلال والمساواة محل التفرقة والعلم محل الجهل والحرية بدل الاستعباد والتعارف والتآلف بدل التناكر والاختلاف والعمل بدل البطالة ، والشورى بدل الاستبداد بالرأى والإيثار بدل الأنانية والحق بدل الباطل ، وأكدّ الإسلام على حرمات المسلمين . . فلقد جاء فى خطبة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى حجة الوداع ، قوله : « أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألاَ هل بلغت . . اللهم فاشهد ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» . ويدعو القرآن إلى أصول الحق وركائز الإيمان ، مناديا بالأصول الأساسية لحقوق الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** [3] ﴾

* * *

---

(١) سورة المائدة (٣)

(٢) رواه الحـاكم .

(٣) سـورة النسـاء (٥٨)

الدعـوة إلى المحــافظة على حرمـة
النفـس وحقهــا فى الحيـاة

حق الحياة بالنسبـة للإنســان أغـلى ما يكـون . إذْ أنَّ الحياة منحـة إلهية أعطيت للإنسان ، ليقوم برسالته على ظهر الأرض ، وليؤدى دوره فى الحياة إيمانا وعملا ، وعبادة لله الخالق الرزاق ، المحيى المميت ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض وهو على كل شىء قدير . .

وقد حدد الإسلام مهمة الإنسان فى الحياة ورسالته فيها ، باستخلافه فى الأرض وقيامـه بتـوحيد خالقـه ورازقه ، وعبادته وحده لا شريك له شكرا على آلائه ونعمائه وهو سبحانه الغنى الحميد . .

قال تعـالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** [1] ﴾ .

إذاً فلم يخلق الله عباده عبثا ـ حاشا لله ـ وليست حياة الناس من السهولة بمكان بحيث يتخلصون منها أويعتدون على نفوس غيرهم ، فإن الحياة والموت بيد الله المحيى المميت .

وأكد الإسلام حرمة النفس وحقها فى الحياة ، ووضح رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هذه الحقيقة فى خطبة الوداع إذ يقول : « . . إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحـرمـة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت اللهم فاشهد ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

ومن أجـل هذا نجـد الإسـلام قد حرم كل ألوان الاعتداء على حق الحياة بأية صورة وعلى أى وضع كان هذا الاعتداء والظلم . فحرم قتل الأولاد الصغار وحرم وأد البنات كما

---

(١) سورة الذاريات (٥٦ ـ ٥٨) .

كان فى الجاهلية وأنكر عليهم الوحشية الظالمة ، ﴿ **وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به أيُمسكه على هون أم يدُسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون** [١] ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ **وإذا الموءودة سئلت * بأى ذنب قتلت** [٢] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطْئاً كبيراً** [٣] ﴾ .

كما حرم اعتداء الإنسان على نفسه كظاهرة الانتحار ، قال تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً** [٤] ﴾ .

ولمرتكب هذا الجرم عقابه فى الآخرة ، من نوع ذنبه وجريمته فى الدنيا فإن قتل نفسه بسم أو حديدة أو تردّى من جبل فهو على ذلك فى النار ، قال رسول الله ﷺ : « من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تحسى سُماً فقتل نفسه فسمُّه فى يده يتحسّاه فى نار جهنم خالدا مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالداًمخلداً فيها أبداً » [٥] .

كما حرم الإسلام قتل الغير بغير حق وتوعّد عليه ، فالقتل من أكبر الكبائر وأخطر الجرائم وأشدها على الأفراد والجماعات . إنها جريمة إذا ظهرت فى مجتمع أو تفشت فى بيئة نشرت الرعب والفزع وقضت على الأمن والاستقرار وأشاعت الإحن والبغضاء وقضت على الروابط الإنسانية ورمّلت النساء ويتمت الأطفال . لهذا أنزل الله تعالى فى شأن القاتل وعيداً شديداً ، قال سبحانه : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولَعَنَهُ وأعدَّ له عذاباً عظيما**﴾ [٦] . وقال سبحانه : ﴿ . . **ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق**﴾ ، [٧]وهذا الحق فسرّته السنة الشريفة ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » [٨] .

ولما كان القتل عدواناً على النفس بغير حق وعلى النوع الإنسانى وإفساداً للمجتمع وقضاءً على عضو من أعضائه وإهداراً لحق الحياة وهو أغلى شىء عليه . شرُعَ القصاص زجرا للناس وجزاء على الاعتداء على النفس فهو من أعظم الجنايات بعد الشرك بالله ، لهذا كان القصاص . ليكف الجانى ، وتَسْلَمَ الحياةَ من

---

(١) سورة النحل (٥٨ ، ٥٩)
(٢) سورة التكوير (٨ ، ٩) .
(٣) سورة الإسراء (٣١) .
(٤) سورة النساء (٢٩) .
(٥) رواه البخارى ومسلم .
(٦) سورة النساء (٩٣) .
(٧) سورة الأنعام (١٥١) .
(٨) رواه البخارى ومسلم .

العدوان ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** ﴾ . وحين تحدث القرآن عن أول جريمة قتل على ظهر الأرض فى قوله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين** [1] ﴾. حين تحدث القرآن بهذا النبأ كشف عن طبيعة العدوان الكامنة فى النفوس الشريرة ، والعدوان الصارخ منها ، وكشف عن الجريمة المنكرة التى تثير الضمير الإنسانى والشعور الجارف الحار والحاجة الملحة إلى قصاص عادل يصون حق النفس ، فمن أجل هذه النماذج الشريرة والعدوان على الأبرياء كان قتل النفس الواحدة ، حين لا يكون قصاص ولا دفاع عنها ، يمثل قتل جميع الناس ، لأنها واحدة من نفوس البشر جميعا ، تشترك هى وغيرها فى حق الحياة ، وكان إبقاؤها حية للدفاع عن حقها فى الحياة أو بالقصاص إذا اعتدى عليها بمثل إحياء النفوس جميعافقى صيانة حياتها صيانة لحق الحياة الذى يشترك فيه الناس جميعا ، فقال تعالى تَعْقِيبا على نبأ ابنى آدم : ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** [2] ﴾ .

وقد بين الله تعالى أن فى القصاص حياة وهذا هو وجه الحكمة فيه ، قال سبحانه : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ وذلك من وجهين :

الأول : أن فيه الحياة بطريقة الزجر فإن الإنسان الذى يقصد قتل إنسان آخر إذا فكر فى عاقبة أمره . وما يلحقه من جريمته ، وأنه إذا قَتَله قُتِل به انزجر عن قتله فكان حياةً لهما . لذا فإن الإنسان الذى تحدثه نفسه بهذه الجريمة حين يعلم أن حياتَه ثمن لجريمته ، أو أنه إذا قَطَعَ أَوْ أَتْلَفَ عضوا أُلحِقَ به مثل ذلك ، فلا شك أنه يفكر مراتٍ ومراتٍ قبل الإقدام على مثل هذه الجريمة مما يجعله يكفّ عما يريده ، فتكون فيه حياة لمن يريد الاعتداء عليه وحياة له وليس الأمر كذلك حين يعلم أن جزاءه السجن مثلا : إذ أن إلحاق عقوبة فى البدن مثلا قطعا أو تشْويهًا فى الخلقة شىء غير آلام السجن .

الثـانى : أن فى القصاص دفعا لسبب الهلاك ، فإن القاتل بغير حق يصير حربا لا هوادة فيها على أولياء القتيل لإحساسه بأنهم يلاحقونه لما ارتكبه فهو يخشى على نفسه منهم ، فيقصد حربهم ويتمنى إفناءهم لِيُزيلَ شبحَ الخوف الذى يُلاحقه ويتابعُه ، والشرع قد مكّنهم من قتله قصاصا لدفع شره عن أنفسهم ، وفى القصاص إطفاء لثورات القلوب المشتعلة بالسخط والكراهية ، وقضاء على حزازات النفوس التى يقودها الغضب والحمية إلى ظاهرة الثأر ذات العواقب الوخيمة ، ظاهرة الثأر التى تُحرّكُ أهلَ القتيل لتلمَس كلَّ ذريعة لإرْواء أحقادِهم وتحَينُ الفرص لإهدار الدماء التى لا تقتصر على القاتل وحده أحيانا

---

(١) سورة المائدة (٣٧) . (٢) سورة المائدة (٣٢) .

بل تسيل الدماء على مذابح الأضغان العائلية ، وبين الحين والحين يهُدر دم من هنا ودم من هناك ، لهذا كله شرع القصاص ، فكان فيه حياة بكل ما تتسع له معنى الحياة ، حياة لمن تحدثه نفسه بالقتل فيكف عنه حين يعلم مصيره ، وفيه حياة لمن كان سيقع عليه القتل وفيه حياة للعـائلات وللأفراد والجماعات ، بسدّ باب الثأر والعداوات . ففى القصاص شفاء لنفوس أهل القتيل من الحقد والرغبة فى الثأر . .

* * *

الدعــوة إلى الحفــاظ على حرمـة الأمــوال

عُنى الإسلام بالمحافظة على حرمة الأموال ، كما عنى بالمحافظة على حرمة النفس الإنسانية ، وعلى حرمة الأعراض ، تلك الحرمات الثلاث التى هى أغلى ما يحرص عليه كل انسان فى حياته ، ومن أجلها يُضحى بكل غال ونفيس بل قد يُضحى بحياته نفسها . ولقـد حفلت آيات القـرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه بالعنـاية بها ليأمن النـاس فى مجتمعـاتهم ، وتَسْكُن حَياتهم ، فلا تُدَنِّسُهُم فاحشة ، ولا يُلاحِقُهُم خوف ولا يفزعهم عدوان ، وفيما رواه الشيخان من خطبة الرسول صلوات الله وسلامه عليه يوم النحر ـ إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ مَنْ هو أوعى منه .

وأريد هنا أن أُبرز جانب عناية الإسلام بحرمة الأموال ، وإن الله تعالى حرم أكل الأموال بالباطل ، فقال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما** [1]﴾ . .

وفى هذا تذكير لهم برحمة الله بهم ، وإذا لم يجْد التذكير فهناك التحذير ﴿ **ومن يفعل ذلـك عدوانـا وظلما فسـوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيراً** [2]﴾ . ويوضح القرآن الكريم ، مدى رحمة الله الواسعة إذا اجتَنِبَت الكبائر ولم يُعْتَد على حُرُماتِ العِرْض والمال والنفس فقـال سبحـانه وتعالى : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ونُدْخِلكم مُدخلا كريما** [3] ﴾ .

وإذا نظرنا إلى تعاليم الإسلام فيما يتصل بجانب المحافظة على حرمة الأموال وجدنا أن الإنسان مسئول عما بيده من مال ، من جهة اكتسابه والحصول عليه ومن جهة صرفه وإنفاقه من أين اكتسبه وفيم أنفقه . ولا يقبل الله أى تصرف للمال إذا لم يكن طيبا وحلالا حتى لو أنفقه فى وجوه الخير ، وفى الحديث : « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحمه أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع ذلك جميعا ثم قذف به فى نار جهنم » .

وكثير من الناس يظن أن ما اكتسبه من حرام إذا أدّى زكاته أو إذا قام بإنفاقه فى وجوه الخير لا يكون عليه إثم ، وهذا خطأ فاحش وزعم باطل ولا أساس له . . فكما أن المال

---

(١) سورة النساء (٢٩) . (٢) سورة النساء (٣٠) .
(٣) سورة النساء (٣١) .

الحرام لا ينفع صاحبه ولو أنفقه فى الخير . بل يكون زاده إلى النار ، فكذلك يمنع الكسب الخبيث والمال الحرام من قبول دعاء صاحبه .

قال سعد بن أبى وقاص ، يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال النبى ﷺ « يا سعد والذى نفسُ محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل الله منه عملا أربعين يوما ، أيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » .

وقد دعا الإسلام إلى العمل والكسب الطيب الذى يكتسب به العبد العزة والكرامة والذى يدفع عن نفسه ذل المسألة ومَدَّ اليد ، كما رُسِمَ منهجُ الإنفاق فى قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله [٢] » .

وكما دعا الإسلام إلى الكسب والانفاق فى الوجوه المشروعة ، فقد نهى عن إضاعة المال وصرفه فى غير منفعة أو فيما حرم الله ، فالرجل الصالح يكسب المال الصالح ، لينفقه فى العمل الصالح ، وفى الحديث : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، وإضاعة المال مما يكرهه الله لعباده من الخصال وفيما رواه مسلم يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكن أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال [٣] » ، وليست السعادة الحقيقية فى جمع المال وصرفه على حسب الهوى والرغبات النفسية والمتعة المادية والجنسية ، ولكن المال الذى يغبط عليه صاحبه هو الذى يصرف فى الوجوه المشروعة ، وفى جانب الحق ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها [٤] » .

ولم تقتصر تعاليم الإسلام فى العناية بحرمة الأموال عند تحديد طرق كسبها ووسائل إنفاقها وعدم إضاعتها فى الباطل ، لم تقتصر على ذلك فحسب . بل إن الشريعة الإسلامية قد أحاطتها بعناية كبيرة ، وفرضت عقوبات رادعة لكل من يعتدى على حرمة الأموال فقررت قطع يد السارق فقال الله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم** [٥] ﴾ .

---

(١) من سحت : أى من حرام .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه البخارى .
(٥) سورة المائدة (٣٨) .

وشـدّد الإسلام فى تنفيذ حد السرقة حتى لا يتلاعب الناس ويسطو بعضهم على بعض ويأخذ أحدهم حق الآخر . عن عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة حبُّ رسول الله ﷺ ، فكلّمه أسامةُ فقال رسول الله ﷺ أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : أيها الناس إنما أهلك الذين مِنْ قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها [1] .

ويشدّد الإسلام فى الوعيد لمن يغصب حق امرىء مسلم أو يقتطعه فيقول صلوات الله وسلامه عليه (من غصب شبرا من أرض طَوَّقه الله تعالى من سبع أرضين يوم القيامة) ويقول صلوات الله وسلامه عليه : (من اقتطع مال امرىء مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان [2]) . .

وفى حال الاعتداء على المال أجاز الإسلام للمالك أن يدفع عن ماله كل معتد حماية لحرمة المال وحفاظا على الملكية الفردية مهما كلفه ذلك . وفى الحديث : (من قُتل دون ماله فهو شهيد [3]) . وقد أعلن رب العزة سبحانه وتعالى خصومته ووعيده لمن يأكل حق إنسان أو عامل أو أجير أو لا يعطيه أجره كاملا : قال ﷺ : (قال الله عز وجل : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعْطَى بى ثم غدَر ، ورجل باعَ حُرًّا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » [4]) .

وحماية للملكية ، وحفاظاً على حرمة المال حرم الإسلام الغش فى الكيل والميزان فقال تعالى : ﴿ **ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أوزنوهم يخسرون** [5] ﴾ .

وحرم الإسلام الربا . والقرض بفائدة حتى لا يظلم الناس بعضهم بعضا أو يستغل بعضهم بعضا قال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** [6] ﴾ .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه أحمد .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه البخارى .
(٥) سورة المطففين (١ ، ٣) .
(٦) سورة البقرة (٢٧٨ ، ٢٧٩) .

وتوعد الله سبحانه أولئك الذين يكنزون المال ولا ينفقونه فى سبيل الله ، توعدهم بعذاب أليم فقال سبحانه : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** [٧] ﴾

وهذا الوعيد لهؤلاء لأنهم أكلوا حق الفقراء والمحتاجين ، وكَنَزوا المال واحتكروه . فهم بالتالى لم يعملوا له حرمة ، ولم يَصُونوا للمحتاجين حقا ، هذا لأن الاعتداء على حرمة الأموال بأية صورة من الصور أو حيلة من الحيل هى ظلم كبير ، وإثم لا يتحلل منه ولا تقبل من صاحبه توبة إلا برد الحق إلى صاحبه ومهما يكن عمله صالحا أو تضحيته عظيمة فإن كل أعماله فى ضياع .

* * *

(٧) سورة التوبة (٣٤ ، ٣٥) .

الدعوة إلى المحافظة على حرمة الأعراض

الإسلام دين الطهر والعفاف ، صَانَ الأعراض كما صان الأنفس والأموال ودعا إلى حمايتها والدفاع عنها وأكّد الإسلام حرمات المسلمين ، وفى الحديث : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، وحمايةً للأعراض وصيانة لها كفل الإسلام لها حقوقا شرعها تتسق وفق ما أحلّه الله من علاقات نقية طاهرة تتميز بالثبوت والاستقرار وتُحْكَمُ بحقوق وواجبات ، تشرق فى ظلها المودة والرحمة ، وتنبثق من خلالها المشاعر الإنسانية الوفية ، والمعاملات النظيفة الراقية . ونَفى الإسلام عن المجتمع الإسلامى كل رذيلة من الرذائل وميّز عبادَه ووصفهم بصفات تتفق مع عقيدتهم الصحيحة وإيمانهم الصادق وبَيَّنَ أنهم موحدون لا يَدْعون مع الله إلها آخر ، ومحافظون على حرمة الأنفس فلا يقتلون ، ومحافظون على الأعراض فلا يزنون . إلى غير ذلك من الصفات .

قال الله تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثَامًا * يُضَاعَفْ له العذابُ يوم القيامة ويخلدْ فيه مهانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما** [١] ﴾ .

وحرم الإسلام الاقتراب من الزنا وذلك لأنه من الكبائر والفواحش قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** [٢] ﴾ .

وجريمة الاعتداء على الأعراض من أخطر الجرائم وأكبر الكبائر التى إذا تفشّت فى بيئة نشرت التحلل والإباحية وولّدت أخطر الأمراض الفتاكة بين مرتكبيها ، وأدّت إلى غيرها من الجرائم ، كما أن فيها إهداراً لماء الحياة ولمادّتها فى غير موضعها المشروع وطريقها الحلال ، كما ينشأ عن هذه الجريمة تشرّد وضياع لمن جاء من الأبناء من طريقها واختلاط للأنساب وفقدان للحياة العزيزة الطيبة النظيفة المحترمة . وهذه الجريمة المنكرة تعتبر من أشد الآفات الاجتماعية خطورة فيما يتصل بالناحية الأخلاقية والناحية الاجتماعية ، ففيها محاربة للحياة الزوجية السليمة ومحاربة للعفة والفضيلة ، وعزوف عن الزواج وهى ظاهرة

---

(١) سورة الفرقان (٦٨ - ٧٠) . (٢) سورة الإسراء (٣٢) .

تحلّلية وفعلة شنعاء لا تظهر إلا فى البيئة البعيدة عن روح الإسلام ، والتى لا تخشى الله وعذابه . وهى أكثر ما تكون مصاحبة لظاهرة العزوف عن الزواج وذلك لأن البعض حين يريد قضاء شهوته بهذه الوسيلة يستهين بشأن الزواج ويرى فيه من الأعباء والمسئوليات ما يمكن أن ينأى بنفسه عنها ، ويريح حياته منها .

وبتلك النظرة الهابطة الرخيصة ، تصغر الأسر وتقل وتضعف وتتفكك ويضعف أبناؤها جسمياً وعقلياً وخلقياً . ولما كان الزنا والاعتداء على الأعراض له خطورته وله نتائجه السيئة التى تودى بالأفراد والأسر ، وتهدم كيان البيوت وتقوّض دعائم الحياة ، شرع الإسلام عقوبته القاسية لتكون أكبر رادع ومانع من الوقوع فى هذه الجريمة ، فالزانى المحصن يقتل رجما بالحجارة ، والبكر يجلد مائة جلدة . . وتنزل به هذه العقوبة الرادعة على مرأى ومسمع من الناس ليكون فى ذلك أشد الوسائل الرادعة ، وليكون عبرة لغيره ممن تسوّل له نفسه ارتكاب مثل هذه الجريمة البشعة ، وينهى الله تعالى عن أن تكون هناك رأفة أو عطف على الجانى حين تنزل به العقوبة حتى لا تتعطل الحدود أو يخف الحد . قال الله تعالى : ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بها رأفةٌ فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** [1] ﴾ .

ومن الجرائم التى تُرْتَكَبُ اعتداءً على الأعراض (القذف) فمن قذف رجلا محصنا أو امرأة محصنة أو اتهم حدهما بارتكاب جريمة الزنا ولم يُقم البينة والدليل المطلوب شرعا فإنه يجلد ثمانين جلدة وتسقطُ شهادتهُ ، وهما عقوبتان اثنتان لا عقوبة واحدة ، **فالأولى** : وهى الجلد عقوبة مادية توقع على جسده ، **والثانية** : وهى إسقاط شهادته عقوبة معنوية أدبية توقع على كرامته ، وتظل دائمة . قال الله تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون** [2] ﴾ .

وللقاذف من الوعيد الشديد ما يستحقه مما قرره الإسلام فى الكتاب والسنة فالذين يقذفون المحصنات الغافلات يرتكبون أكبر الكبائر وتحلّ عليهم لعنة الله فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** [3] ﴾ .

---

(١) سورة النور (٢) .   (٢) سورة النور (٤) .
(٣) سورة النور (٢٣ ـ ٢٥) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون** [١] ﴾ .

وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات من السبع الموبقات التى نهى عنها الإسلام وحذّر منها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأمر المسلمين باجتنابها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولىّ يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات **الغافلات** [٢] » .

المحصنات : اسم مفعول . أى اللاتى أحصنهن الله وحفظهن عن الزنا والمراد بهن العفيفات ، وأما (الغافلات) : فالمراد الغافلات عن الفواحش وما قَذفن به .

وفيما رواه ابن أبى حاتم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لأصحابه : « تدرون أربى الربا عند الله قالوا الله ورسوله أعلم . قال : فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبيناً** [٣] ﴾ .

ومن الذنوب التى تمثل اعتداء صارخا على حرمات الناس وأعراضهم (السخرية) ، و (اللمز) ، و (التنابز بالألقاب) ، و (سوء الظن) ، و (التجسس) ، و (الغيبة) ، و (النميمة) . وقد نهى الله تعالى عن هذه الأمور كلها وحذر منها ونادى المؤمنين أن يحذروها ، ناداهم بوصف الإيمان الذى يتنافى مع تلك الآفات ولا يستقيم مع تلك الرذائل فقال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون * يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** [٤] ﴾ .

---

(١) سورة النور (١٩) .
(٢) رواه البخارى .
(٣) سورة الأحزاب (٥٨) .
(٤) سورة الحجرات (١١ - ١٢) .

فلا يجوز لإنسان أن يسخر من إنسان ولا يحل له أن يستهزىء بأخيه أو يسخر منه لأن فى بدنه نحافة أو فى بعض أعضائه علة ، أو لقلة فى ماله أو غير ذلك من الأمور ، وقد روى أن عبد الله بن مسعود انكشفت ساقه وكانت دقيقة هزيلة فضحك منها الحاضرون فقال النبى ﷺ : « أتضحكون من دقة ساقيه والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من جبل أُحُد [1] » .

وتأكيدا لحرمة الأعراض ، والحفاظ على كرامة الإنسان وعدم الاعتداء عليه بالتجسس والتطلع إلى أسراره وبيته جاء فى الحديث المتفق عليه : « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه» [2] وقال صلوات الله وسلامه عليه : «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفْض الإيمانُ إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم إنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله [3] » .

* * *

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه الترمذى .

الدعـوة إلى حق التعـليم

التعليم فى الإسـلام حق من حقـوق المسلم ، بل فريضـة أوجبها الإسلام ففى الحديث يقول الرسول ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم [1])

فى ظل الإسـلام تبـوأت الإنسـانية مكـانتهـا المرموقة ، وعاشت وليس على عينها عصابة ، ولا فى قلبها غشاوة ، وانطلقت فى حياة خصبة ممتلئة ، وفى مجالات رحبة تشرق بالنـور والأمل غير متعثرة الخطى ، ولا حائرة الفكر لأن لديها من رصيدها الإيمانى علما ثابت الأصـول ومعـرفـة نابضـة بالخـير والإصـلاح ، فأمنت الإنسانية المؤمنة من مزالق الضلالة ، ومن تخبطات الجهالة ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى [2] » .

وقـد نزل القـرآن الكريم بقوانين السعادة والاصلاح والرشد والفلاح فأطفأ لهيب الجهل والظلم وأضاء الحياة بالعلم والعدل وبعث فيها روح الاخلاص والحق ، وكانت أولى آيات التنزيل دعوة صريحة للعلم والمعرفة على أساس الإيمـان الحق بالله الذى علم الإنسان ما لم يعلم قال تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ .

التحصـيل والتبـليغ

وليس العلم حصيلة يحتويها العالم ولا يطالع بها أمّته أو يرشد بها النشء أو يوجه بها الناس وإنما العلم فى الإسلام فريضة اذا قام بها المسلم وتعلم فلابد أن ينفع غيره ، ويعلم الناس وينذر قومه قال الله تعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينـذروا قومهم اذا رجعـوا اليهم لعلم يحذرون** ﴾ . ولقـد حث الرسول صلوات الله وسـلامـه عليه على طلب العلم وتبليغه عن ابن شهاب قال : قال حميد بن عبد الرحمن سمعت معاوية خطيبا يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الـدين وإنـما انا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله [3] » .

---

(١) رواه ابن ماجه وابن عبد البر فى العلم عن أنس .
(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك .
(٣) رواه أحمد وغيره .

فالعلم فى الإسـلام أخْـذٌ وعـطاء وتعلم وتعليم ودعـوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجـادلـة بالتى هى أحسن . قال سبحانه : ﴿ **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنـة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ وهو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وتقوية للإيمان والاستمرار فى مواصلة مسار الإصلاح والخير . وبهذا تتبوأ الأمة الإسلامية مكانتها كخير أمة أخرجت للناس قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ .

وتحصيل العلم ونشره لابد فيه من الأمانة العلمية فى الحفاظ عليه خاصة اذا كان فى الدين سواء كان من القرآن أو من السنة الشريفة فلابد من الأمانة والضبط والاتقان فى التبليغ فيؤدى المسلم ويبلغ كما سمع قال صلى الله عليه وسلم : « **نَضرَّ الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه** [1] » .

ولقد اصطفى الله سبحانه وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ليبلغ الرسالة الإِليهة للنـاس جميعـا ، ويتلو عليهم آياته ويذكرهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ولذا فقد أعده اعدادا كاملا فرباه بعنايته وكلأه برعايته وعصمه من الناس وعلمه ما لم يكن يعلم قال الله تعـالى : ﴿ **ولـولا فضـل الله عليـك ورحمتـه لهمّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** » .

المنهـج المثـالى

وقد نهج رسول الله صلوات الله وسلامه عليه منهجا مثاليا يجب ان يقتدى به كل الموجهـين والمعلمين والمصلحين انه منهج القرآن الذى يأخذ الناس بالتدريج فى التوجيه والتعليم وفى انتزاع الشر والباطل وفى العمل على غرس أصول الحق والهدى .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يفتى كل سائل ومستفسر فيما يسأل عنه فى كل زمان وفى كل مكان حسبما اتفق فى الحلّ والترحال وفى المسجد وهو المكان المتعارف عليه . كما كان يتبع معهم أسمى الطرق فى التعليم فيتخوَّلهم بالموعظة كراهة السآمة عليهم ويتوخّى مخاطبتهم بلغاتهم ولهجاتهم وعلى قدر عقولهم متواضعا معهم حليما كريما ، وبلغ من حرصه الشديد على تحصيل ما يقوله وحفظه وفهمه أن كان يكرر القول ثلاثا حتى يفهم عنه وأحيانا يطرح المسألة على المسلمين ليختبر افهامهم وذلك أدعى لتثبيت المعلومات فى العقول وجذب انتباههم ويتحرّى أن يكون التدريس والتعليم فى الوقت المناسب وبما يتلاءم مع العقول ، وفى الظروف التى يتسنى للمسلمين ان يحضروا فيها وتكون عقولهم واعية ويقظة .

---

(١) رواه أحمد والترمذى .

القـدوة فى التعـليم

واذا كان لابد للعلم والتعليم من أساس ثابت يتمثل فى الكتاب والسنة ، ولابد مع التحصيل من تبليغ ، ولابد مع التبليغ من أمانة . ثم لابد من منهج سليم يتبعه العلماء والمتعلمون حتى يثمر العلم . ويؤتى التعليم ثماره ونتائجه فإنه يبقى أمر هام هو القدوة فى التعليم والقدوة الحسنة انما تتمثل فى ابهى صورها وفى اسمى مقاصدها فى الرسول صلوات الله وسلامه عليه فقد كان فى حلمه وعلمه وصبره وسعة صدره يسع الناس بخلقه الكريم وسجاياه الحميدة مما جعل الناس يقبلون عليه ويستمعون اليه قال تعالى : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ وقد وجه الله سبحانه وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يدعوه قائلا : « رب زدنى علما » هذا هو موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو القدوة الحسنة ولنا فيه الاسوة كما قال الله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ .

ومن ذلك نخلص الى ان العلم لا يصل الى نهايته أحد ، ومهما بلغ العلماء فى علمهم والباحثون فى بحوثهم فإن المجهول كثير ، والغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه . . قال تعالى : ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله وما يشعرون أيان يُبعثون** ﴾ .

وما دام الأمر كذلك فيجب على كل مشتغل بالعلم ـ تعلما أو تعليما ـ أن يكون لينَ الجانب متواضعا متحليا بمكارم الاخلاق وحسن المعاملة والمعاشرة والألفة حتى يصل الى طَلَبَتِه ويحقق جوهر الرسالة التى نيطت به فلِلْعلم منزلته العالية فى الإسلام وبمقدار هذه المنزلة تسمو مكانة العالم والمتعلم ، قال سبحانه : ﴿ **انما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ . فبالعلم يصل الانسان الى مراقبة الله وخشيته وبالعلم تتحقق أعظم غاية هى أساس العبادات والمعاملات وصلات الناس بربهم وبعالمهم الذى يعيشون فيه . تلك العقيدة الصحيحة التى تتمثل فى توحيد الله سبحانه وتعالى إنها الحقيقة القرآنية الكبرى التى شهد بها رب العالمين وشهد بها الملائكة المقربون وشهد بها أولو العلم قال الله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إلٓه إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ .
وعلى هذا النحو تتضح لنا أهمية العلم كهدف من أهداف الرسالة الإلٓهية قال جل شأنه : ﴿ **هو الـذى بعث فى الأميـين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمـة وإن كانـوا من قبـل لفى ضلال مبـين** ﴾ . وقـال تعالى : ﴿ **لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ وللقدوة أثرها البالغ وأهميتها وفاعليتها فى المتعلمين والشبـاب خاصـة إذا طبقت المبـادىء التى يتعلمـونها تطبيقا بين الجميع . فلم تعد مجرد

نظريات جامدة أو افكار هامدة لا حركة تدفعها ولا حيوية تنبعث منها فلابد من التطبيق العملى فإذا تحدثنا عن الصلاة قمنا إليها مسرعين وإذا تحدثنا عن الزكاة كنا أسبق المتصدقين ، وإذا تحدثنا عن مكارم الأخلاق تعامَلْنَا بها مع الجميع وبذلك تشرق البيئة الإسلامية بمثاليات لها واقع ، ولها أصالة وعمل .

وحـدة التعـليم الدينى

وإذا كانت مناهج التعليم تختلف فى بعض البلاد الاسلامية عن بعضها فى بعض المواد والدروس والمناهج فلا يصح أبدا أن تختلف فى التعليم الدينى . ودراسة المواد الإسلامية ، فالإسلام هو الإسلام فى عقيدته وعباداته ومعاملاته وسائر أحكامه وآدابه . . فإذا ما اتفقت سائر البلاد الإسلامية على خطة موحدة فى التعلم الدينى ودراسة أولى مراحل التعليم الى نهايتها فى المدارس والمعاهد والجامعات بحيث تكون المواد أساسية وأصيلة فى جميع الاقطار الإسلامية وبكمية كافية ، وتأليف مستساغ يلبىّ حاجة المجتمع ويكون فى مستوى الفهم والادراك لدى كل مرحلة على حسب ما يناسبها كان هذا أعظم نجاح . .
ويكون هناك لقاءات ورحلات علمية بين علماء البلاد الإسلامية للتعرف على مشاكل الحياة وما يحتاجه شباب الأمة ووضع العلاج لكل مشكلة أو انحراف واعطاء القدوة الحسنة بما تشتمل عليه السنة الشريفة من قول وفعل وبما يزخر به تاريخ سلفنا من نماذج رائعة على أن يقوم بجوار ذلك منهج تربوى تطبيقى يشارك فيه العالم والمتعلم والأستاذ والطالب والداعية والمدعو وهكذا حتى نستطيع اعداد شباب أمتنا المسلمة اعدادا دينيا سليما ، على أساس سليم وحتى لا ندع شبابنا للتبعية والامتصاص والتقليد وبذلك يمكن مناهضة كل موجات التحلل السافر التى اجتاحت كثيرا من شباب أمتنا المسلمة ومن هنا نحقق ما ندبنا الله إليه من نصر دينه فيكون نصره الدائم لنا قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ . وإن العلم فى الإسلام ليس مجرد نظريات تعطى وليس أقوالا تحفظ فحسب وإنما هو تبليغ وتعليم وعمل وتطبيق .

ومن أجل ذلك فالويل كل الويل لمن كتم علما سئل عنه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « من سُئل عن علم علمه ثم كتمه أُلْجِمَ يوم القيامة بِلجام من نار[1] »

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

هذا اذا كان يعلم ما سئل عنه وكتم علمه . أما اذا كان لا يعلم فلا يصح ان يقول بهواه أو بما لا علم له به . وإنما يقول : الله أعلم . . وهكذا كان سلفنا الصالح .

عن عبد الله بن مسعود قال [1] : (يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم : الله أعلم) .

قال الله تعالى لنبيه :

﴿ قل ما اسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ .

* * *

---

(١) متفق عليه .

معادن الناس ومواقفهم من العـلم

إن حاجة الإنسانية ، الى العلم والمعرفة ، والتفقه فى الدين ، لا تقل عن حاجتها الى الطعام والشراب ، ان لم تزد . فبدون العلم والمعرفة ، وبدون التفقه فى الدين تصبح حياة الناس جامدة هامدة ـ وتصبح ضالة الخطى حائرة القصد غائمة الهدف .

فبـالعلم تصل الحياة الإنسانية الى صعيد المعرفة الرحب . وبالمعرفة يقف الأفراد والجماعات على أمور دينهم ودنياهم وما يسعدهم وينير لهم الطريق . .

ومن هنا كانت رسالة العلماء والمفكرين والكتاب والباحثين هامة وخطيرة ، وكانت مهمة الدوائر العلمية والجامعات والاكاديميات لها أثرها العظيم فى إثراء الحياة بنور العلم والمعرفة ، وفى استمرار عطائها ، ونشره ونقله الى كل جوانب الحياة . وفى نشر نور العلم والمعرفة وارسال ضوئه الى كل حياة الناس بَعْثٌ للحياة واحياءٌ للعلم فإن العلم لا يهلُك حتى يكون سرًّا .

كتب عمـر بن عبـد العـزيز الى أبى بكـر بن حزم : انـظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبى ﷺ ، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يُعَلَّمَ من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا . .

والناس معادن ، ولهم مواقعهم من العلم ، فمنهم العالم المعلم وهذا بمنزلة الأرض الطيبة التى شربت الماء فانتفعت فى نفسها وأنبتت فنفعت غيرها .

ومن الناس الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع لكنه أدّاه لغيره . فهو بمنزلة الأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به .

ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التى لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها [1] .

وعن هذه الأقسام تحدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فقال : (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت

(١) فتح البارى جـ ١ ص ١٧٧ .

الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب امسكت الماء فنفع بها الناس فشربوا وسقوا وزرعـوا . وأصابت منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ، ولا تُنبت كلأً ، فذلك مَثَلُ من فَقُهَ فى دين الله ونفعَه ما بعثنى الله به فَعِلَم وعلَّم ومَثل من لم يرفْع بذلك رأساً ، ولم يقبل هُدى الله الذى أرسلتُ به [١]) .

هذا هو موقفُ النـاس من العلم وما يمثله العلماء والمفكرون والكتاب والباحثون الـذين لا يحبسـون علمهم فى صدورهم ولا يضنّون به على دنيا الناس . . انهم تعلموا وتفهموا وعلموا وفقهوا فكان مثلُهم كما جاء فى الحديث كمثل الأرض النقية الخصبة التى قبلت الماء واستفادت منه فى نفسها ، ونفعت غيرها به وأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

وأما الثانية فأمسكت الماء فانتفع به الغير . وأما الثالثة : فلم يكن لها من حظ فى نفع ذاتى ، ولا نفع للغير . . ومثل الثالثة مثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هُدى الله ، الذى جاء به رسول الله ﷺ ، فواجب العلماء : العملُ أولا ثم تعليمُ الغير ، ونشرُ العلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا . وإذا كان هذا الهدف هو موقفَ العلماء ، فان موقف طلاب العلم ورواد المعرفة أيضا يختلف من شخص لآخر ، ومن جماعة لأخرى . فمنهم الجادُّ فى طريق العلم المقبلُ عليه ومنهم المستحى ومنهم غير الجاد ، وغير المقبل .

وتصور السنة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام نماذجَ طلاب العلم بين الاقبال والحياء والإعراض ، ويتخذ رسول الله ﷺ من واقعة حدثت فى مجلسه فى المسجد توضيحا لذلك حين كان الناس معه يعلمهم ويوجههم فأقبل عليه ثلاثة نفر لكل واحد منهم مشربهُ ووجهته فاتخذ من هذا الموقف صورة لتوجيه المسلمين .

عن أبى واقد الليثى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان الى رسول الله ﷺ وذهب واحد . قال : فوقفا على رسـول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا .

فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر : فأعرض فأعرض الله عنه » [٢]

وهناك أمر هام يتعلق بالعلم والإفتاء . ينبغى أن يراعى جانبَه كلُّ مشتغل بالعلم أو متصدر للافتاء وهو : ألا يقول فى كل شىء برأيه . بل عليه أن يسير على هدى الكتاب

---

(١) رواه البخـارى .　　(٢) رواه البخارى .

والسنة فى كل ما يقول ، وألا يتجاسر على التفسير برأيه اذا سئل فى آية من القرآن الكريم مثلا ، أو حكم من أحكام ، بل يقول فيها لا يعلم : الله أعلم .

عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن عمر جلوسا وهو مضطجع بيننا ، فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن تركت فى المسجد رجلاً يفسر برأيه هذه الآية : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾ ، فقال يأتى الناسَ يوم القيامة دخانٌ فيأخذ الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام فقال عبد الله ـ وجلس وهو غضبان : يا أيها الناس اتقوا الله من علم منكم شيئا فليقل بما يعلم ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن عِلْمَ أحدكم أن يقول فيما لا يعلم : الله أعلم . فإن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » . وبما أرساه الإسلامُ من أسس أصيلة للعلم والتعليم والعمل قامت خير أمة أخرجت للناس ، أمة ذات حضارة عريقة وتراث عظيم .

وقد أخذت الدنيا منها وتعلمت ، وشهد بذلك كل مؤرخى الحضارات من الاوربيين وغيرهم . يقول (بريفولت) : لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج ، إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد الى أوربا الحياة بل ان مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها الى الحياة الأوربية أ هـ . من كتاب (تجديد الفكر الدينى فى الإسلام ، محمد اقبال ترجمة الأستاذ عباس محمود) فما أحوج المجتمعات الإسلامية اليوم أن تمسك على تراثها وتعتز بأمجادها واعية لدورها ورسالتها ، فلا تقف موقف الصمت مما يُثار حول هذا التراث الذى امتدت آثاره الى أقصى المعمورة شرقا وغربا بل تقف منه موقف الحارس والمستزيد ، وتعمل على نشر العلم والعمل به والنهوض بالأمة الإسلامية قُدُما الى الإمام .

* * *

مقـاومة الإسلام للجهـل والأميّة

الإســلام هو دين العلم والمعرفة فبالعلم يتعرف الناس على خالقهم ودينهم وأمور دنياهم وأخراهم . ولقد كانت أولى آيات الوحى الإلهى . التى صافحت قلب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تدعو الى العلم . والى القراءة . قال الله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الاكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** [1] ﴾

وهـذه الآيات الأولى الداعية الى العلم والقراءة ، تربط العلم من أول وهلة بالله سبحـانـه وتعالى : فهى قراءة باسم الله ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ وما دام العلم والقراءة والمعرفة باسم الله ومرتبطة به فهو علم نافع وقراءة مثمرة ومعرفة وراءها خير البشرية كلها . ولما كان العلم طريقا لمعرفة الله والإيمان به ، والعمل بشرعه وسبيلا لإسعاد البشرية واصلاحها فإن الإسلام قد قاوم الجهل مقاومة كبيرة . . نوّه بالفارق الكبير بين أهل العلم وبين الذين لا يعلمون ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ ويحض الإسـلام على الخـروج فى طلب العلم ونشره وتبليغـه وتعليمـه للنـاس قال الله تعالى : ﴿ **ومـا كان المؤمنـون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** [2] ﴾

لقد عرف سلف أمتنا قيمة العلم فأَوْلَوْهُ عنايةً فائقة وقدّروا خطورة الجهل فراحوا يقـاومـونـه بكل السبل وفى شتى المجالات فى الحل وفى الترحال ، وكانت لهم رحلاتهم العلمية التى نسميها نحن اليوم ـ بلغة العصر ـ البعثات التعليمية . ولئن كانت بعثاتنا اليوم تميزت بسبل الراحة الكبيرة . وطرق المواصلات التى اختصرت المسافات الشاسعة . فان رحلاتهم العلمية لم تكن لها هذه الوسائل المريحة ، ومع هذا لو قسنا اعمالنا بأعمالهم وعلومنا بعلومهم فإنه لا يسعنا إلا أن نعترف بالتقصير ، وأن نقر بضعف الهمه وقلة الطموح .

إننا حين ننظر الى وسائل الحضارة الحديثة ـ فى المواصلات وفى سفن الفضاء التى قربت البعيد ، ووفـرت الـزمن ، ونظرنا الى وسائلهم الأولية التى كانوا يتجشمون فيها الصعاب ويعانون من وعثاء السفر وشظف العيش ، لقلنا أن النتيجة الطبيعية ان نكون نحن أكثر انتاجا وأغزر تحصيلا

---

(١) سـورة القلم (١ ـ ٥)　　(٢) سـورة التوبة (١٣٢) .

ولكن النتيجة بالعكس . واذا نظرنا الى دور العلم الحديثة ، والمدارس والمعاهد والجامعات والأكاديميات ، ونظرنا الى مجالسهم العلمية المتواضعة البسيطة لقلنا ان المتوقع ان تكون اجيالنا كلها فى درجة عالية من العلم والمعرفة وليس بيننا واحد لا يعرف القراءة والكتابة ولكن الواقع غير ذلك . ثم اذا نظرنا الى وسائل الإعلام المتعددة ، والى طرق التربية والتعليم المختلفة والى الترجمات . ودور الطباعة والنشر والتوزيع . لقلنا ان مؤلفاتنا أكثر وأن علومنا أغزر . . إذًا ما الفارق الجوهرى بيننا وبينهم . وما السبب فى هذا الفارق الكبير؟ إن الفارق الحقيقى أنهم انطلقوا لتحصيل العلم وتبليغه من قاعدة الإيمان . ونظروا اليه على أنه دين . وأما نحن فقد نظرنا اليه أو نظر أغلبنا اليه على أنه سبيل للعيش والحياة أو المنصب والجاه وإذا ما وصل الى نهاية مرحلة ما من مراحل التعليم ظن أنه قد انهى رحلة تعليمه . . نعم قد يترقى البعض الى شهادة أعلى وقد يواصل البعض بحوثه وقراءاته ، وكتاباته ، ولكنها اذا قيست ببحوث وقراءات وكتابات سلفنا وجدنا انها قليلة جدا . فأين أعمال الكثير منا بجوار عمل واحد منهم ممن كان يكتب فى اليوم الواحد أكثر من كراسة ، ويقرأ أكثر من كتاب . ويظل دؤوبا على تحصيل العلم ، حتى يترك لخلفه مئات الكتب والمراجع ، التى لم يزل حتى يومنا هذا ألوف منها مخطوطةومن حقّق بعضها ونشره قلنا : أنه أسدى للعلم يدا كريمة واخرج الينا كنزا ثمينا . .

وقد يقال : انهم كانوا متفرغين للعلم والقراءة والكتابة ، وأما نحن فقد شغلنا المعاش وسبل الحياة ، ولكن الاعتراض على هذا ، والرد عليه بدهى ، لأنهم ما كانوا يحصلون من علمهم وتعلمهم وتعليمهم على أجوركما نحصل ، والمشتغلون منا بالعلم والتعلم والتعليم ، الاغلبية الساحقة منهم ان لم يكن كلهم فجلّهم متفرغ للعلم والتعلم والتعليم ، فلم يبق إلا أن ننهض بما نهضوا به واضعين نصب أعيننا أن طلب العلم فريضة ، وأن كتمان العلم جريمة كبرى وعقابها أليم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من سئل عن علم فكتمه أُلْجِمَه الله بلجام من نار يوم القيامة [(1)] » .

وأن نُعْنَى العناية الكبيرة بمن يَنْفِرُون الينا لتلقى العلم وتحصيله وان نستوصى خيرا بمن يهاجرون فى سبيل العلم . . ولقد كانت وصية رسول الله ﷺ بأهل العلم كبيرة وهامة . عن أبى هارون العبدى رضى الله عنه قال : كنا نأتى أبا سعيد فيقول : « مرحبا بوَصّية رسول الله ﷺ » . ان رسول الله ﷺ قال : « إنّ الناس لكم تبع وإنّ رجالا يأتونكم من أقطار الأرضين ، يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا [(2)] » . وإذا كان هذا شأنَ طلاب العلم فإن شأن العلماء عظيم وحَسْبُهم قولُ الله تعالى فيهم : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ وحسبهم أنهم ورثة الأنبياء ، ولقد قاوم

(١) رواه أبو داود والترمذى .   (٢) رواه الترمذى وابن ماجه .

الإسلام الجهل فى جميع اشكاله : فقاوم جهل الشرك والوثنية والضلال ، بالتوحيد والعقيدة الصحيحة . وقاوم جهالة التقليد فنعى على اولئك الذين أسلموا عقولهم لغيرهم وتعصبوا لباطلهم ، لأنه كان عليه آباؤهم وأجدادهم . وقد حكى القرآن ذلك ونعى عليهم جهلهم وعصبيتهم فى قول الله تعالى : ﴿ **واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءَنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾ وقاوم الإسلام جهل الناس بالقراءة والكتابة ، وعمل على محو الأمية ، وكان الرسول أول من وضع حجر الأساس فى محوها حيث جعل فداء بعض الأسرى الذين لا مال لهم أن يعلّموا أولاد المسلمين القراءة والكتابة .

عن ابن عباس قال : كان ناس من الأسرى - يوم بدر - لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله ﷺ أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة . كما جعل الإسلام تعلم القرآن مهرا فى الزواج لمن ليس لديه مال فحين طلب بعض المسلمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه امرأة . قال له رسول الله ﷺ . فهل عندك من شىء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، فقال : « اذهب الى أهلك فانظر هل تجد شيئا؟» ثم رجع فقال ما وجدت شيئا . فقال رسول الله ﷺ : « انظر ولو خاتما من حديد » فذهب ثم رجع فقال : لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد ولكن هذا ازارى فلها نصفه . فقال رسول الله ﷺ : ما تصنع بإزارك إن لَبِسْتَه لم يكن عليها منه شىء ، وإن لِبَستْه لم يكن عليك منه شىء . فجلس الرجل حتى اذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ موليا فأمر به فدعى فلما جاء قال : ماذا معك من القرآن ؟ قال معى سورة كذا وسورة كذا ، عدّدها فقال : « تقرؤهن عن ظهر قلبك » قال : نعم قال : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن [1] .

إن القضاء على الجهل وإن محو الأمية ومضاعفة الجهود لخدمة العلم والثقافة الإسلامية لمن أهم ما ينبغى على المسلمين أن يوجهوا إليه عنايتهم وان يبذلوا أقصى ما فى الفكر الإسلامى والعمل على قيام أكبر نهضة علمية على أيدى المسلمين ، وقد أولى الإسلام عنايته الكبرى واهتمامه البالغ بالعلم والثقافة ، ومحاربة الجهل والأمية ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بمجلسين فى مسجده ، أحد المجلسين يدعون الله ، ويرغبون اليه والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه . فقال رسول الله ﷺ كلا المجلسين خير . وأحدهما أفضل من الآخر ، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون اليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلما ثم أقبل فجلس معهم . إن العلم نور ، وان العلم أقوى سلاح وهو سبيل الرقى والنهوض والسعادة .

---

(١) رواه مسلم .

الدعـوة الى تعـليم المـرأة

لقد أعطى الإسلام المرأة حقوقاً كثيرة بعد ان كانت مهضومة الحق فى الجاهلية . لقد منحها الإسلام حقها فى الميراث وحقها فى التملك وحقها فى الصداق . وجعل لها أهليتها فى التعاقد وفى اجراء العقود من بيع أو شراء أو رهن أو هبة أوْ وصيّة . . كما سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى شئون المسئولية والجزاء . والثواب والعقاب . بمعنى إن المرأة التى تعمل صالحا وهى مؤمنة لها جزاؤها فى الدنيا وفى الآخرة كما قال الله جل شأنه : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ ويقول سبحانه : ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** [1] ﴾ .

وسوى الإسلام بينهما فى الحدود وفى سائر أنواع الجزاء والعقوبات ففى حد الزنا وتطبيقه على الرجال والنساء . يقول الله تعالى : ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾ . وفى حد السرقة : يأمر الإسلام بتطبيق قطع اليد للسارق رجلا كان أو امرأة . ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله** [2] ﴾ .

وكما سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى ذلك فانه أعطى المرأة حق التعلم والثقافة وأباح لها أن تتعلم العلم والأدب بل انه يوجب عليها تعلم ما يتصل بأمور الدين لتقف على معرفة الأحكام ولتحسن القيام بالعبادات وسائر الوظائف فى هذه الحياة . وقد جاء فى الحديث طلب العلم فريضة على كل مسلم [3] » . وكلمة مسلم تشمل الرجل والمرأة كما يقول العلماء .

ويقول أبو قلابة : « أى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم الله أو ينفعهم الله به ويغنيهم » وفى هذا ما يشير الى أهمية إعداد الأبناء بما ينفعهم ذكورا كانوا أم اناثا ولم يفرق الإسلام فيما منحه من حق « التعليم » للمرأة المسلمة بين ان تكون حرة أو أمة . بل ان توجيهات الإسلام فيما يتصل بشأن الأمة كانت أكيدة . عن أبى بردة قال : قال رسول الله ﷺ « أيما رجل كانت عنده وليدة ـ أى جارية ـ فعلّمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران [4] »

---

(١) سورة النساء (٣٢) .
(٢) سورة المائدة (٣٨) .
(٣) رواه ابن ماجة .
(٤) رواه البخارى .

وبهذا رغب الإسلام فى تعليم المرأة وحث عليه ووضح ما له من أثر هام ومثوبة كريمة .

وإن العلم من الحقوق الأساسية التى لاغنى للحياة عنها بحال من الأحوال فإن شئـون المجتمعـات الإنسانية لا تنهض على المأكل والمشرب والملبس والمسكن فحسب ، فتلك حقـوق مادية ، أمـا تلك الحقوق المعنوية والروحـية فلها أهميتها فى تسيير الحياة وتنظيم تلك الحقوق المادية الأخرى . ولا يتأتّى ذلك إلا بتثقيف القلب والروح وتهذيب العقـل وتعليمه ، ولقد طبق رسول الله ﷺ مبدأ تعليم المرأة وتثقيفها بما كان يصنعه مع المسلمات من تخصيص يوم لهن يجلس فيه ومن تعليم أمهات المؤمنين .

روى البلاذرى فى « فتوح البلدان » ان الشفاء العدوية وهى سيدة من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب كانت كاتبة فى الجاهلية . وكانت تعلم الفتيات . وان حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام . ولما تزوجها عليه الصلاة والسلام طلب الى الشفاء العدوية ان تتابع تثقيفها وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة . والعديد من الشواهد يدل على تعلم النساء وظهورهن فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة منذ عصر بنى أمية .

وذكر ابن خلكان ان السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن ابن على بن أبى طالب لها بمصر مجلس علم حضره الإمام الشافعى نفسه وسمع عليها فيه الحديث . وروى ابن المقرى فى كتابه « نفح الطيب » انه كان لابن المطرف اللغوى جارية أخذت عن مولاها النحو واللغة ولكنها فاقته فى ذلك وبرعت على الأخص فى العروض حتى سميت « بالعـروضية » . وأنها كانت تحفظ عن ظهـر قلب كتـابى « الكـامـل » للمـبرد و « الأمالى » لأبى على القالى [1] .

واذا تقرر فى الإسلام للمرأة هذا الحق فانه ينبغى ان ينظر الى قضية تعليم المرأة نظرة عادلة ومثمرة بحيث لا يطغى تعلمها وحقها فيه وما أتاحه الإسلام لها على دورها كزوجة وعلى دورها كأم فهذا هو دورهاالأصيل .وبين الأمومة والزوجية تكون رسالة المرأة فى الحياة وما تعليمها الذى منحها الإسلام لها كحق إلا مكمل وهاد لدورها ورسالتها . ثم انه الى جانب ذلـك فحق التعليم محكوم بمبادىء الإسلام وآدابه وأخلاقه بمعنى أن المرأة التى تتلقى العلم يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن اختلاطها بالرجال الأجانب محافظة على زيها الإسلامى وعلى احتشامها ووقارها وعفتها وأخلاقها

---

(١) حقوق الإسلام د. على عبد الواحد وافى .

ومن ناحية أخرى فإنه لا يقوم واجب على حساب آخر من واجبات الأمومة والزوجية . . وهكذا كان النساء فى صدر الإسلام فهذه أسماء بنت أبى بكر الصديق تقول « كنت أخدم الزبير ـ زوجها ـ خدمة البيت كله ، وكنت أسوس فرسه وأعلفه واحتش له . وكنت أخرز الدلو واسقى الماء وأحمل النوى على رأسى من أرض له على ثلثى فرسخ » وفى الحديث : « . . والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها » رواه البخارى ومسلم . وإذا كان الإسلام قد منح المرأة تلك الحقوق السابقة فانه قد أكد واجبها كزوجة وواجبها كأم وسائر ما يجب ان تقوم به من تربية ابنائها . وكل ذلك فى حدود ما رسمه الإسلام وما حدده فى الكتاب والسنة وفى تاريخ سلفنا بحيث لا تجرفها المدنية الحديثة الى الخروج من دائرتها التى رسمها لها الدين .

كما ينبغى أن ننبه الى حكمة الإسلام العالية فى التفريق بين المرأة والرجل فى بعض الأمور والحقوق وأن ذلك من صميم العدالة الإلهية اتساقا مع طبيعة كل من الجنسين وخصائصه وتكوينه ودوره فى الحياة ، وذلك كحقها فى الميراث على النصف من نصيب الرجل وغير ذلك مما قررته الشريعة الاسلامية .

* * *

الدعوة إلى العناية بتكوين الأسرة
وحل مشكلة المغالاة فى المهور

تتكون الأمة من مجتمعات متعددة وتتكون المجتمعات من أسر كثيرة وأساس الأسرة الزوجان وأساس ارتباط الزوجين هو الزواج .

ومن هنا ندرك أهمية الزواج كأساس أصيل من أسس الحفاظ على النوع الإنسانى وبناء الأسر وقيام المجتمعات ونشأة الأمة . ومن أجل هذا عنى الإسلام عناية فائقة بشأن الأسرة وحث على تكوينها عن طريق الزواج . فقد خلق الله تعالى لنا من أنفسنا أزواجا وجعل الهدف من وراء ذلك السكن . حيث يسكن الرجل إلى امرأته ويتبادلان المودة والرحمه . اللتين تنعشان حياتها الزوجية وتسعدان الأسرة بعد ذلك . قال سبحانه : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ وحض الإسلام على الزواج أيضا ابتغاء الولد ، ليسعد المجتمع بالبنين والحفدة وليكون طريق العفة والأمان والأدب والسعادة . ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء [1] » .

ولهذا كان الامتناع عن الزواج خروجا عن الفطرة والسنة والدين وفى الحديث : « فمن رغب عن سنتى فليس منى » وفيما رواه البيهقى : يقول رسول الله ﷺ : « من كان موسرا لأن يتزوج ثم لم يتزوج فليس منى » وحتى لو كان الامتناع عن الزواج للعبادة والتخلى عن متع الحياة بما فى ذلك الزواج ، فإن الإسلام يكره ذلك ولا يبيحه ولا يستحسنه وقد أعلن رسول الله ﷺ رفضه لهؤلاء النفر الذين اعتزموا على التخلى عن متع الحياة وراحتها وعن الزواج حين أراد بعضهم ألا يتزوج وأراد الآخر أن يصوم ولا يفطر وأراد الثالث أن يصلى الليل ولا يرقد فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه « أنتم الذين تقولون كذا وكذا أمَا والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » بيد أن قضية عدول بعض الشباب عن الزواج أو تأخيرهم فيه ما زالت قائمة وبصورة واضحة رغم ما فى تعاليم الإسلام ومبادئه التى قررها من الحث والدعوة إلى الزواج والتحذير من العزوف عنه وما يتبعه من أضرار . .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ولكن وراء المشكلة أسباب اقتصادية كثيرة أهمها ، عدم توفر المال الكافى فى يد الشاب الذى يقدم على الزواج ومطالبة أهل من يخطبها لمهر كبير يغالون فيه إلى جانب العديد من التقاليد التى تولد بعضها من التفاخر والتكاثر ، ووفد بعضها مع المدنية الحديثة كل ذلك دفع بمشكلة الزواج فى نفوس البعض إلى ما يشبه التعقد . فقد أصبحت عند بعض الشباب نظرة نفسية قاتمة ربما يتهيب معها أن يفتح بيتا وأن ينشىء أسرة وأن يكون أبا ، وأن يتحمل الأعباء فيرى أنه أضعف وأقل يدا من أن يقوم بكل هذا .

ومع تطور المشكلة بتطور المدنية والتكاثر فى الجهاز وفى أثاث المنزل وكثرة المهور والمغالاة فيها مع كل هذا فقد وضع الإسلام ما فيه علاج لتلك النظرة القاتمة وعلاج للناحية النفسية فقد وعد الله سبحانه وتعالى راغبى الزواج بأن يغنيهم الله من فضله ووعده الحق لا يتخلف . يقول الله سبحانه : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ . وكان أبوبكر رضى الله تعالى عنه يقول : انجزوا ما أمركم به الله من الزواج ينجز لكم ما وعدكم من الغنى . وكان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : عجبى ممن لا يطلب الغنى فى الزواج وقد قال الله تعالى : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ .

وأما نظرة الإسلام إلى الزواج فهى نظرة دقيقة حكيمة تقوم على أساس أنه رابطة وثيقة وميثاق غليظ لا ينهض إلا عَلىَ أساس من الدين والخلق لا على كثرة المال والجاه والمنصب والتكاثر والتفاخر . ففى الحديث : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

وفى يسر الإسلام وسهولة تعاليمه ما يحل مشكلة التوقف عن الزواج . إذ أنه لم يشترط على غير القادر إلا ما يستطيع أن يؤديه حتى ولو كان أبسط شىء أو أقل ما يتمول ففى الحديث : « التمس ولو خاتما من حديد » بل إنه إذا لم يكن معه أقل ما يتمول فحسبه ما يحفظه من كتاب الله ، فعندما رجع الرجل إلى رسول الله ﷺ وقال له : التمست فلم أجد ولو خاتما من حديد قال له النبى ﷺ : هل معك شىء من القرآن قال : نعم . قل هو الله أحد والمعوذتان فقال ﷺ : « زوجتكها بما معك من القرآن » . ويروى أبو نعيم فى « الحلية » يقول : خطب أبو طلحة أم سليم قبل أن يسلم فقالت : أما أنى فيك لراغبة وما مثلك يرد ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة . لا يحل لى أن أتزوجك . فقال : مادهاك يا رميصاء ؟ قالت : وماذا دهانى ؟ قال : أين أنت من الصفراء والبيضاء . يريد الذهب والفضة ـ قالت : لا أريد صفراء ولا بيضاء فأنت امرؤ تعبد ما لا يسمع ولايبصر ولا يغنى عنك شيئا . أما تستحى أن تعبد خشبة من الأرض ينجرها لك حبشى

بنى فلان إن أنت أسلمت فذلك مهرى ولا أريد من الصداق غيره . قال : ومن لى بالإسلام يا رميصاء ؟ قالت : لك بذلك رسول الله ﷺ . فاذهب إليه .

فانطلق أبو طلحة يريد النبى ﷺ وكان جالسا فى أصحابه فلما رآه قال : جاءكم أبو طلحة غرّة الإسلام بين عينيه . وأسلم أبو طلحة أمام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأخبره بخبر الرميصاء فزوجه إياها على ما شرطت ، وهذا مثل رائع للمرأة المسلمة التى لا تنشد فى زوجها ذهبا ولا فضة ولا مالا ولا عرضا من أعراض الحياة الدنيا إنما تنشد فيه الدين أولاً وأخيراً .

ومن كل ما سبق تتضح لنا حقيقة الزواج فى الإسلام أنه لا تكلف فيه ولا عسر ولا مشقة . بل إن تعاليم الإسلام تقضى ـ تماما ـ على مشكلة المغالاة فى المهور ومشكلة التفاخر والتكاثر فى إجراءات الزواج وأثاثه : لتفتح الباب أمام راغبى الزواج وطلاب العفة . ليكونوا أسرا طاهرة كريمة أساسها الإسلام .

وحتى لا يتفاخر البعض بكثرة الصداق ، وحتى لا يتكاثر الناس فيه ويغالوا فى مقداره ، نجد الرسول صلوات الله وسلامه عليه يبين أن خيره أيسره فيقول : « خير الصداق أيسره [1] » .

وكذلك حتى لا يتفاخر الناس فى إجراءات الزواج والاحتفال به والمغالاة فى الأثاثات والتكاليف التى تثقل كاهل الرجل بين أيضا أن أعظمه أيسره مئونة فقال ﷺ : « إن أعظم الزواج بركة أيسره مئونة [2] » . وعندما سأل ﷺ رجلا تزوج وقال له : على كم تزوجتها قال له : على أربع أواق ، فقال له النبى ﷺ : على أربع أواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرق هذا الجبل ؟

وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن المغالاة فى المهور ويقول : ما تزوج رسول الله ﷺ ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم ، وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين . هذا وإن المغالاة فى المهور معول هدّام يقضى على رغبات الكثيرين من أهل العفة الراغبين فى الزواج وهو فى نفس الوقت دعوى باطلة تساعد على ضياع قسط كبير من أعمار الشباب دون تحقيق سنة الإسلام . بل قد تكون سببا من أسباب انتشار الرذيلة والفوضى الأخلاقية التى تهدد المجتمع بالتصدع والانهيار ولا مبرر لها إلا تفاخر بعض الأسر .

وليس معنى هذا أن الإسلام يدعو إلى أن يكون حق المرأة فى الصداق قليلا بل إنه يكره تلك المغالاة التى حادت عن الجادة وأصبحت عقبة أمام الزواج. أما إذا توافر المال وكان الزوج ذا يسر وغنى فإن الإسلام يجيز كثرة المهر . أخرج عبد الرزاق من طريق

(١) رواه أبو داود والحاكم وصححه . (٢) رواه أحمد .

عبد الرحمن السلمى قال : قال عمر : لا تغالوا فى مهور النساء فقالت امرأة : ليس هذا لك يا عمر . إن الله يقول: «وآتيتم إحداهن قنطارا من ذهب » ، قال : وكذلك هى قراءة ابن مسعود فقال عمر : امرأة خاصمت عمر فخصمته . وبعد : فإنا لنرجو الله تعالى أن يوفق الأسر الإسلامية إلى الأخذ بمبادىء الإسلام التى لا علاج لمشكلة الزواج إلا بها . والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل . .

* * *

الدعوة إلى التضامن الإسلامى كأساس لقوة المسلمين

إن الأمم والشعوب تختلف فى لغاتها وأشكالها وفى عاداتها وتقاليدها وهذا الاختلاف له صداه على علاقتها الإنسانية . وله أثره على مسار الروابط بينها ، إن لم تكن بينها قاعدة أساسية ذات أصول ثابتة ، تتغلب على الفوارق ووجوه الاختلاف .

وليس فى الوجود بأسره قاعدة تربط بين الأمم والشعوب وتوحّد الصف الإنسانى كالعقيدة الإسلامية .

وإذا استنبأنا التاريخ البشرى عبر أشواطه البعيدة ـ عن هذه الحقيقة لما وجدنا سوى الإسلام الذى ارتضاه الله دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا .

ولكم طَالعنا التاريخ بأممٍ بلغت فى القوة ما بلغت ووصلت فى تقدمها الحضارى ما وصلت ولكنها كانت بعيدة عن روح الإسلام . فما دارت عليها دورة الحياة إلا واندكّت عروشها وتصدّعت حضارتها ، لأنها لم تقم على أساس ولم يكن لها من القوّة الروحية نصيب .

والأمم التى لا تأخذ بشريعة الإسلام ومبادئه يدبّ بينها الخلاف ويستشرى بين صفوفها التشاحن وتشتعل فيها الفتن والحروب ، وأمة الإسلام المترامية الأطراف لها من عقيدتها أقوى رابطة لو أنها حرصت عليها وجاهدت فى سبيلها ، فإنها تغدو قوّة كبرى لا تنازعها أمة فى الوجود قاطبة .

ومن هنا دعت الحاجة الملحّة إلى التضامن الإسلامى لإيقاظ مشاعر الإخاء والتواصل فى سائر أرجاء الوطن الإسلامى . ليهب الجميع عن بكرة أبيهم متعاطفين مُتساندين متعاونين على البر والتقوى . وفى التضامن الإسلامى قوَّة فى شتى المجالات .

أولا : فى الجانب الاقتصادى مجال واسع يؤدى التضامن فيه أدوارا بالغة الأثر بين الأفراد والجماعات وبين الأمم والشعوب فتَخفُّ الجماعة الإسلامية لإغاثة المسلمين ، وسَدِّ حاجتهم ومعاونتهم وتفريج كربتهم ، سواء كانوا من بلدهم أو من غير بلدهم قَرُبوا منهم أو بَعدوا ، فالوطن الإسلامى لا حدود له تحدّه ولا فوارقَ جنسٍ أو لغة تقف فى سبيل تضامنه .

وفى سبيل تكامله الاقتصادى تتلاقى تعاليم الإسلام لاستثمار خيرات الأرض للصالح العام بين المسلمين . يعاون كلُّ فرد أخاه وكل مجتمع غيره ، بما لديه من خير أيا كان نوعه ، وقد أوجب الإسلام حقوقا فى كل الجوانب الاقتصادية دعما لتكافل المسلمين وتساندهم .

ففى المال حق . وفى الزراعة حق وفى الماشية حق وفى عروض التجارة . . وهكذا .

وفى هذا الجانب لم تَدعْ شريعةُ الإسلام الطبقة الفقيرة دون أن تَشعر بمذاق العزة ولذة اليد العليا المنفقة . فكما شرع الإسلام حقا للفقير على الغنى . فإنه شرع كذلك حقا للفقير على الفقير كما هو الحال ـ فى زكاة الفطر ـ وذلك ليسعى الفقير فى تحصيل المال . ولينهض إلى المعاونة متى استطاع إليها سبيلا . حضّ الإسلام على العمل والإنتاج وعلى استثمار خيرات الأرض . لصالح الجماعة الإسلامية .

ثانيا : فى الجانب الثقافى ، ويظهر التضامن بصورة واعية تدرك أبعاد الحركات الثقافية التى تدور حول آفاق العلم والمعرفة . وتدرك أهمية التخصصات العلمية فى كل مجال . ليسهم كل تخصص فى بناء الحياة ـ فى الجانب الذى يحتاج إليه ـ ويفسح المجال أمام نهضة علمية إسلامية . تتجاوب معها كل أرجاء العالم الإسلامى داعية إلى الإسلام ، مقاومة كل حركات المناوئين للدعوة المتربصين بها . ونشر الوعى الدينى الصافى فى كل قطاعات الأمة الإسلامية ، وفى كل ميادين الحياة صناعية كانت أو تجارية أو زراعية ، وفى كل ميادين العمل المختلفة . حتى لا ينحصر الوعى الدينى لدى طبقات من المثقفين فحسب .

ويسهم فى هذا كل بلد إسلامى بما لديه من إمكانات علمية وتخصصات دقيقة فى سائر فنون العلم والمعرفة وبحيث تكون هناك دوائر عامة تربط بين البلاد . وتنظم شئون الفكر والثقافة شريطة ألَّا تحيدَ عن منهج الإسلام وقيمه .

ثالثا: فى مواجهة أعداء الإسلام ، وللتضامن الإسلامى رسالته الجليلة فى مواجهة الفكر المادى ومقاومة الغزو الفكرى والإلحاد فى كل صوره وأشكاله .

والجهاد فى سبيل ذلك أقوى دلالات الإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة .

كما أن النكوص عن مواجهة التيارات الوافدة والقعود عن الجهاد فى سبيل الله وإيثار أعراض الدنيا دلالة على الخروج عن روح الإسلام ومبادئه .

قال الله تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** [1] ﴾

---

(١) سورة التوبة (٢٤) .

حق النشء فى حمايتهم من الغزو الفكرى

النشء فى كل مجتمع من المجتمعات وفى كل أمة من الأمم . هم أملها الباسم وهم العدة المرتقبة وهم رجال الغد المأمول ، ولذا كانت العناية بهم أهم ما ينبغى التركيز عليه . وكان لزاما على كل مجتمع أن يكرس جهوده لحماية النشء من أسباب الانحراف ومن طرق الغواية . وإن أولى خطوات الحماية من الانحراف تتمثل فى الأسرة وبين الأبوين حتى يتشرب النشء منذ الصغر روح التدين وآثار العقيدة الصحيحة والسلوك النقى بالقدوة من ناحية وبالتوجيه من الأبوين من ناحية أخرى .

ومن المعلوم أن لنصائح الوالدين أثرا كبيرا فهى خلاصة عمر ووليدة تجارب .

وإلى جانب ذلك ما ينبغى أن تتضمنه خطبة الجمعة من توجيه رشيد يتم فيه حصر الشكوك والأوهام التى تساور الكثير من الشباب مع وضع الحلول والعلاج لها ومحاولة محو الأثرة والأنانية وسائر الرذائل الأخرى .

كما ينبغى أن يُعنى بغرس الفضائل الإسلامية من التعاون على البر والتقوى وحب الخير والبذل حتى يشبوا على روح التعاون والتعاطف والبذل .

ومن أهم ما ينبغى التركيز عليه فى تلك المرحلة تربية الضمير الدينى والعناية باتباع التعاليم الدينية الصحيحة النابعة من العقيدة الصحيحة وأداء العبادات وإبراز ما تتضمنه من النتائج والآداب وسائر الآثار الحميدة .

وإن المرجع فى عظمة النشء عند سلفنا إنما كان يتمثل فى سلامة العقيدة والنشأة الصالحة فى البيئة الصالحة فى الأسرة وفى المجتمع .

كما ينبغى أن يعنى المربون والمصلحون بتنمية الجوانب المتعددة فى النشء والمواهب المتفتحة عندهم وتقوية الاستعدادات .

ومن أهم الفضائل الإسلامية التى يجب أن يتسلح بها النشء فى معركة الحياة (الصبر) وذلك لأنهم سيواجهون فى الحياة صعابا وعقبات ، ولا يكفى فى حلها ما درسوه فى المدارس أو فى تجارب الطفولة فهم إذاً فى حاجة إلى صبر وتحمل ، وأشدُّ تلك العقبات (هوى النفس) .

وبـالجملة فإن حماية النشء من الانحـراف تتمثـل فى إزالـة تلك الأسباب المؤدية للانحـراف وسـد المنـافذ أمام التيارات المادية الوافدة التى تحاول أن تستولى على عقول الشبـاب والتى هى نتيجـة جهود المبشرين والاستعمار كما هو ملاحظ فى كثير من الدول العربية والإسلامية ، وإنها لمحاولة ظالمة تتجنى على الإسلام وأبناء المسلمين وتعمل على رسم صورة مشوهة للإسلام فى عقول الشباب .

يقـول أحـد المستعمـرين فى إحـدى خطبه وهو يحمل المصحف بيده . « لن يقر للاستعمار قرار ما دام هذا المصحف بين أيدى المسلمين » .

نعـم إنـه لا استقـرار للاستعـمار ولا لمبـادئه وانحرافاته وسمومه التى يحاول دسها لا استقـرار لذلـك ما دام المصحف بين أيدى المسلمـين ومـا دام كتاب الله يُتلى بالغداة وبـالعشى . . وأمـا حينما يبتعد المسلمون عن كتاب ربهم ويتركونه من أيديهم وينصرف النشء عن القرآن الكريم فإنها الطامة الكبرى والضلال الذى ما بعده من ضلال .

لقـد وقف أعـداء الإسلام على سرِّ قوة المسلمين ، إن ذلك كله متوقف على هذا الكتاب . . على القرآن الكريـم فليجتهدواْ إذا فى صرف المسلمين عنه .

فماذا صنع أعداء الإسلام لصد المسلمين وبالأخص النشء من أبناء المسلمين عن هذا الكتاب الذى هو سر قوة المسلمين . لقد حاولوا أولاً صرف النشء لأنهم يعلمون أن هؤلاء هم رجال المستقبل وهم الذين ستقوم على أكتافهم المجتمعات وتوكل إليهم مصائر الأمم فهيأوا لهم أسباب الانصراف عن دينهم وكتابهم فى صور عديدة ، وبطرق مختلفة حاولوا ادخال عنصر التشويق فيها وما يجذب الانتباه ويستهوى النفوس .

فمن ذلك : المسارح ودور السينما وانتاج الأفلام والقصص المتحللة وانتاج الأدب الإباحى وإظهار الصور العارية والخليعة وتصوير الرذائل القبيحة على أيدى أشخاص هم أبطال الرواية أو القصة وغير ذلك من الأساليب المتعددة . وراح ضحية هذا التآمر على النشء والقيم والأخلاق الكثير ممن لم يتحصنوا فى بيوتهم أو مدارسهم وكانت النتيجة أن أصبـح حُفّـاظُ القـرآن قليلين ، وأصبـح راغبو التعليم الدينى قليلين فى البلاد العربية والإسلامية . . لماذا ؟ . .

لأن المدنية الحديثة طفحت بأساليب الإغراء البراقة وبالعناصر الحضارية المشوقة ، فراح كثـير من النشىء بل ومن الكبار الذين استهواهـم كل جديد راحوا ضحيتها وساروا مع موجة التقليد الأعمى . . فمنهم من قذف بأبنائه إلى المدارس الأجنبية ، ومنهم من وجه أبناءه الى التعليم المدنى وهجروا التعليم الدينى ، وهـجروا كتاب الله ولا شك أن فى هذا

تحقيقا لرغبة المستعمر فى انصراف المسلمين عن كتاب ربهم الذى هو سر قوتهم وصلاحهم ، وواجبنا نحن المسلمين فى شتى انحاء العالم الاسلامى ان ننتبه وأن نعنى بكتاب الله تعالى حفظا وفهما وتطبيقا وعملا ودراسة . وأن تنتشر حلقات تحفيظ القرآن الكريم فى كل موقع وفى كل بيت وفى كل مسجد . . وتلك أمانة فى اعناقنا جميعا لا يستثنى منها أحد . انها امانة فى اعناقنا حكاما ومحكومين . مثقفين وموسرين . فعلى الحافظ والمثقف أن يعلم ويحفظ غيره .

وعلى أهل اليسار والثراء أن يسهموا بأنفسهم وأموالهم ، وفى هذا جهاد كبير فى سبيل الحق وفى سبيل نشر كتاب الله وتحفيظه إننا إن لم ننتبه لهذا الخطر الزاحف وإذا لم نقم بتحفيظ النشء لكتاب الله فإن النتيجة معروفة وهى أننا سنواجه بجيل لا يعرف شيئاً عن القرآن ولا يحفظ شيئاً من القرآن بل ولا يعرف أن يطالع فى المصحف فعلى أهل الثقافة والحفظ أن يُدْلُوا بِدَلْوهم وعلى أهل المال والثراء أن يُعطوا بسخاء للحفاظ وللمحفظين وفى ذلك فليتنافس المتَنافسون . . والله ولى التوفيق . .

* * *

الدعـــوة إلى حـــق الأمــــان

لا تقـوم المجتمعـات الآمنـة إلّا على أسـاس أصيل يتميز بقوته التى لا تؤثر فيها عواصف الحياة ولا رياح الفتنة ، وإنما يدفعُ عن نفسه عَادِيَاتِ الزمن وأطماعَ الحاقدين والغُزَاة .

وهذا الأساسُ الأصيل الذى يتميز بتلك القوة ليس سلاحا ماديًّا يُدافع به وليس بناءً حديديًّا يَقْوَى على الزمن والأيام . وإنما هو أساسٌ روحيٌّ وأساسٌ عَقدِي ألَا وهُو (الإيمان) إنَّ أثر الإيمان بالله على حياة الأفراد والجماعات وعلى دُنيا البشر عموما أثَرٌ دونه كل شىء . وكيف لا . . والإيمانُ يصنعُ الرجال الأقوياء والرجولة الصامدة المجاهدة ويفتح أبوابَ الخير والحق ويشيعُ بين الناس السلامَ والأمَان . وبدونه مهما قوى البنيان فهو إلى إنهيار وبدونه مهـما كان السلاحُ فهو إلى خُسران ، وبدونه مهما قويت حياةُ المجتمع المادية فهى إلى خَوف ، وبالإيمان ـ وحده ـ تكون الحياة الآمنة والمستقرة والهادئة . ألا إن الأمن لا يستقرُّ فى الحياة ولا تستقر الحياة به إلا عندما تخلو الحياة من الظلم والبغى والعدوان وعندما تصفو الحياة تماما من كل ما لا يتفق مع الإيمان . فلا يوجد الأمنُ فى جَو الإلحاد ولا يوجد فى جو من الظلم وإنما يُشرق الأمن حيثُ يكون الإيمان وينمحى الظلم يقول الله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ .

إن الذين لهم الأمن ولهم الاستقرار ولهم الحياة الطيبة يشرق بها مجتمعهم ويَستشعِرُها أفرادهم وجماعاتهم هم المؤمنون الذين أخلصوا فى إيمانهم ولم يلبسوه بظلم .

فكانوا بَعِيدين عن الشرك ومذاهب الشرك وتياراته وأسبابه ، كانوا بعيدين عن كل ما يطفح بالظلم أو يسير فى ركابه أو يلبس ثوبه أو يتقمص صورته ، بعيدين عن الإلحاد والوجودية وعن الشيوعية ، عن كل مذاهب الهدم والدمار وتيارات الغزو الفكرى الظالم .

روى عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ **ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ .

قال أصحـابـه : وأيُّنـا لم يظلم نفسَـه : فنـزلت ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [1]
وقـال صلوات الله وسلامـه عليه : « من أُعْـطى فشكَـر ومُنـعَ فصـبرَ وظَلمَ فاسْتَغفـر وظُلِمَ فغَفَر » وسَكَت قال : فقالوا : يا رسول الله مَاله ؟ قال : « أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

---

(١) رواه البخارى .

ولننظر إلى تصوير القرآن الكريم للمجتمع الآمن الذى يحيا حياة طيبة فسنجد أنه مجتمع يقوم على الإيمان والعمل الصالح يقوم بذلك أفراده ذكوراً كانوا أو إناثا، لقد قطع الله تعالى وعداً للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، والذين يقومون على أسس الإصلاح فى المجتمع قطع الله وعداً بالحياة الطيبة الآمنة السعيدة فى الدنيا لمن جمعَ بين الإيمان والعمل الصالح وأما فى الآخرة فيجزيه الله سبحانه وتعالى بأحسن ما عمله فى الدنيا قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طَيِّبَةً ولَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهم بأَحْسَن ما كانوا يعملون** ﴾ .

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت . والحياة الطيبة بشمولها لوجوه الراحة من أى جهة كانت كما يقول المفسرون : إن معنى هذا أنها شاملة للأمن شاملة للرخاء . شاملة لأسباب السعادة المادية والمعنوية . وليس ذلك إلا فى المجتمع المؤمن الذى يقيم شريعة الله فى الأرض ، وأما المجتمعات الملحدة أو البعيدة عن شريعة الله فإنها يتهدّدها الخوف بدل الأمن ، والجوعُ بدل الرخاء ، وهذا هو قانون السماء الذى لا يتخلف والذى ضرب له القرآن الكريم المثل فى قول الله تعالى : ﴿ **وضربَ الله مَثَلاً قريَة كانت آمنةً مطمئنَّة يأتيها رِزقُها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأَذَاقها الله لِبَاسَ الجُوع والخوف بما كَانوا يَصنعون** ﴾ .

وإذا كان (الجوع والخوف) قرينى الكفر والإلحاد . كما قرّر هذا التشريعُ الربانىُّ الذى لا يتخلف فإن (الرخاء والأمن) قرينا الإيمان والعمل الصالح أو بالجملة نتيجة (الحياة الطيبة) .

يقول الله تعالى : ﴿ . . **فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ وفى جو الإيمان يأمن المجتمع ويأمن الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم فيَحيون حياة طيبة وتقاس مدى قوة الأمن فى المجتمع بمدى قوة إيمان أفراده فكلما كان الإيمان قويًّا ازدادت درجة الأمن وكلما كان الإيمان ضعيفا ضعف الأمن وقلّ الاستقرار وانتاب الجماعات والأفرادَ قلقٌ على حياتهم وخوفٌ على دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

وكم من مجتمعات بلغت فى الحضارة شأواً بعيدا وأَرْسَت من القوانين الص[illegible] ما لا يُحصى ، ومع هذا عاش الأفراد فى خوف وقلق ولم يَسُدِ الأمْنُ بين رُبُوعِهم ولا الاستقرارُ فى جنبات حياتهم وما ذلك إلاّ لخفة الإيمان وضعفِه فلم يَسُدْ كلَّ كيانهم كما هو الحال فى المجتمعات المؤمنة التى ينطلق من داخل كل فرد من أفرادها وازع الذين وصوت الضمير الدينى ينادى كلَّ إنسانٍ بين الفينة والفينة . فتراهم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .

إن شعار المجتمع المؤمن هو الأمان (والمؤمن من أَمِنه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم) وكل حياة المؤمن فى ظل إيمانه الصادق تفيض خيرا وسلاماً ورحمة ونفعا لكل من يحيط به وفى كل ما يتصل به من شئون الحياة والأحياء فإذا شاورته وجدت نفعا وإذا شاركته وجدت نفعا وإن مَاشَيْتَه وصاحبْتَه وجدتَ نفعاً فأمرهُ كلُّه خيرٌ وخُطَاهُ وكلُّ شئونِهِ فيها النفعُ والأمنُ والخيرُ . إن المؤمن مصدرُ خيرٍ ، وإن المجتمع المؤمن محوط بالأمن وإنَّ الإيمانَ يبنى بحق المجتمعات الآمنة ويجعلُ منها مصادرَ خيرٍ ونفعٍ وأمن لكل من يحيط بها من أهل ورحم وأقارب ، ومن جار أو ضعيف . مـن كـان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره وليصل رحمه وليقل خيرا أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفـه ، وينفـى الإيمان عمن بات شبعان وجاره جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم .

ويسأل الرسول ﷺ بعض أصحابه فيقول لهم : « أتصبرون عند البلاء » ؟ قالوا : نعم ، قال : « أتشكرون عند الرخاء » قالوا : نعم . قال : « أتثبتون عند الحرب واللقاء » قالـوا : نعم . قال : « مؤمنون ورب الكعبة » وإن الجماعة المؤمنة متضامنة على الخير ، يقيمون شريعة الله ويطبقون أحكامه . ولذا كان لهم عند الله منزلةٌ عالية ودرجةٌ كريمة . ﴿ والمؤمنون والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعض يأمرون بالمعروف وينْهون عن المنكرِ ويُقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويُطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنَّ الله عزيزٌ حكيم ﴾ .

* * *

اليـــوم أكملت لكـــم دينكـــم

للشخصية الإسـلامية استقـلالهـا وسـماتهـا الخاصةُ بحيث لا يبيحُ الإسلامُ تبعيةَ المسلمين لغيرهم ولا تقليدَهم لسواهم ؛ وذلك لأن الإسلامَ تامٌ وكامل وشريعته وافيةٌ كافية فليست بحاجة إلى جديد أو دخيل .

والأمةُ الإسلامية ليست بحاجة إلى فكرٍ جديد ولا إلى ثقافة مستورَدة لأن فى شريعتها الغَناءَ عن كل هذا وذاك .

قال الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ .

يقول الحافظ ابن كثير عن هذه الآية الكريمة : هذه أكبرُ نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون الى دين غيره ولا إلى نبى غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه . ولهذا جعله الله تعالى خاتَم الأنبياء . وبعثـه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرّمه ، ولا دين إلاّ ما شرعه وكلُّ شىء أخبر به فهو حقٌّ وصدق لا كذبَ فيه ولا خلف كما قال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا** ﴾ ا هـ .

وعندما نزلت هذه الآية الكريمة : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ وذلك يوم الحج الأكبر ، بكى عمرُ فقال له النبى ﷺ (ما يبكيك) قال : أبكانى أنَّا كنا فى زيادة من ديننا فأمـا إذَا أكمل فإنه لم يُكْمَل شىء إلا نقَص . قال : (صدقت) . ويشهدُ لهذا المعنى الحديث : (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء) إنهم المتمسكون بدينهم وسَط جموع البشر منهم المقلّدون ومنهم التابعون ومنهم المخدُوعُ بكل جديدٍ براق أو بفكر مُستَوردٍ أو ثقافةٍ غربية أو فكر مادى ملحد .

إن المعتَصمين بحبل الله، المتمسكين بشريعته وسْطَ هذا الجو الخانق وفى صخب الحياة غرباء وإن كانوا من أهل الوطن أصبحوا كالغرباء لشدة الفتن وانسياحها بين أرجاء الدنيا .

وعن الآية الكريمة السابقة أيضا : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ يروى الإمام أحمد ابن حنبل بسنده عن طارق بن شهابٍ قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرءون آيةً فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك

اليوم عيداً ، قال : أىّ آية ؟ قال : قوله : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى** ﴾ فقال عمر : والله إنى لأعلم اليوم الذى نَزَلت على رسول الله ﷺ والساعة التى نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشيةَ عرفةَ فى يومِ جُمعة .

وإذا كان ديننا كاملاً وثقافتنا الإسلامية بفضل الكتاب والسنة وافيةً فلسنا بحاجة إلى الفكر المستورد . لسنا بحاجة إلى ذلك الطلاءِ الزائف الذى مَوَّهَ به أعداءُ الإسلام والحاقدون بحجة التطور حينا وبحجة التجديد حينا آخر .

لقد جرَّت التبعية وجرَّ التقليد الأعمى كثيرا من الويلات على كثير من المجتمعات عندما نزل التقليد كالسيل الجارف يحمل معه الغث والسمين والنافعَ والضار . فمن المجتمعات المبهورة بكل جديد من أخذ من الأجانب أعداء الإسلام ما أخذ من الربا والخمر والميسر ولَعِب القمار وسائر المسكرات والمخدرات ووسائل اللهو والخلاعة والمجون . وفى الصحيحين ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « لَتَتبعُنّ سنَنَ من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جُحر ضبّ لتبعتموهم » ولطالما حذرت السنة المطهرة من التشبيه بالغير ونهت عن ذلك . حيث يقول صلوات الله وسلامه عليه : « من تشبه بقوم فهو منهم [1] » .

كما تبرأ صلوات الله وسلامه عليه من أولئك الذين يتبعون غير المسلمين تبعيةً عمياء فقال : (ليس منا من تشبه بغيرنا [2]) . . وأمر بمخالفة غير المسلمين حتى فى الشكل ، وفى المظهر وفى الزىّ وفى كل شىء . لأن للإسلام شخصيته المتميزة وللمسلمين مكانتهم الخاصة .

وحتى فى وسائل الإعلان والإعلام بدخول الصلاة . لم يرض الإسلام اتخاذ ما اتخذه الغير من الناقوس أو البوق، وفيما رواه الإمام مسلم ـ بسنده ـ عن عبد الله بن عمر أنه قال : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلوات ليس يُنَادِى بها أحدُ فتكلموا يوما بذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى . وقال بعضهم : قرنا مثل قرن اليهود . فقال عمر : أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة . قال رسول الله ﷺ : (يا بلال قم فناد بالصلاة) لقد نادى الإسلام الأمة الإسلامية أن تكون ذات طابع روحى متميز محافظة على ما فطرها الله عليه من الدين القيم .

فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها . كما ناداها أن تُحافظ على تراثها وعلى عقيدتها وعلى أبنائها وأجيالها لأن الأجيال المتلاحقة لا يمكن أن تنحرف أو تَحيد إلاَّ بتفريط الآباء ، ولذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه مشيرا إلى الفطرة وإلى

(١) رواه أبو داود .   (٢) رواه الترمذى

وسـائل التغيير عند تفريط الآباء : (كل مـولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسـانه) وينادى الإسلامُ أبناءَ المجتمعات الإسلامية أن يصونوا روح البيئة المؤمنة فلا يدعوا أنفسهم للامتصاص والتقليد وأن يحافظوا على أصول الروح الإيمانية فى المحيط الإسلامى فلا يسمحوا لفكر دخيل أن يقتحم حماها ولا لدخان المادية أن يعكر مناخها النقى . كما دعـا الفرد المسلم ـ كَلَبنةٍ فى هذا المجتمع ـ ألا يكون إمعةً يلحق كل ناعق ويستجيب لكل براق أو جديد فيحسن مع المحسنين ويسىءُ مع المسيئين فيهدر شخصيته ويمسخ فطرته. يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : (لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : إذا أحسن الناس أحسنت ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم) .

* * *

حتى تظل خطانا العلمية والحضارية موصولة بالتوجه الإسلامى

تمضى قرون على نزول القرآن الكريم وتُقْبلُ قرون وكلُّ شىء فى هذا الوجود الفسيح يتعـرض مرة لِلبلى وأخرى للضياع وغيرها للنسيان . ويظل القرآن الكريم كما هو بآياته المحكمات وقوانينه الإلهية المفصلة ، يظل هو الدستور السماوى الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

بل إننا لو ساءلنا التاريخ كم مَرَّت الأمةُ الإسلامية بمراحل متعددة وحقب مختلفة شَنَّ أعداؤها عليها الحروب ونهبوا من بعض بلادها الأموال والخيرات وضيعوا من تراثها ما ضيعوا وأحرقوا من كتبها ما أحرقوا . ومع هذا كله فقد ظل القرآن الكريم كما هو ، ظل محفوظا من الغارات والاعتداءات مصونا من أيدى العابثين، وماذلك إلا لأن يد العناية الإلهية تحرسه وترعاه وتمسكه أن يزول كما تمسك السموات والأرض أن تزولا .

فالذى تكفل بحفظ القرآن الكريم هو الله رب العالمين القائل فى محكم آياته : ﴿ **إنا نحن نزلنـا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ . ومنذُ متى تحدى الكتاب العزيز البلغاء والأدباء والشعراء والفصحاء وأهلَ الصناعة الكلامية الذين بلغوا فى هذا الميدان شأوًا بعيدا منذ متى تحدَّاهم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، وهو الآن يمضى فى نهاية هذا القرن ومع إطلالة القرن الخامس عشر . ومع هذا فلم يستطع أحد مجاراة لفظه ولا معناه ولا تراكيبه ولا أخباره المتعلقة بالأمم السالفة . ولا أخباره المتعلقة بالأمم المقبلة .

ومنذ تحدَّى الإنس والجنَّ أن يأتوا بسورة من مثله أو بعشر سور من مثله . أيضا منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان .

فباء أهلُ الصناعة البلاغية وأهل الأدب والشعر والإنس والجن باءوا جميعا بالفشل الذّريع . قال الله تعالى : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين* فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ .

بل إن الإنس والجن لو اجتمعـوا وتظاهروا واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله الله سبحانه على رسوله صلوات الله وسلامه عليه لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا مهما كان اتفاقهم ومهما حاولوا وتظاهروا .

قال تعـالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتـوا بمثـل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ .

لقـد حفظ الله سبحـانـه وتعالى كتابه الكريم وسط الحياة الصاخبة ورغم المعارك الطاحنة التى احترقت فيها آلاف الكتب وضاع بينها العديد من التراث . ولكن القرآن الكريم ظل مصونا بين دفتى المصحف الشريف ومحفوظا فى القلوب ومنقولا بالتواتر لم تتغير فيه سورة ولا آية ولا كلمة ولا حرف واحد . حفظ الله كتابه العزيز وصانه من أن ينال منه من يحاول من الناس أو من الجنّ الإتيان بمثله ، كما سبق - بل إنه تحَدَّاهُم فَبَاءوا بالفشل الذريع .

وصان الله تعالى هذا الدستور السماوى الخالد من أعداء الإسلام الذين يتربصون به الدوائر ويحاولون صرف الناس عنه بالعديد من الحيل وبإنفاق الكثير من الأموال .

﴿ **إن الذين كفروا يُنفقُون أموالَهم ليصُدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكونُ عليهم حسرة ثم يغلبون** ﴾ .

وتأكيدا لحفظ الرسالة وحفظ دستورها الإلهى فإن الله تعالى كما حفظ القرآن وتكفل بحفظه وصيانته كذلك حفظ رسوله صلوات الله وسلامه عليه وعصمه من الناس .

فحفظ الله شخص رسوله ﷺ وأظله بالأمن حتى يُبلغ رسالة ربه على أكمل وجه وأتمه .

إن التـاريخ الإسـلامى على مَرِّ أدواره منذ وفدت البشرية على ظهر هذا الكوكب الأرضى وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا ، وهذا التاريخ الطويل إذا استنبأناه عن شخصيات كافرة تمردت على الإسلام ورسوله وكانت فى كامل قوتها وسلطتها وبرغم ما أُحيط بها من أسباب الأمن والحراسة فإن التاريخ ينبئنا بأنهم سقطوا صرعى فى لحظات وانهزموا فى مواقف مختلفـة ، وربـما كانـوا فى أقوى شبابهم وعنفوانهم . لكن رسولنا صلوات الله وسـلامه عليه قد صَانه ربه من مؤامرات المتآمرين ومكر الماكرين والحاقدين وعَصَمه من الناس أجمعين . كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الرسولُ بلّغْ مَا أُنزلَ إليكَ من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ . وعن أبى سعيد الخدرى قال : كان النبى ﷺ يُحْرَسُ بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس . .

وقال : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله [1]» ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « من حدَّثَكَ أنَّ محمدا كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذَب » . وهو يقول :

(١) رواه الترمذى والحاكم والطبرانى .

« يا أيها الرسولُ بلغ ما أُنزل إليك من ربك » وفى الصحيحين أيضاً أنها قالت : لو كان محمـد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية « وتخْفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناسَ والله أَحَـقُّ أن تخشاه » .

إن رسالة العالم الإسلامى تجاه هذا القرن تُلقى على كل مسلم أمانةً واجبةً الأداء من فَرَّطَ فيها فقد فرط فى أصْلِ هذه الرسالة التامة الكاملة المحفوظة من التبديل والتغيير المصونة من كل تحريف .

إن التعليم فى جميع بلاد العالم يسير على قدم وساق. وإن النهضات العلمية والحضارية تسـير بخطى واسعة ولا أريد أبداً أَنْ أَدْخُل فى التفصيلات والتخصصات المتنوعة والتى لا تقع تحت حصر فهى أشهر من أن نُعَرِّف بها ، فى سائر دور العلم والأكاديميات ومختلف الدوائر العلمية الأخرى .

ولكن أريد أن أقول ببساطة أن التعليم إما دينى أو مدنى وكلا النوعين لابد لهما - فيما يتصـل بكتـاب الله تعالى - من الحفظ أولا ثم الفهم ثانيا : ثم العمل ثالثا : وبهذا يتم الاحتفال العملى والتطبيقى لتظل خطانا العلمية والحضارية ثابتة موصولة بالوحى الإلهى ثابتة موصولة بالوحى الإلهى وبمنهج سلفنا .

فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كنا إذا تعلمنا من النبى ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التى نزلت بعدها حتى نتعلم ما فيها ، قيل لشريك : من العمل ؟ قال نعم [1]

* * *

(١) رواه الحاكم .

من الدراســات الإســلامية الجــادة

نعيش القرن الخامس عشر ، ولا شك أن الإنسانية راجعت تاريخها عبر تلك المسيرة الزمنية الطويلة ، وترسل أنظارها وأسماعها . . وتقلب صفحات تراثها خلال هذه القرون الماضية فإذا بها أمام حشد هائل من المصادر والمراجع والكتب . والدواوين والجوامع والصحف . . والمجلات والمذكرات التى لا تقع تحت حصر ، وبرغم هذه الدراسات الكثيرة التى أخذت مكانها ، فهى فى حاجة إلى المزيد والبحث وفى حاجة إلى الكشف والتنقيب الطويل . . فمنذ أنزل الله القرآن الكريم على رسوله صلوات الله عليه وسلامه عليه وعلوم الدين والدراسات الإسلامية تنتشر وتزيد . . فحول هذا الكتاب العزيز ، انتشرت ونشأت علوم القرآن لمعرفة المكى والمدنى ، والحضرى والسفرى ، والليلى والنهارى ، والصيفى والشتائى ، ومعرفة أسباب النزول ، وتحديد أول ما نزل من القرآن الكريم . . وآخر ما نزل منه . وما يتصل بقراءاته وأنواعها ومعرفة الأداء والوقف والإبدال والإشمام والروم والاختلاس والإمالة والمدّ . وأقسام المد والإدغام وغير ذلك من الأنواع والقواعد المبسوطة فى علوم القرآن والقراءات .

وإلى جوار هذه الدراسات قامت دراسات أخرى فى بيان القَسَم فى القرآن وأنواعه ، ومفردات القرآن وغريب القرآن ، وقصص القرآن وتفسير القرآن . . وإلى جانب هذه وتلك . انتشرت بحوث ودراسات جادة استهدفت الغوص فى معانى القرآن الكريم لاستخراج بعض ما يحتويه من كنوز ثمينة . . دونها كل كنوز الدنيا .

ولاستخراج ما فيه من قوانين إلهية محكمة ، فصلها رب العزة سبحانه وتعالى .

وإذا فكرت معى - أيها القارىء العزيز - كم كتاب فى التفسير ألف وخرج إلى عالم البشر ، وبين أيدى القراء . . وكم علم من العلوم الدينية نشأ فى ظل الدراسات القرآنية ؟ وكم كتاب صدر حول بعض المفاهيم القرآنية ، وبعض جوانب هداية هذا الكتاب العظيم ؟ وكم مقالة نقرؤها فى الصحف أو فى المجلات وكم محاضرة نسمعها وكم خطبة تلقى علينا من فوق منبر المسجد أو من فوق منصة الوعظ والإرشاد والتوجيه .

ثم كم حديث فى الإذاعة أو فى غيرها . . إنها دراسات عديدة لا تحصر ومع هذا كله فلا تكاد ترى تكرارا فى الدراسات المبتكرة إلا قليلا .

وحتى ما نراه مكرراً من المعانى . . فإنه لا يخلو الكثير منه عن فكرة جديدة ، وعرض جديد واتجاه فى المعانى يفتح للفكر الإنسانى آفاقا رحْبة . تتداعى من خلالها معان ومعان كثيرة وتنبثق منها أفكار وأفكار ، ونظريات طيبة وليس هذا مجال سرْدِ وجوهِ إعجاز القرآن الكريم ولكنها محاولةٌ لا أكثر . . أحاول فيها أن ألقى بعض الأضواء على الدروب الفكرية الكبيرة التى يمكن أن تتجه إليها الدراسات الإسلامية الجادّة والعميقة ، وإن شئت فارجع إلى المصادر العديدة التى صُنّفت فى علوم القرآن ووجوه إعجازه .

وأن العلوم التى اشتمل عليها الكتاب العزيز ، والتى تفتح آفاق البحث والنظر كثيرة . . وقد أمرنا القرآن بالبحث والنظر فى ملكوت السموات والأرض .

يقول السيوطى : فى ـ الإكليل ـ قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شىء من أنواع العلوم ، فليس منها باب ولا مسألة هى أصل إلا وفى القرآن ما يدل عليها ، وفيه علم عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض وما فى الأفق الأعلى وما تحت الثرى . وبدء الخلق وأسماء مشاهير الرسل والملائكة ، وعيون أخبار الأمم السابقة . . اهـ .

وقد جاء فى كتاب (فيض الخبير) شرح منظومة التفسير ، إشارة مهمة إلى بيان ما فى القرآن من العلوم الكونية . . فذكر العالم العلامة المكى . . فضيلة السيد علوى عباس المالكى أن القرآن منبع العلوم . . ومظهر الأسرار ومستودع الغرائب مثل الطب والجدل والهيئة ، والهندسة والجبر والمقابلة . .

أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة ، واستحكام القوة وغير ذلك . وإنما يكون باعتدال المزاج وبتفاعل الكيفيات المتضادة ، وقد جمع ذلك فى آية واحدة وهى قوله تعالى : ﴿ **وكان بين ذلك قواما** ﴾ وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاطه ويحدث الشفاء للبدن بعد اعتلاله فى قوله : ﴿ **شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ ثم زاد على طب الأجساد بطب القلوب ﴿ **وشفاء لما فى الصدور** ﴾ . وأما الهيئة : ففى سورة من الآيات التى ذكرها تدل على ملكوت السموات والأرض وما بث فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات .

وأما الهندسة ـ ففى قوله تعالى : ﴿ **انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب * لا ظليلٍ ولا يغنى من اللهب** ﴾ فإن فيه القاعدة الهندسية .

وأما الجدل ـ فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول الموجب والمعارضة وغير ذلك شيئا كثيرا ، ومناظرةُ سيدنا إبراهيم عليه السلام أصل فى ذلك عظيم .

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل أن أوائل السور فيها ذكر مُدَدِ أعوام وأيام وتواريخ أُمم سابقة وأن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة وما مضى وما بقى مضروبا بعضها فى بعض . . إلخ . .

وإن كتاب الله تعالى لا تنتهى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمله العلماء وسيظل هذا الدستور السماوى الخالد : منبع الدراسات الإسلامية ومصدر العلوم الدينية ، وهدى للمتقين ، وشفاء لما فى الصدور . وإن فى القرآن الكريم تبيانا لكل شىء فهو يصلح كل زمان ومكان . وكل جيل وكل قرن .

وإن التعبير بقولنا : « يصلح كل زمان ومكان » استحسنه كثيرا من التعبير بقول الغير : « صالح لكل زمان ومكان » . لأن فى التعبير الأول إخضاعا لكل شىء وإصلاحا له على ضوء القرآن الكريم . وليس كذلك التعبير الثانى : وإذا كان القرآن الكريم بهذه المثابة « تبيانا لكل شىء » ويصلح كل زمان ومكان . . واشتمل على هذا العدد الجم الغفير من العلوم والمعارف فليس معنى هذا أن نُدخل كلَّ شىء فى القرآن الكريم ، وأن يتعسّف البعض كثيرا فى محاولات عصرية يحاولون فيها إخضاع النص القرآنى إلى كل ما يريدون أن يستدلوا عليه . وإلى كل ما يتوهمون أنه فى القرآن فيتحملون شططا كثيرا وتعسفا طويلا . نعم نكتفى بأن القرآن تبيانٌ لكل شىء وأنه المصدر الأول للتشريع الإلهى ، وأنه اشتمل على الأصول العامة ، والقواعد المقررة والقوانين الإلهية المحكمة وغير ذلك .

وأن السنة المشرفة بينت ما أبهمه وفصّلت ما أجمله وقيّدت ما أطلقه . . وليس لنا أن نزيد على ذلك ولا لأحد كائنا من كان فى علمه وابتكاره أن يخضع النص القرآنى ابتغاء ما يريد ، ويعجبنى ما قاله فى هذا الصدد الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه (النبوة والأنبياء) .

قال : ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء السابقين لكل ما يستحسن مجردة عن كل تقليد وعن كل تطبيق فالعصور تتبدل ، ومناهج الفكر تتبدل وقيم الأشياء ودرجاتها تتغير وتتبدل وترتفع وتنخفض . . وما حدث فى عصر من نظرية أو مصطلح لا يجوز أن يسلط على عصر سابق أو جيل سابق فضلا عن القرآن الذى هو كتاب سماوى خالد ، فإنه لا يخضع لعصر ولا يخضع لفكرٍ ولا يخضع لفلسفة فكرية . .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل . .

* * *

خَـيرّيـة هـــذه الأمـــة

للأمة الإسلامية مكانتها ومنزلتها فهى خير أمة أخرجت للناس ، ورسالتها فى هذه الحياة رسالة ضخمة وشاقة ، ولهذا خَوَّلَتها لأن تتبوَّأ هذه المكانة .

إنها الأمة الخاتمة ذاتُ الدعوة السماوية الخاتمة ، أُرْسِل إليها رسولٌ خاتم صلوات الله وسلامه عليه .

وإنها الأمة التى ستحمل الإيمان على ظَهر الأرض ، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وإيمانا بالله كما قال الله جل شأنه : **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾** . وكما جعل الله تعالى (خَيرية) هذه الأمة ترتكز على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله فإنه كذلك رتَّب فَلاَحَ أهلها على هذه الأمور كما قال سبحانه : **﴿ ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾** .

وفى قوله تعالى : **﴿ ولتكن منكم أمة ﴾** إشارة إلى الوحدة لأن الأمة هى التى اتحدت كلمتها وهدفها وغايتها وصَفُّها .

وتقابل الوحدة . . الفرقة والاختلاف ، وللفرقة والاختلاف أخطر النتائج فى تاريخ الأمم والشعوب ، فكم قضت الفرقةُ على أممٍ وكم أَذْهَبت ريحَ الناس .

ولهـذا فإن القـرآن الكريم إذْ يدعو لجمع الكلمة وتوحيد الصف ويخاطب الجماعة المؤمنة لتكون من بينها أمةٌ ، فإنه فى نفس الوقت يُحَذرهم من الفُرقة والاختلاف كما تفرق غيرهم واختلفوا . . فكانت عاقبتهم الخسران وكان لهم عذاب عظيم .

أما جزاء الفريقين ونهاية كل من ألقى السمعَ والقَلب لدعوة القرآن والذى لم يستجب إليها فجزاء من استجاب واتحد وكوَّن خير أمة أنه فى نور مُبْيَضٍ الوجه ، والآخرُ فى ظلمة ومسودّ الوجه . .

قال تعالى : **﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون [1] ﴾** .

---

(١) سورة آل عمران (١٠٦ ـ ١٠٨) .

ولقد حذر رسول الله ﷺ أمته من شر الفتن التى ستهب رياحها والتى سيكون الصبر فيها كالقبض على الجمر . وما ذلك إلا لتقوم هذه الأمة بدورها ورسالتها ولتصون نفسها من الوقوع فى تلك الفتن .

عن أبى أمية قال : قلت : يا أبا ثعلبة كيف تقول فى هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾ فقال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن كالقبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم [(1)] » .

أما نجاة هذه الأمة :

فإننا إذا اتجهنا إلى القرآن الكريم وإلى السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فسحصل حينئذ على خلاصة أسباب النجاة للأمة من تلك الفتن المحدقة بها ومن الأخطار المحيطة بها ومن الخسران الذى كاد يغرقها ، ولقد وضح الله تعالى ارتباط الربح الحقيقى الذى تتمثل فيه النجاة دنيا وأخرى بالإيمان والعمل وبالتواصى بالحق والصبر .

قال الله تعالى : ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

ففى هذه السورة الكريمة وضح القرآن الكريم للنفس الإنسانية الرابحة مسارين :

الأول : تقطعه من أجل كمال نفسها .

والثانى : من أجل غيرها .

أما ما يتعلق بنفس الإنسان فهو الإيمان والعمل الصالح ، وأما ما يتعلق بالغير فهو التواصى بالحق والصبر .

و (الحق) هو الأمر الثابت الذى لا سبيل إلى إنكاره ويشتمل على الخير كله من إيمان بالله واتباع لكتبه ورسله . .

و(الصبر) يكون عن المعاصى التى تتشوف إليها النفس بدافع جبلتها البشرية ويكون على الطاعات التى يشق على بعض النفوس الإتيان بها ، ويقول عثمان بن عفان رضى الله عنه : توفى رسول الله ﷺ فحزن عليه رجال من أصحابه حتى كاد بعضهم يوسوس ، فكنت ممن حزن عليه ، فبينما أنا جالس فى ظل أطم من آطام المدينة ، إذ مر بى عمر فلم

(١) أخرجه أبو داود والترمذى .

أشعر به لما بى من الحزن ، فانطلق عمر حتى دخل على أبى بكر وقد بويع فقال : يا خليفة رسول الله ، ألا أعجبك ، مررت على عثمان فسلمت عليه فلم يرد على السلام . فقام أبو بكر فأخذ بيد عمر فأقبلا جميعا حتى أتيانى . . فقال أبو بكر : يا عثمان جاءنى أخوك فزعم أنه مر بك فسلم عليك فلم ترد عليه فما الذى حملك على ذلك . فقلت : يا خليفة رسول الله ما فعلت فقال عمر : بلى والله ولكنها عبّيتكم يا بنى أمية ، فقلت : والله ما شعرت أنك مررت بى ولا سلمت على ، فقال أبو بكر : صدقت أراك والله شغلت عن ذلك بأمر حدثت به نفسك ؟

فقلت : أجل . قال : فما هو ؟ فقلت : توفى رسول الله ﷺ ولم أسأله عن نجاة هذه الأمة ما هو . وكنت أحدث بذلك نفسى وأعجب من تفريطى فى ذلك . فقال أبو بكر : وسألته عن ذلك فأخبر به فقلت ما هو ؟ قال أبو بكر : سألته فقلت : يا رسول الله ما نجاة هذه الأمة ؟ فقال : من قبل منى الكلمة التى عرضتها على عمى فردها على فهى له نجاة .

والكلمة التى عرضها على عمه : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

إن طريق النجاة لهذه الأمة إنما يتمثل فى الاعتصام بحبل الله والتمسك بالكتاب والسنة ومواجهة الفتن بقلوب عامرة بالإيمان معتصمة بكلمة التوحيد مؤدية لحقوق هذه الكلمة محققة خيريتها على ظهر الأرض كخير أمة أخرجت للناس .

* * *

رســالة ومكــانة الأمــة الإســـلامية

إن مكانة الأمة الإسلامية ، مرتبطة برسالتها فحيث قامت برسالتها وأدّت أمانتها تبوّأت مكانتها كخير أمة أخرجت للناس .

إنها الأمة الوسَط والأمةُ الخيرة التى ختم الله بها الأمم ، وختم برسولها صلوات الله وسلامه عليه الأنبياء والمرسلين ، وخصها الله تعالى بأكمل الشرائع وأوضح المناهج وأقومها لتقوم برسالتها وتؤدى مهمتها العظيمة فى الحياة .

ولقد أكمل الله لها الدين وأتم النعمة ، ورضى لها الإسلام دينا ، حقق العدل الإلهى على أكمل وجه . . قال الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** [1] ﴾ .

ويربط الله تعالى هذه الأمة برباط وثيق . هذا الرباط أو هذه القاعدة ، تجعل من الأمة خير الأمم ، وهذه الخيرية ، يترتب عليها أمر خطير هو أن يكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم . . والرباط الوثيق أو القاعدة العظمى من الأنبياء إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ولطالما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يكثر من الدعاء . مبتهلا لله وراجيا ربَّه سبحانه وتعالى أن يوجهه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم عليه السلام .

وقد أجاب الله تعالى دعاء رسول الله ﷺ وأمره بالتوجه إليها . قال الله تعالى : ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم * وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا وما جعلنا القبلةَ التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممَّنْ ينقلب على عقبيه** [2] ﴾ .

وإذا كانت قبلة هذه الأمة هى قبلة إبراهيم عليه السلام وإذا كانت رابطة هذه الأمة رابطة لها عراقتها ومكانتها الدينية فإليها يتجه المسلمون فى صلاتهم وإلى رحابها يأتون من كل فج عميق ؛ فهى ملتقى اتجاههم ، فى صلاتهم وعبادتهم التى يتجهون بها لله وحده لا شريك له ويدينون بدين قيم هو ملة إبراهيم .

---

(١) سورة المائدة (٣) . (٢) سورة البقرة (١٤٢ - ١٤٣) .

قال الله تعالى مخاطبا رسول الله ﷺ : ﴿ **قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم * دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** [1] ﴾ .

وهكذا ربط الله تعالى الأمة بقبلة إبراهيم عليه السلام واختارها لهم لتكون خير الأمم وجعلها خير الأمم لتكون شهيدة يوم القيامة على الأمم ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** . . ﴾ الوسط ـ الخيار ـ فهى خيار الأمم ، فماذا يتناسب مع كونها وسطا . لقد خصها رب العزة سبحانه وتعالى بأكمل الشرائع . وأوضح الهدايات وكلفها بالجهاد الحق فى سبيل الله . وذلك فى مقابل هذه المكانة .

قال سبحانه : ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج مِلّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكُم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** [2] ﴾

لقد اختار الله هذه الأمة واصطفاها على سائر الأمم وخصها بأشرف الرسل صلوات الله وسلامه عليه ، وأعظم الشرع ، ولم يكلفهم ما لا يطيقون بل خفف عليهم فى سائر العبادات من قصر للصلاة وجمع وأداء لها من جلوس للمريض الذى لا يستطيع القيام . ومن الافطار فى رمضان لمن كان مريضاً لا يستطيع الصوم . . وهكذا .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما إلى اليمن : « بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا » فليس فى الإسلام من حرج ولا ضيق ولا مشقة ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ ويأمرهم بأن يلزموا ملة إبراهيم ، إنها ملة التوحيد الخالص ، وعقيدة التوحيد الحق . التى تجمع الناس تحت كلمة : لا إله إلا الله .

الشكر فى مقابلة النعمة

وفى مقابلة هذه النعمة الجليلة فإن واجب الأمة أن تكون شاكرة لربها قائمة برسالتها مجاهدة فى الله حق جهاده قائمة بما أوجبه عليها من صلاة وزكاة وغير ذلك من حقوق الله وحقوق العباد ومن العبادات البدنية والعبادات المالية .

﴿ **فأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة** ﴾ وذلك فى مقابلة نِعَمِه التى لا تُحصى وأجلُّها نعمةُ الإسلام الذى ارتضاه لنا دينا قيما ، فيه الخير واليسر ، لا حرج فيه ولا مشقة .

(١) سورة الأنعام (١٦١ - ١٦٣) .   (٢) سورة الحج (٨٧) .

وواجب الأمة أن تعتصم بالله وأن تستعين به وحده لا شريك له فمنه التأييد وبه تكون القوة فهو وحده الحافظ والناصر ﴿ **واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ .

وإذا كانت مكـانـة الأمـة بهذه المثابة ، فإن المحافظة على هذه المكانة ، لا تتأتى إلا بالمحافظة على علاقتها مع الله سبحانه وتعالى ، وتأكيد الصلة به ، والسير على هدى العقيدة الخالصة والإيمان الصحيح ، والعمل الجاد والعبادة الصادقة واعتصامها ووحدتها بالله المخلصة وأن يكون ارتباطها به تعالى وحده ، فقد وجهها إلى القيام بطاعته وإلى الاعتصام به .

فأمـا القيام بطاعته فقال فيه : ﴿ **فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ والاعتصام به : ﴿ **واعتصموا بالله هو مولاكم** ﴾ والنتيجة المترتبة على ذلك هى أنه يتولاهم وينصرهـم .

فنعـــم المـــولى ونعـــم النصـــير

هذا هو الطريق الذى يرسمه القرآن الكريم لمكانة الأمة الإسلامية ، إنه فى غاية الوضوح ، وفى غاية اليسر عبادة وعملا وإيمانا وجهادا ووحدة قائمة بالله ـ وحدة أساسها الإسلام لا اعتصام بشرق أوغرب . لا اعتصام بحول أو طول وإنما : ﴿ **واعتصموا بالله هو مولاكم** ﴾ فكيف ندع الاعتصام بالله وهو مولانا وخالقنا ومدبر أمورنا وهو نعم المولى ونعم النصير؟ كيف ندع الاعتصام به إلى الاعتصام بغيره ؟

إن الاعتصام بالله يعنى أن نرتبط برابطة العقيدة التى تَسرى فى الروح والوجدان سريانَ الدم فى العروق . إن الاعتصام بالله تطبيق لشريعته وتنفيذ لأحكام الإسلام وتوحيد الاتجاه إليه ، فأصول هذا الدين تدعو إلى هذا الاعتصام فالصلاة نتجه فيها إلى قبلة واحدة وندعو إلهاً واحداً والصوم نُمسكُ فيه عن المفطرات فى وقت واحد ، ويحلُّ لنا الطعام فى وقت واحد ، والحج نظهر فيه بزى واحد ونلبى إلهاً واحداً . وهكذا . . كل العبادات تدعو إلى الاعتصام بالله ، إن أمةً اجتباها الله وجعلها أمةً وسطاً وبوَّأها منزلة تكون فيها شهيدة على الأمم لا يليق بها أن تدع تعاليم السماء وتتخلى عن الدستور السماوى الذى كفل لها العدل والأمن والحق والخير . . ولا يليق بها أن تتفرق أو تتناحر وتتطاحن ، وإنما يملى عليها دينها وتقتضيها عقيدتُها أن تعتصم بالله ، وأن تقف يدا واحدة فى وجه أعدائها الذين يمكرون بها ويتربصون بها الدوائر ويوم أن تعتصم بالله آخذة دورها فى الحياة ، ومؤدية رسالتها المنوطة بها . يوم أن سَيَمُن الله عليها بالنصر والفتح المبين ، وقد وعد سبحانه ووعده الحق بنصر المؤمنين فقال سبحانه : ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ . .

توافر الضمانات لسلامة التعاقد فى الشريعة الإسلامية

كثير من النظم الدولية الحديثة أقرّت الأحكام التى وصل إليها مفكروها واستحدثت القوانين التى وصل إليها فكرُها البشريُّ المحدود ومعظم تلك النظم والقوانين كانت تستهدف استتباب الأمن وتوفير الرخاء وطمأنينة الأفراد والجماعات على حقوقهم .

ولكن المجتمعات البشرية ما فتئت تعانى من الظلم وتعانى من شبح الخوف الرهيب الذى راح يطاردُها فى مجالات عديدة من حقوقها المشروعة .

وترنّحت تلك النظم والقوانين أمام عصابات متباينة : منهم من استطاع أن يُفلت من القوانين فلم يقع تحت طائلة العقاب . ومنهم من استطاع أن يتحايل عليها ببعض الدهاء والمراوغة ، ومنهم من أمن عاقبتها لماله من جاه ونفوذ فلم يُعِر هذه النظم ولا تلك القوانين بالا . وعاش الضعفاء كما هم مهضومى الحقوق ، وعاش المظلومون كما هم لا يملكون قليلا ولا كثيرا فلم تستطع القوانين البشرية الوضعية أن ترد لهم حقا مسلوبا ولا مالا منهوبا . .

والسبب من الوضوح بمكان بحيث لا يخفى على إنسان عاقل ، فلم تتوفر لهذه النظم أو تلك القوانين من الضمانات ما يكفل لها السلامة والاستمرار ولأنها ليس لها من القداسة والوازع الدينى مثل ما للأحكام الشرعية .

فقد توافرت فى الشريعة الإسلامية ضمانات عديدة لسلامة التعاقد وصيانة حقوق الإنسان والحفاظ على الديون والأعمال والتجارة المؤجلة والحاضرة والتعامل مع المقيمين أو المسافرين كل ذلك استوفاه الإسلام ، ونادى بتنظيم العلاقات التجارية والمعاملات المالية . فإن تلك المعاملات أو الديون أو التجارة إما أن تكون مؤجلة ، وإما أن تكون حاضرة . والمتعاملون إما أن يكونوا مقيمين أو مسافرين .

فأما الجانب الأول من المعاملات وهو ما كان إلى أجل مسمى فقد قرر الإسلام له « مبدأ الكتابة » وجعله مفروضا بالنص . كما اشترط فيمن يقوم بتحقيق هذا المبدأ وهو الكتابة أن يكون عادلا وألا يكون أحد المتعاقدين بل لابد أن يكون شخصا آخر ليكون منصفا ومحايدا وبعيدا عن الميول الشخصية أو الأهواء والأغراض .

وهذا التكليف والاشتراط إنما هو من الله سبحانه وتعالى قرّره حفاظا على الحقوق وصيانة لها من الضياع . وكما قرر الإسلام مبدأ الكتابة فإنه وضح كيفيتها فجعل على المَدين وهو الذى عليه الحق أن يُملى اعترافاً بالدين من جهة وبمقداره وشرطه من جهة أخرى وذلك حتى لا يقع ظلم عليه إذا ما أملى الدائن فمال إلى مصلحته فرضخ له المدين لحاجته آنئذ .

وفى الوقت نفسه يأمر الله تعالى بأن يتّقِى ربَّه وألا يبخسَ صاحبَ الحق حقه . ولكن قد يكون المدين ليس أهلاً لهذا فما الحل . هنا يقرر الإسلام بأن يقوم القيّمُ بهذه المهمة وعليه أن يَلْزَمَ العدلَ والحيطة والدقّة حتى لا يُفرط فى شىء من الحقوق لأنها لا تخصه .

ثم مع الكتابة كمبدأ من مبادىء الضمانات لسلامة التعاقد يقرر الإسلام الشهادة وأن الشاهدين لابد أن يكون كلٌّ منهما عدلا ولابد وأن يرضى الطرفان بالشاهدين . فإن لم يتيسر وجود رجلين للشهادة فليشهد رجل وامرأتان ، وإنما كانت امرأتان فى مقابل رجل لقلة خبرة النساء فى مجال التعاقد ولأن طبيعة المرأة الانفعالية قد تقلل من قوة شهادتها فتنسى وتضل ، فكانت امرأتان للشهادة حتى إذا نسيت إحداهما ذَكَّرتهَا الأخرى .

ويحَــذِّرُ الإســلامُ المسلمــين إذا ما طلب من أحـد منهم الشهـادة أن يأبى لأنَّ فى الإباء وعدم الإدلاء بالشهادة ضياعا للحقوق بين الناس .

كما يؤكد أمر الكتابة سواء كان الدين صغيرا أو كبيرا إحقاقا للحق ونشرا للعدل فى المجتمع الإسلامى .

هذا كله موجـود فى كتـاب الله تعـالى ونادى القرآن الكريم به وذلك فى قول الله سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتبٌ بالعـدل ولا يأب كاتبٌ أن يَكتب كما علمه الله فليكتبِ وليُملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليُّـه بالعـدل واستشهـدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامـرأتـان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دُعُوا ولا تَسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا** [1] ﴾ .

هذا ما يتعلق بالجانب الأول من المعاملات وهو ما كان إلى أجل مسمى .

وأما ما يتعلق بالجانب الثانى من المعاملات : وهو التجارة الحاضرة فقد استثنيت من شرط الكتابة فلا جناح إذا لم يكتبوا ولكن فيها الشهادة .

---

(١) سورة البقرة (٢٨٢) .

ومن أجـل ترسيخ دعائم الحق وحتى لا يُجار على الكتّاب الذين يكتبون الحقوق ولا الشهـداء الذين يشهدون فقد وصّى القرآن الكريم بهم إذ أنهم مُعرَّضون ـ من أحد الطرفين ـ من لم تَرُقْه الكتابة أو الشهادة . فقد يعتدى عليهم أحدُ الطرفين حين لا توافق الكتابة والشهادة هواه وعندئذ قد يقع ظلم أو اعتداء . . فيوصى الإسلام ويُرسى لهم حقوقا مشروعـة على المجتمـع الإسـلامى . كما قرر عليهم واجبـات من قبـلُ فى إحقاق الحق واستتبـاب العدل والأمن ، فقال تعالى : ﴿ **ولا يضَارَّ كاتبٌ ولا شهيد وإنْ تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم** ﴾ ، وهناك ناحية أخرى : قد يكون المتعاقدان فيها على سفر ولم يجدا كاتبا وحينئذ يكفُل الإسلام الحقوق ويضع الضمانات وذلـك بمشروعية الرهن فيأخذ الدائن الرهنَ ضماناً لحقه ، وكما أنَّ الدَّينَ أمانةٌ فى عنق المَدين فإنَّ الرهنَ ـ أيضًا ـ أمانةٌ فى عنق الدائن ، قال تعالى : ﴿ **وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبـا فرهـان مقبـوضة فإن أمِنَ بعضُكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمِن أمانته وليتق الله ربـه** ﴾ ، كما ينهى الإسـلام عن كتـمان الشهـادة حتى لا تضيع الحقوق ، قال تعالى : ﴿ **ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم** ﴾ وهكذا نرى عناية الإسلام بسلامة التعاقد .

* * *

الإنفـاق للدفـاع عن العقيدة والوطن واجب

الإسـلام دين الـرحمة والسلام ، فالرحمة جوهر رسالته . والسلام عنوان دعوته . والحق صراطه المستقيم . ولكن عندما يجور الباطل على الحق ويهدده . ويهدّدُ الشرُّ الخير ويوجه إليه العدوان والقسوة والحرب ، ويهدّد الرحمةَ والسلام والأمن والاستقرار . ويحاول الطغاة والمفسدون أن يقطعوا الطريق أمام الحق . . عندما يكون ذلك كيف تقومُ الرحمة وهى جوهرُ هذا الدين وكيف يشقُّ الحقُّ طريقَه فى الحياة .

إذاً لابد للحق من حماية له تَحميه من الباطل الذى يهدّده ، ولابد من تجاوز الرحمة ـ إلى حين حتى يُؤخـذ على أيدى المفسـدين والمعتـدين الذين يَعيثُون فى الأرض فسادا ، ويهُلكون الحرث والنسل ، وشرع الله تعالى الجهاد فى سبيله (بالنفس والمال) دِفَاعاً عن الحق وعن العقيدة وعن النفس والعـرض والأرض . وجعــل الله تعـالى الجهـاد بكـل ما يستطيعه الإنسان (بنفسه) إن استطاع القتال و (بماله) إن كان عنده مال (وبلسانه) حين يدعو الحال إلى ذلك . عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم [1] »

وقد وضح القرآن الكريم أن الجهاد بالنفس والمال تجارةٌ لن تبور . وأن الذين يبيعون أنفسهم وأمـوالهم لله تعالى لهم الجنة . وقد وعدهم الله تعالى بذلك وَوَعْدُه الحق . قال سبحانه : ﴿ **إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأَنَّ لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقًا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أَوْفَىَ بعهدِه من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بَايعتُم به وذلك هو الفوزُ العظيم** ﴾ وقد نزلت هذه الآية حين قال عبـد الله بن رواحـة وأصحـابه ـ ليلة العقبة ـ لرسولِ الله ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقـال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعـون منـه أنفسكم وأموالكم » . قالوا : « فمالنا ؟ قال : الجنة ، قال : « ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل » . ومعلوم أن الجهـاد بالنفس فى الدرجة الأولى لأنه تضحية وبذل لأغلى ما يملك الإنسان ، وهو نفسه التى بين جنبيه . ولكن لما كان (المال) عزيزاً على النفس وطبعت النفوسُ البشرية على حُبّه وجمعِه وبهِ قوامُ الحياة فقد جاء ذكره والحثُّ عليه فى كثير من آيات القرآن الكريم مَقدَّما على الجهاد بالنفس .

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

وأيضا لتأكيد الدعوة إلى إنفاقه وبذله حتى لا يكون هناك مجالٌ للاعتذار عنه أو محاولة التعلل بعدم إنفاقه . كذلك فإن الحاجة إلى المال عامَّةٌ ومستقرةٌ لا تقتصر على وقت دون وقت أو حال دون حال ، فالحياة البشرية محتاجة إليه فى حربها وسلمها ، والحاجة إليه فى منافعه أعم وأشمل ، ففى حال الحرب يُنفق منه على المجاهدين ويُصرف عليهم وعلى جميع ما يحتاجون إليه من سلاحٍ وكساءٍ وغذاء وغير ذلك .

وفى حال السلم : لإعداد العُدَّةِ وتقويةِ شَوْكَةِ المسلمين لإرهَاب أَعْدائِهم . كما قال الله سبحانه : ﴿ **وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ وتجهيز الجيوش للجهاد فى سبيل الله أمرٌ له أهميته إذ لَوْلا العدّةُ والتجهيزُ لما استطاعت الجيوش القيامَ بدورها وأداء مُهمّتها .

ولولا المال الذى به يُجَهَّزُ الجيشُ وتُعَدُّ العدة والأسلحةُ والذخائر وسائر الأشياء الأخرى لما استطاع المجاهدون القيام بدورهم ، إذ لولا الجهاد بالمال لما كان الجهاد بالنفس . لهذا كله كان للجهاد بالمال أثره البالغ وأهميته القصوى وكانت مثوبة الله تعالى لمن يُجَهّزُ غازيا بحيث يصبحُ المجهّزُ فى عداد الغازين ، وكذلك الحال بالنسبة لمن يقوم بأداء حوائج أهل المجاهدين ويخلفهم فى أهلهم بخير ، عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَن جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا [1] » . وكلُّ عملٍ يقدَّمُ للغزاة والمجاهدين يُضاعفُ الله تعالى المثوبة لأهله ، ويعتبر الإسلام أقلَّ شىءٍ يُقَدَّم للمجاهدين مِنْ أفضل الصَّدقاتِ ، فما بالُنَا بما يكثر لا شك أن لأهل البذل والإنفاق فى سبيل الله تعالى مكانة عالية ومنزلة رفيعة وأجرا وافيا ، قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقات ظل فسطاط فى سبيل الله ومنيحة خادم فى سبيل الله [2] » . ومعنى ظل فسطاط : وهو بيت من الشعر ، ومنيحة خادم : أى دفع الخادم للغازى ليخدمه ، وطروقة الفحل . أى ومنحة طروقة الفحل وهى الناقة التى بلغت أن يطرقها الفحل وإن لم يطرقها بالفعل .

وأما أولئك الذين لا تتحرك قلوبهم لإخوانهم المسلمين المجاهدين فى سبيل الله فلم يغزوا معهم ولم يجهزوا منهم غازيا ولم يخلفوا أحدا منهم فى أهله فهم بعيدون عن رحمة الله تعالى: قريبون من غضبه، ويوشك أن تنزل بهم قارعة تزعجهم وداهية تفزعهم فقد جاء فى الحديث عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من لم يغز أو يجهز غازيا أو يخلف غازيا فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة [3] » . ولقد هَدَّد الله تعالى

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الـذين يبخلون بأمـوالهم للإنفـاق فى سبيل الله وأنَّ بُخلَهُم إنـما هو على أنفسهم ، لأنه لِصَالحهم ، وليس ربهم سبحانه بحاجة إلى إنفاقهم فهو الغنى وهم الفقراء . وخسرانهم ببخلهم كبير وخطير بل إنَّه يُعرِّضهم إلى الدمار والبوار وإلى أن يستبدل الله قوماً غيرهم .

وكـما أن العقـوبـة السـابقـة للذين يبخلون عن الإنفاق فى سبيل الله فإن الذين لا يخلفون الغزاة بخير فى أهلهم ، أو يتعرضون بِشرّ لأهلهم لهم عذابٌ أليم ، لأن حرمةَ نساءِ المجاهدين كالأمهات « حرمةُ نساءِ المجاهدين على القاعدين كحُرْمَة أمهاتهم [1] » .

إن من تعرض لهُنَّ بِشرّ يُوقفُ الله المجاهدَ يوم القيامة فيأخذُ مِن عمله ما يشاء . .

ومما لا شكَّ فيه أنَّ الجهادَ فى أوقات العسر والحاجة ، وإن الإنفاق فى وقت قلة المال وفى حال الجهاد والمعركة أفضل من أى وقت آخر . وإن كان الإنفاق حسنا فى كل وقت ولكنه أحسنن وأكثر ثوابا وقت الضيق والحاجة وعند المعركة .٠وقبل النصر والفتح .

وإذا كان أهل الباطل والشر يتكاتفون على باطلهم وينفقون فى سبيله ، فأولى بأهل الحق والإيمان أن ينفقـوا ويبـذلوا لأن الله تعالى يضاعف للمؤمنين المنفقين ويجعل إنفاق الكافرين حسرةً وخسرانا ولهم عذاب أليم .

— ◆ —

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائى .

الفصل الرابع :

الدعوة إلى تزكية النفس

* تزكية النفس الإنسانية .
* حقيقة الحياة .
* مقاومة الإسلام للمخاوف والأوهام .
* من مسئوليات الإنسان المسلم .
* الإنسان المسلم فى بوتقة الاختبارات .
* تهذيب الإسلام للنفس الإنسانية .
* مشكلات أعجزت العلم وحلها الإيمان .

تزكيــة النفــــس الإنســـــانية

إن تكـوين الشخصية القويمة لا يستكمل ملامحه إلا بتزكية النفس وتنقية داخل الإنسان وأعماقه ، قبل مظهره الخارجى . والإنسان الذى يعجز عن إصلاح نفسه التى بين جنبيه هو أكثر عجزا عن إصلاح نفوس الآخرين والتأثير فيهم ، وللنفس البشرية دوافعها فى السلوك وتـأثيرها على الكيان الخارجى ، ولها وساوسها المتحركة وهواجسها الشائكة . التى تدفع إلى الانحراف والسوء والفحشاء والمنكر ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم** ﴾ .

وبـالقرآن الكريم تتزكى النفوس ، فلا تعوقها الفتن ، ولا تعكّر حياتها الضلالة فتنتهى بالهلاك ، وقد أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذكّر الناس بكتاب ربهم لئلا تُبْسَلَ نفس وتهلك فقال تعالى : ﴿ **وذكر به أن تُبْسل نفسٌ بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع** [1] ﴾ .

ولا يتأتى للنفوس تزكية فى غير البيئة الإسلامية الآمنة ، المطبقة لشريعة الله ، ففى رحابها تستقر النفس وتطمئن ، فلا ترتاع من أحدٍ يمكر بها ، ولا ترتابُ من نفوس من حولها ،وكم زعم البعض أن فى بعض البيئات التى توغلت فى المدنية المجردة عن الإسلام رقّةَ فى المعاملة وملاطفةً فى الأسلوب والمنظر فخَدعَ فى النفوس وظن فيها الحسنى وليس الأمر كما زعم لأن صفاء النفس لا يتأتى من السطح الخارجى لحياة الناس ومعاملاتهم ، وإنما مبعثه من داخل القلب وأعماق النفس الإنسانية ، وليس فى غير الكتاب والسنة والإيمان الصحيح طريق للتزكية ، وقد امتن الله تعالى على عباده إذ أرسل لهم رسوله بكتاب قويم يزكيهم ويعلمهم فقال تعالى : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل ضلال مبين** [2] ﴾ .

ويتتبع الإسلام تزكية النفس فى مسار الحياة فيدفعها إلى الخير ، ويعمل على ترقيتها من أمّـارة بالسوء إلى نفس لوامة ثم إلى نفس مطمئنة . لقد وضح القرآن حقيقة النفس البشرية فى ضعفها ، وكيف تستهويها الفتنة بمظهرها الخلاب ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾

---

(١) سورة الأنعام (٧٠) . (٢) سورة الجمعة (٢) .

لكن عندما يصحو الضمير الدينى ويتحرك وازع الدين يخاف الإنسان مقام ربه ، وعندئذ ينهى نفسه الأمّارة بالسوء فيحظى بالرحمة والجنة ، قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى** [1] ﴾ . وعندما ترتقى نفس الإنسان المسلم بالتزكية تلوم نفسها لا على ارتكاب الخطأ فحسب بل تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الإحسان .

وبتلك النفس اللوّامة ورَدَ القَسم فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة** [2] ﴾ .

وعندما ترتقى النفس بالتزكية وتطمئن بإيمانها وسلوكها تنتهى عما نهى الله وتأتمر بأمر الله ، وحين تنتهى بها رحلة الحياة الدنيا تقبل على الله محبورة مستبشرة ، ويقال لها : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** [3] ﴾ .

ومن رحمة الله بعباده أنه وضح لهم طريق الخير ليتبعوه وطريق الشر ليتركوه وألهم كل نفس هذا الإحساس والبيان : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها** [4] ﴾ .

وفى مسار تزكية النفس يحرص الإسلام على تسليح النفس بذكر الله والوضوء والصلاة لينتصر على وساوس الشيطان وينفض غطاء الكسل وعوامل التثبيط . ففيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة ، عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله انحلّت عقدة فإن توضأ انحلّت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

إن الكسل ظاهرة غير صحيحة فى حياة المسلم لكن خبث النفس تحطيم للشخصية بمنظاره القاتم يتطلع المرء إلى مَنْ حوله فيسىء بهم الظنون ، وحيث تقع نظراته على محامدهم إذا بها فى عينه مثالب . إنه لا يرى فى الورود إلا الشوك ، وانطباعاته عن دنْيا الناس تأتى انعكاسا لما يتردد صداه فى نفسه فهى عارية عن الخير والجمال فلا ترى فى الوجوه خيرا ولا جمالا هذه النفس التى عناها الشاعر بقوله :

---

(١) سورة النازعات (٤٠ ، ٤١) .
(٢) سورة القيامة (١ ، ٢) .
(٣) سورة الفجر (٢٧ ـ ٣٠) .
(٤) سورة الشمس (٧ ـ ١٠) .

وتـــرى الـشـــوك فى الـــورود وتعمى أن ترى فوقــه الـــندى إكـــليلا
والـــذى نفـــســـه بغـــير جمال لا يرى فى الـــوجـــود شيئـــا جميلا

وما أحوج المجتمع الإنسانى إلى تزكية النفس وإلى التضرع إلى الله أن يحفظها فى السر والعلانية فى اليقظة وفى النوم كما كان سلفنا يضرعون إلى الله ليحفظها .

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر أنه أمر رجلا إذا أخذ مضجعه قال : اللهم خلقت نفسى وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها ، إن أحييتها فاحفظها وأن أمتها فاغفر لها ، اللهم إنى أسألك العافية . وما أروع أن تدعو بدعاء رسول الله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكـاهـا أنت وليها ومولاها اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها » .

بيـن الخـــوف والرجـــاء

يتشكل الوجدان الإسلامى المعتدل بين الخوف والرجاء حيث يتوازن بناء الشخصية فلا يؤدى به الرجاء إلى الإهمال ولا يؤدى به الخوف إلى اليأس : ﴿ **إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون** [1] ﴾ .

وبين الخوف والرجاء يستيقظ الضمير الدينى محذرا لصاحبه من التردى فى مهاوى الفسـاد والتهلكـة مرغبا له فى طريق الطاعة والنجاة ، وبالرغبة والرهبة تنمو فى الأعماق عواطف جياشة وأحاسيس صادقة مبعثها صحة العقيدة وقوة الصلة بالله وهذه الصلة الوثيقة هى التى تضفى على حياته الرجاء فى رحمة الله وفى الوقت نفسه تحذره من عذابه : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** [2] ﴾ .

والاتجاه إلى الله بالرغبة والرهبة مع المسارعة فى الخيرات سبيل لفتح الأبواب وتحقيق الآمـال لأنـه لا يستقيم على ذلـك إلا من صدقت نيتـه وصفت سريرتـه وأشرقت حياته بالإيمان . ولقد أخبر الله تعالى : عن زكريا عليه السلام حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون نبيا من بعده فسارع هو وأهله فى الخيرات وفى الدعاء رغبا ورهبا ، فأجاب الله دعاءهم وحقق رجـاءهم ، قال تعـالى : ﴿ **وزكـريـا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** [3] ﴾ .

فهذا نموذج عال يقدمه القرآن فيه تجلية لأثر الخوف والرجاء وما ينبغى أن يكون عليه المسلم فى دعائه واتجاهه إلى الله ، وبين الخوف والرجاء دائرة إيمانية مشرقة تنطفىء فيها المخاوف النفسية وينبثق منها الأمنُ الروحىّ حيث يكفّ الإنسان نفسه عن كل ما يغضب الله خوفا منه ويسارع إلى مرضاته رجاء رحمته وعندئذ يظل مستثمرا ثواب الله وعقابه وغفرانه وعذابه .

---

(١) سورة يوسف (٨٧) .
(٢) سورة الأنبياء (٥٧) .
(٣) سورة الأنبياء (٨٩ ، ٩٠) .

﴿ نبىء عبـادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ وقال تعالى : ﴿ حـم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوبة شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير[1] ﴾ .

وكما دعا القرآن إلى الخوف والرجاء ففى السنة الشريفة فيض غامر يستهدى به المسلم فى حياته ويفتح أمامه باب الأمل والرجاء فى رحمة الله .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال الله عز وجل : « سبقت رحمتى غضبى » وفيما روى أيضا عن عمر بن الخطاب أنه قال : «قدم على رسول الله ﷺ بسبى فإذا امرأة من السبى ، تبكى إذ وجـدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله ﷺ أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا : لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه فقال رسول الله ﷺ « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » وحتى لا يتكل الناس على الرحمة وجـانب الرجاء نجد أن الرسول ﷺ يخبر عن وقوع العذاب من أمور قد يستهين البعض منهـا . روى الإمـام مسلم عن أبى هريرة عن رسـول الله ﷺ قال : « دخلت امـرأة النار فى هرة ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها تأكل من خشاش الأرض » ، وتؤكد السنة المشرفة حقيقة الخوف والرجاء ومدى ما عند الله من العقوبة والرحمة حتى لا يتسرب الغرور أو اليأس إلى داخل النفس الإنسانية . روى مسلم بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لو يعلم المؤمن ما عنـد الله من العقـوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد » .

وترسم السنة صورة كاملة الملامح لحياة الإنسان اليومية يكتنفها الخوف والرجاء فى حركته وسكونه فى يقظته ونومه ففيما رواه مسلم عن سعد بن عبيدة : حدثنى البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم إنى أسلمت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت » .

وليس فى عنصر الخـوف من الله ما يدّعى أعـداء الإسلام فإن الخوف صمام أمن وعاصم من الزلل . والتربية فى أمس الحاجة إليه . ثم إنه ليس خوفا من مخلوق وإنما خوف من الله .

يقول السلف : ينبغى تغليب الخـوف على الـرجاء ما دام الإنسان يغدو ويروح فى الدنيا ، فإذا خرج منها حسن به الرجاء على الخوف عند الله ، ويرى البعض ، إذا غلب الأمن

(١) سورة غافر (١ ، ٢) .

من عذاب الله فالخوف أفضل وإذا غلب اليأس فالرجاء أفضل . ما أروع ما قاله ابن القيم في هذا : القلب في يد الله عز وجل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتى قُطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل طائر وكاسر .

* * *

بيـن وازع الـدين ووازع الضمـــير

وللوازع الدينى طابعه الواضح فى حياة الأفراد والجماعات والأمم والشعوب ، فصوت الحق ينبعث منه مدويا فى الكيان الإنسانى له تأثيره القوى ، وله عمقه وفاعليته فى الواقع العملى للحياة والأحياء؛ ولقد تعددت الأشكال التطبيقية فى سائر المجتمعات البشرية واختلفت الأساليب ، وتنوعت المناهج وتضاربت الآراء لدى المجتمعات التى فقدت عنصر الوازع الدينى ولم تتخذ الإسلام منهجا للحياة ، حتى وإن كان أفراد المجتمع مسلمين فهناك فرق واسع بين جماعة إسلامية أخذت الإسلام عقيدة وسلوكا وتطبيقا وبين جماعة إسلامية أخرى أخذت من الدين اسمه ومن الإسلام رسمه ولم تعمل بأصوله ، ولم تطبق منهجه .

فالأولى : تمتعت بالأمن والاستقرار لأنها تقوم برسالتها فى وضوح من الأمر وأحكمت خطاها المطمئنة على درب النور وعلى الطريق المستقيم ، ووجدت فى شريعة الله كل ما تحتاج إليه من قوانين تضبط السلوك والمعاملات ، قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل إنها قوانين ربانية نتائجها مضمونة ، **وأما الثانية** : فهى فى متاهات الحياة تتقلب كل يوم مع أنظمة حديثة وقوانين مستوردة ، هى من صنع العقل البشرى ووليدة أمشاجٍ من تجارب عاشت على مسار الزمن بين مد وجزر وقبول ورفض ، وبينما تمسك بنظام إذا بها يتبينُ لها منه الخطأ والقصور فتعدل عنه وتذهب إلى غيره ثم تتركه وهكذا . لا استقرار ولا ثبات .
وطالما ارتفعت أصوات المصلحين وجلجلت نداءات الدعاة توجيها إلى الحق ومقاومة للمنكر والشر ولكن بلا صدى . ولقد حاولت المدنية الحديثة أن تضع الضمير دافعا ووازعا وتصوره كذلك زعما وتلبيسًا للأمور ، وراح البعض مردّدا : أنه يفعل كذا إرضاء لضميره . ومحاولة اتخاذ الضمير من ضوابط العمل الإنسانى ، ومحاولة جعله هدفا أو غاية أو الصدور عما يمليه على الناس، كل ذلك نزوعٌ إلى طريق الانحراف وإهدارٌ لقيم نبيلة وطمسٌ لمعالم لا يصل إليها صوت الضمير . وأحيانا كثيرة يتجاهلها ويجهلها ويتناساها وينساها ، ومن جانب اخر فإن ما يمليه الضمير الإنسانى ليس واحدا فى كل الأمور وليس متفقا مع جميع البيئات وليس متحدا لدى جميع الأفراد والجماعات فالذين يحاولون أن يتخذوا إرضاء الضمير غاية وهدفا هـم يفّـرّون من الحقيقة الواقعة ومن الحق الثابت ومن قوانين الشريعة المستقرة التى لا تتغير

إلى ما ليس ثابتا ولا مستقرا وهو الضمير ، لأنه يتغير من بيئة لأخرى ويختلف من جماعة إلى جماعة أخرى بل وأحيانا يختلف بين الجماعة الواحدة من فرد لآخر وتحت ستار إرضاء الضمير قد تحدث المخالفة أو التفريط فى الواجب ويحاول البعض إقناع الآخرين بأنه أرضى ضميره . . بل وقد يُقنع نفسه بأنه راضى الضمير . مبرراً الأمور على حسب ما يحب . ومفسرا ظواهر الأشياء على حسب هواه . وعندما يتخذ الإنسان الهوى طريقا للعقل ـ وحده ـ هاديا ، ويبتعد عن هدى ربه يضل ضلالا مبينا ، فلا هداية إلا هداية الله ولا حكم إلا لشريعة الله ولا وازع ولا رادع إلاَّ من الإسلام ، أمَّا الذين يتخذون الضمير . ويُسلمون حياتهم إلى هوى النفس أو حكم العقل ، فهم بعيدون عن روح الإسلام . وعن جوهر العقيدة الصحيحة ، يقول الله تعالى محددا الاتجاه الحق فى شريعته وهو الذى يجب اتباعه والبعد عن الهوى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يُغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين * هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون * أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون * أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون**[1] ﴾ .

وأما عن وازع الدين ، فإنه يصدر عن حكم الله ، وفى رحابه يقدم الإنسان على العمل إرضاءً لله وابتغاءَ مرضاته وطاعةً له . . ووازع الدين تُرَبِّيه العقيدة وتثمره وتصله الشريعة وتنميه وفى ظله يتم صلاح القلب الذى يترتب عليه صلاح كل عمل يقوم به الإنسان كما جاء الحديث . . « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »وقد نطلق عليه اسم (الدينى) ، ولذا فمن الواجب توضيح الفرق بينه وبين الضمير العام الذى سبق الكلام عنه وأنه يصدر عن الهوى ، فالوازع الدينى أو مايشار إليه بالضمير الدينى أحيانا هو الذى لا يصدر فى حسّه وفعله إلا عن العقيدة والشريعة نابعا من القلب الذى هو محل النية والتصديق وتبرهن عليه الأعمال الصالحة التى مبعثها شريعة الله . ومن هنا كان للقلب الصالح السليم إحساسه الصادق وحاسته المرهفة التى أشار إليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى قوله : (استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأَفْتَوْك) . وأشار أيضا فى قوله ﷺ : (البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت إن يطلع عليه الناس[2]) .

ونحن إذا انتقلنا الى واقع الحياة لنرى بعض الأمثلة والنماذج التطبيقية ندرك الفرق واضحا بين وازع الدين وبين ما يدّعيه البعض من إرضاء الضمير .

---

(١) سورة الجاثية (١٨ ـ ٢٣) .

(٢) رواه مسلم .

فى كثير من المجتمعات عند وقوع عقوبة من العقوبات أو تطبيق بعض القوانين يستطيع بعض الناس أن يُفلت من القانون أو يحاول التهربَ منه ، خشية الوقوع تحت طائلة العقاب ، وربما إذا نوقش إنسان أحدث مخالفة من المخالفات أو قصر فى واجب من الواجبات أجاب بأنه قد قام بما قام به عن اقتناع ، وأنه قد أرضى بذلك ضميره ، وقد لا يكون على حق ولكنه يحاول تبرير الموقف بما يتفق مع هواه وبما يتمشى مع ما يريد بغض النظر عن أى اعتبار آخر . فأين هذا الضمير من وازع الدين الذى كان يدفع البعض حين يرتكب ذنبا ليأخذ عقابه ويطلب إقامة الحد عليه . عن عبد الله ابن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وأنى أريد أن تطهرنى . فلما كان من الغد أتاه فقال : يارسول الله إنى قدزنيت فرده الثانية ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه ، فقال : أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا ؟ قالوا : ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه . فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أُمِرَ به فرجم . قال : فجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى ، وإنما ردّها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تَرُدنى لعلك أن تردَّنى كما رددت ماعزا فوالله إنى لحُبلى قال إمَّا لا فاذهبى حتى تلدى، فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت هذا قد ولدته قال اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أَمَر بها فحُفِر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فيقبل خالد بنُ الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضَّحَ الدمُ على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله ﷺ سبَّه إياها فقال : مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحبُ مكس لغُفِرَ له ثم أَمر بها فصُلى عليها ودفنت [1] .

وحياة المجتمعات البشرية مليئة بنماذج تطبيقية وأمثلة واقعية يتضح من خلالها الفرق الشاسع بين سلطة الدين ووازع الدين وبين السلطة القانونية .

ومن الأمثلة كذلك القوانين الضريبية التى تسنها بعض البلاد ، وبعض المجتمعات على كثير من الناس من أصحاب الأعمال والأموال ، وعلى بعض المؤسسات والشركات والمصانع وغير ذلك . . مما يلتزم به بعض الأفراد وبعض الجماعات ولكننا كثيرا ما نلاحظ أن الكثير من الناس ـ أفرادا وجماعات ـ يتهرّبون من تلك الضرائب ويحاولون أن يتحايلوا على تلك القوانين وليس هناك من ضمير يدفع ولا رقيب من داخل النفس يحاسب .

---

(١) رواه مسلم .

فأين هذا من وازع الدين ومن سلطان الشريعة وأثرها ودافعها ، هذا الوازع الدينى الذى يدفع الإنسان المسلم إلى أن يدفع زكاة ماله طيبة بها نفسه ، مسارعا باعطاء أصحاب الحقوق والمحتاجين ، بل ومؤديا أكثر مما وجب عليه من المال صدقةً زائدةً وعطاءً زائداً وإنفاقاً فى سبيل الله . ففى جو القوانين الوضعية وفى مسايرة الضمير الدنيوى المختلف يُفتقَدُ عنصرُ المراقبة فيستخفى الناس من بعضهم لئلا ينكر أحد عليهم لكنهم لا يستخفون من الله كما قال تعالى : ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً** [1] ﴾ .

وأما فى ظل الوازع الدينى فإن المؤمنين المخلصين يراقبون ربهم فى كل أعمالهم سرا وعلانية لا يعنيهم أن يراهم الناس لأنهم لا يراءون الناس وإنما يعنيهم رضا الله تعالى وحده ، فهم يزيدون فى أعمالهم وينفقون سرا ويبادرون إلى كل خير ، ويسارعون إلى كل مكرمة شعارهم قوله تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ .

* * *

---

(١) سورة النساء (١٠٨) .

حقيقــة الحيــاة

تختلف نظرة الناس إلى الحياة باختلاف مطامعهم فيها . وما يطمحون إليه من أموال أو أولاد ، ومن منصب أو جاه ، ومن قوة وعافية .

وتتوالى خطاهم فى دروب الحياة وتشرئب أعناقهم متطلعة وتشخص أبصارهم . . وهكذا كلٌ ينظر إلى الحياة من زاويته الخاصة وتتعلق آماله بما ليس فى يديه . ولا تتطلع إلى ما فى يديه فإذا رأى غيره مثلا أكثر منه فى جانب من جوانبها رغب أن يكون مثله وإذا صار مثله رغب فى أن يكون هو أعظم من ذلك ، وتظل تتوارد الآمال وتتضاعف دون انتهاء .

والطموح الأمين النزيه لا حرج فيه ما دامت طرقه مشروعة ووسائله كريمة . . أما حين يكون ضربا من الطمع الفاحش . . وتطلعا ممقوتا إلى ما فضل الله به بعض الناس على بعض ، وبما قسمه بينهم فى أمر معاشهم ، فليس ذلك من الإسلام فى شىء ولا أثر له فى حقيقة الحياة إلا الحقد الذى يتولد منه وإلا الحسرة التى يورثها . .

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام فى هذا الجانب حاسمة وواضحة ونظرة الإنسان إلى من هو أقل منه أجدى فى الاعتبار وفى باب الشكر من نظرته إلى من هو فوقه ، فنظرته إلى من هو فوقـه تُورثُـه النـدم والتحسُّر وربما يتولد عنها الحقد واستقلال النعمة وعدم شكر المنعم . . يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « لا تنظروا إلى من هو فوقكم وانظروا إلى من هو أسفل منكم فهو أجدر ألَّا تزدروا نعمة الله عليكم » .

والحديث الشريفُ بهذا التوجيه الحكيم يعالج جانبا نفسيا هاما له أثره على حقيقة الحياة فى كل بيئة وفى كل مجتمع وفى كل مجال من مجالات الحياة .

ولا يمكن لمن تعمق فى مغزاه أن يشم منه من قريب أو من بعيد أن فيه دعوة لقعود الهمـة أو الـرضا بأدنى الأمور وأقل الحياة . كلا . . بل إن فيه توجيهاً إلى ما يجب على الإنسان المسلم حيال ما أنعم الله تعالى به عليه من نعم سابغة . . وآلاء ظاهرة وباطنة : ﴿ وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تُحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ . إن واجب الإنسان المسلم أن يقدر النعم التى أنعم الله بها عليه وأن يشكر ربه عليها آناء الليل وأطراف النهار ، وأولها وأجلها نعمة الإسلام وكفى بها نعمة .

ولقد جاء الأمر الإلهى للجماعة المؤمنة واضحا وكاشفا لهم ما تكون به حقيقة الحياة وما يسعدهم وما يُحييهم . . .

قال الله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تُحشرون * واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديدُ العقاب * واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾** ، ففى هذه الآيات نادى الله تعالى المؤمنين موجها أمره إليهم بالاستجابة لله وللرسول ، وذلك بالطاعة فيجب على الذين آمنوا أن يطيعوا الله والرسول ، ونلاحظ فى التعبير القرآنى الحكيم أنه أفرد الضمير فى قوله إذا دعاكم ولم يأت بضمير التثنية الذى يفيد دعوة الله ودعوة الرسول ﷺ إشارة إلى أن طاعة الله فى طاعة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال الله تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله ، إنه أمر بالاستجابة والطاعة إن دعاهم لما يحييهم ، فإن فى الدين حياة النفوس . . وحياة القلوب فإن القلب يحيا بمعرفة أمور دينه ويموت بالجهل بها .

وقيل : المراد القرآن الكريم فإن فيه النجاة والبقاء والحياة ، ثم يقول سبحانه : **﴿ واعلموا أن الله يحولُ بين المرء وقلبه ﴾** . وقال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكفر . وبين الكافر وبين الإيمان فهو سبحانه يَطَّلع على ما تُكنه القلوب .

وفى هذه الآية الكريمة حضٌ وتوجيه من الله سبحانه إلى أن يُسارِعُوا إلى إخلاص القلوب وتصفيتها . . قبل أن يحول الله بين الإنسان وبين قلبه بالموت .

أو أنَّ الآية تصويرٌ لقدرة الله تعالى على العبد وعلى قلبه فيحول بين العبد وبين الكفر إن أراد له السعادة ويحول بينه وبين الإيمان إن أراد له الشقاء . .

وأنه إليه تحشرون . . فيجازى كل إنسان بما قَدَّمته يداه إنْ خيراً فخير وإنْ شرًّا فشر . وفيما رواه الإمام أحمد بسنده أن رسول الله ﷺ قال : « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصرفها كيف يشاء » ثم قال ﷺ : « اللهم مُصرّفَ القلوب صرّفْ قلوبنا إلى طاعتك » . .

ومن دعاء رسول الله ﷺ الذى كان يكثر منه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » ولطالما ذكَّر القرآن الكريم الأفراد والجماعات بنعم الله عليهم ، فهو يذكر بما كانوا

عليه ليكون فى هذا زيادة اليقين بخير ما يدعوهم إليه وبها فيه حياتهم وسعادتهم فبعد أن ناداهم وأمرهم أن يستجيبوا لله ولرسوله وبعد أن حذّرهم وأنذرهم من الوقوع فى الفتنة أخذ يذكرهم بما كانوا عليه من قلة فى العدد وضعف فى الأرض وخوف من العدو .

فقد كانوا فى بادىء الأمر قلة مستضعفة يخافون أن يتخطفهم الناس من كفار قريش ، أومن عداهم ، فتداركتهم عناية ربهم فآواهم إلى المدينة فتحصنوا عن أعدائهم وأيدهم بنصر من عنده وأمدهم بالملائكة ورزقهم من الطيبات عن طريق الغنائم رجاء أن يشكروا ربهم الذى وهبهم هذه النعم التى لا تحصى .

وهكذا تتساوق المبادىء الإسلامية الراشدة موجهةً أفراد الأمة وجماعاتها إلى حقيقة الحياة . .

إنها توجههم إلى حقيقتها بأساليب محكمة وأمثلة قوية واقعية راسمة لهم منهج الحياة التى يسعد فيها الفرد والمجتمع ، إنها حياة تقوم حقيقتها أولا وقبل كل شىء على الإيمان والعمل ، وعلى اليقين المطلق بواهب النعم وخالق الكون ، ومن منطلق هذا اليقين يتجه أبناء الحياة إلى كل دروبها وليس على عينهم عصابة . ولا فى قلبهم غشاوة بل يتجهون مخلصين آمنين . .

* * *

إنمـــا الدنيــا لأربعــة نفـــر

المسلم كيِّس فطن يدرك حقيقة الحياة ويعرف موقعه منها ثم يصرّف أموره وأحواله بما يتواءم مع شريعة الله ، ولا يختلف مع الدين . . ولا يتصادم مع نظم الحياة الجادة المستقيمة .

والإنسان المسلم في هذه الحياة لا يعيش لنفسه فقط ولكنه يعيش متعاونا مع الغير والغيرُ متعاونٌ معه فهو اجتماعيٌّ بطبعه .

والناسُ في هذه الحياة يحتاجُ بعضهم إلى بعض ، ومن قصور التفكير أن يظن البعض أن غيره هو المحتاج إليه وأنه غيرُ محتاج إلى أحد .

كيف ؟ وطبيعة الحياة أخذ وعطاء ، والتكوين الإلهي للجماعات البشرية على ظهر هذه الحياة أنهم درجات بعضهم فوق بعض ﴿ **ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** ﴾

وهذه الحكمة الإلهية بها تنهض الجماعات ، ويكدح الناس في الحياة وتعمر بهم الأرض .

وكما أن الإنسان محتاج إلى عمل يكسب من ورائه ومحتاج إلى مال ينفق منه ومحتاج إلى صاحب العمـل ، فإن صاحب المـال محتاج لهذا العامل ، ولولا هذا العاملُ ما كان لصاحب العمل ماله ولا تحصيل ربحه ، ولا إدارة عمله الذى يدر عليه هذا الربح .

بل إن الإنسان كثيرا ما تعترضه مواقف يحتاج فيها إلى أبسط الأعمال وأقل المهن التي لا ينظر الناس إليها بعين الإكبار والتقدير بل ربما ينظرون إلى بعض الأعمال البسيطة والمهن غير البراقة نظرة غير كريمة .

ولكنهم في الحقيقة إذا راجعوا أنفسهم وقت حاجاتهم الملحة إلى هذه المهن وتلك الأعمال عرفوا قيمتها وأدركوا أهميتها ، وعلى كل إنسان أن يدرك دوره في الحياة والطريقة المثلى لتسيير دنياه .

وضروب الناس متفاوتة في الدنيا وحظوظهم متنوعة فمنهم من أُوتى حظًّا من العلم والمال :

بالعلم والمـــال يبنى النـاس ملكهمـو لم يبـــن ملك على جهـــل وإقـــلال

ومن الناس من أُوتى علما ولم يؤت مالا . ومنهم من أُوتى مالا ولم يؤت علما . ومنهم من لم يؤت مالا ولا علما ، إنهم أربعة نفر . . وقد جاء تفصيلهم فى السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . ففيما أخرجه الترمذى : عن أبى كبشة الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة أقسم عليهن . وأحدثكم حديثا فاحفظوه : ما نقص مال من صدقة ولا ظُلم عبدٌ مظلمةً فصبرَ عليها إلا زاده الله بها عزًّا ولا فتحَ عبدٌ باب مسألةٍ إلا فتح الله عليه باب فقر » . . وزاد فى رواية . « وما تواضع عبد لله إلا ر فعه الله . وأحدثكم حديثا فاحفظوه ، إنما الدنيا لأربعة نفر : عبدٍ رزقه الله مالا وعلما فهوَ يتقى فى ماله ربَّه ويصلُ به رحمه ويعلم أن لله فيه حقا فهذا بأفضلِ المنازل . وعبدٍ رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول : لو أن لى مالاً لعمِلتُ عملَ فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبدٍ رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط فى ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما ، يقول : لو أن لى مالا لعَملْتُ فيه بعملِ فلان فهو بنيته ووزرهما سواء .

والناسُ فى حياتهم أحدُ فريقين :

فريق : هُمْ طلاب دنيا يجعلونها همَّهُم ومنتهى مقصدهم فهم يبحثون عنها فى كل الدروب ويجرون وراءها فى كل اتجاه ، وربما كانوا عنها بعيدين وكانت بعيدة ، وكلما جروا خلفها جرت هى أمامهم فلا يلحقونها ولا ينالون منها إلا ما قسمه الله لهم ، وفريقٌ آخر هم طلاب الآخرة جعلوها همهم وشغلهم الشاغل حتى وهم فى أعمالهم الدنيوية جعلوها خالصة نقية لم تشبها شائبة ما ، أولئك أغنى الله قلوبهم وأتتهُم الدنيا راغمة .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله ، وأتَته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه وفَرَّقَ عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلاَّ ما قُدّرَ له فلا يُمْسِى إلا فقيرا ، ولا يُصبح إلا فقيرا ، وما أقبلَ عبدٌ على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تَنقادُ إليه ، بالودّ والرحمة وكان الله بكل خَيرٍ إليه أسرَعَ [1] » .

وقال عمر رضى الله عنه : ما كانت الدنيا هَمَّ رجلٍ إلاَّ لزم قلبه أربعُ خصالٍ : فقرٌ لا يُدرك غناه ، وهمٌّ لا ينقضى مداه ، وشغلٌ لا ينفدُ أوله ، وأملٌ لا يبلغ منتهاه .

وتلك حقيقة لها من واقع الحياة أمثلة كثيرة ونماذج وافرة فنحن نشاهد من كانت الدنيا همه فى فقر دائم . . وربما تتساءل - قارئى العزيز - كيف يتأتى هذا وهو غنى ؟ وكيف يكون فى فقر وهو ذو مال ؟ ولكنك حين تلقى نظرة عابرة على صفحة المجتمعات الإنسانية ترى

(١) أخرجه الترمذى .

من الناس من يريد أن يضيف إلى ماله أموالا ويحرص على عدم نقصانها ويجتهد فى زيادتها . ومن أجل هذا فهو لا ينفق منها وإنما يكنزها ولا يتمتع بها وإنما يضن بها على نفسه وأهله ورَحِمه والفقراء والمحتاجين فهو فى فقرٍ بَيْدَ أَنَّ المَالَ بَينَ يديه .

وأما الهمُّ الذى لا ينقضى فهو فى شغل شاغل وراء جمع ثروته وما يخشى أن يضيع منها وما يجب أن يضاف إليها لتنمو ، وما تشابك به مصالحه مع مشاغله ومتاعبه وهكذا . . فهو فى شغل لا ينفد ووراء أمل لا يبلغ مداه لأن طالب الدنيا لا يشبع ، ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لتمنى أن يكون له الثانى ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب . تلك حقيقة لا يمارى فيها أولو الألباب . ولكن ليس معنى هذا أن الإسلام لا يدعو إلى السعى والعمل . لا . . بل إن الإسلام هو دين العمل والسعى والتمتع بطيبات الحياة الدنيا .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلنا يا رسول الله مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا فى الدنيا وكانت الآخرة كأنَّها رأى عين ، وإذا خرجنا من عندك فعافسنا أهلينا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا فقال عليه الصلاة والسلام : « لو تدومون على حالكم عندى لزارتكم الملائكة فى بيوتكم ، ولصافحتكم فى طرقكم ، ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بخلق يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم . ساعة وساعة » والحديث يدعو آخره إلى التوبة وليس إلى الاستهانة بالذنب ، فليس معنى ، لو لم تذنبوا . . فَتْحَ طريق الذنب لا ، وإنما المرادُ فتحُ باب التوبة ، وإعطاءُ الفُرصة والأمل لمن ضلُّوا أن يَثُوبوا إلى رُشدهم وأن يتُوبوا إلى الله ، وأن يكونوا على اتصال دائم به سبحانه وتعالى . هذا مع سعيهم فى الحياة وكدّهم وجدّهم وتَعبهم ونصبهم فهم يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا ويعملون لآخرتهم كأنهم يموتون غدا .

ومن كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل ويقول فى الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين . إن أعطى منها لم يشبع وإن مُنع لم يقنع ، يَعْجَزُ عن شكر ما أُوتى ويتمنى الزيادة فيما بقى . ينهى ولا ينتهى ويأمر بما لا يأتى يحب الصالحين ولا يعملُ أعمالهم ويبغض المسيئين وهو منهم ، يكره الموت لكثرة ذنوبه ، ويقيم على ما يكره الموت له ، إن سقم ظلّ نادما وإن صح أمن لاهيا ، يعجب نفسه إذا عوفى ويقنط إذا ابتلى ، تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن . ولا يثق من الرزق بما ضمن له ولا يعمل من العمل بما فرض عليه إن استغنى بطر وفتن ، وإن افتقر قنط وحزن ا هـ . تلك طبيعة الإنسان وهى فى حاجة دائمة إلى إصلاح وتقويم وتهذيب وصقل . وتسليم بالإيمان بالله واليوم الآخر . .

***

مقاومة الإسلام للمخاوف والأوهام

حرص الإسلام على تحرير الإنسان المسلم ؛ لئلا تستبدَّ به الأباطيل والترهات ، فليس لأحد أن يخضع إلا لله فهو صاحب الخَلْق والتدبير ، وهو رب السموات والأرض وبيده ملكوت كل شىء ، وهو سبحانه الذى يُجير ولا يُجار عليه . .

فكيف يذهب البعض إلى عبادة غيره ؟ قال تعالى : **﴿ قل لمن الأرضُ ومَنْ فيها إن كنتم تَعْلَمون * سيقولون لله قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرون * قل مَنْ ربُّ السموات السّبع وربُّ العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يُجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنّى تُسحَرون [1] ﴾** .

ولقد جاءت تعاليمُ الإسلام فى غاية اليُسر ، وفى منتهى الوضوح ، وخلّصت الإنسان من العادات السيئة التى تُشَوّه حياتَه الدينية ، كما خلّصَته من الأباطِيل والأوهام التى تراكمت على العقل البشرى ضاربةً بجُذورها فى النفس منذُ أيام الجاهلية المظلمة ، التى تخبط المجتمع الوثنى بين دُرُوبها الضيقة وأحوالها الخانقة .

وحمل الإسلامُ على الأوهام والضلالات وتتبَّعها فى كل منعطفاتها وزواياها ليُحرِّر الضمير الإنسانى من كل الأساطير .

ونقَّى الإسلام عقيدة الإنسان المسلم من الكهانة وغيرها من المعتقدات الباطلة والعادات السيئة التى تسرَّبت منها الخرافات بشكل فاضح ؛ جعل النفس الإنسانية ضعيفةً لا تقوى على شىء ، وتظل حائرة بين ضباب الوهم والخيال . تقدّمُ رجْلاً وتؤخّر أخرى . وكما دعا الإسلامُ إلى تحرير النفس الإنسانية من الخضوع لغير الله وتحريرها من العادات السيئة والتقاليد المرذولة والخرافات المتفشية ، فإنه دعا المسلم إلى تحرير نفسه من الخوف والقلق مُتتبّعاً أسباب الخوفِ ودَواعِيه ومجالاته ودوافعه ومبعثُ هذا الخوفِ قد يكونُ حرصاً على الحياة أو قلقا على طلب الرزق أو طلباً لجاه أو منصب فيظل شبحُ الخوف يطاردُ الإنسان فى خُطى حائرة على الإقدام والإحجام ، ويدفعه القلق على طلب الرزق إلى الغِشّ والرشوة والاختلاس ، فَتَستَعبده المادة ويدفعه التطلع إلى الجاه أو المنصب إلى المداهنة والزلفى إلى الناس .

---

(١) سورة المؤمنون (٨٤ ـ ٨٩) .

ونقى الإسلام حياة الناس من كل الأوهام والخرافات وأبان أن طلب الحياة أو الرزق أو المنصب ، لا يكون من مخلوق وإنما يكون من الخالق الذى بيده ملكوت كل شىء ، وهو على كل شىء قدير .

فأما بالنسبة للحياة ، فقد جعل الله لكل نفس ميقات أجل لا تستأخر عنه ساعة ، ولا تستقدم عنه أخرى ، ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا** [1] ﴾ . فإذا جاء ميعاد هذا الأجل فلا يدفعه حرص ، ولا يغنى عنه حذر ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** [2] ﴾

وأما بالنسبة للرزق ، فقد تكفل الله به ، وهو الرزاق ذو القوة المتين ، قال الله تعالى : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين** [3] ﴾ . والرزق محدد ، قدّره الله وحدده وقد أقسم الله تعالى على أنه حق واقع حيث قال سبحانه : ﴿**وفى السماء رزقكم وما توعدون* فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** [4] ﴾ . وناهض الإسلام المزاعم الباطلة كاعتقاد أن للمرض عدوى بطبعه من غير فعل الله ، وكالطير حيث كانوا ينفرون الطيور والظباء ، فإن اتجهت يميناً مضوا فى حوائجهم ، وإن اتجهت يساراً رجعوا وتشاءموا ، ومن ذلك تأخيرهم تحريم المحرم إلى صفر وهو النسىء ، ورفض الإسلام كل ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هامة [5] » . كما طهر الإسلام العقيدة من الكهانة ، وما يشبهها ـ حديثاً ـ كضرب الحصى والرمل وقراءة الفنجان وغير ذلك من الاعتقادات الباطلة .

وقد وضح الله تعالى أنه بيده وحده الأمر كله من خير أو شر ﴿ **إن يَمسَسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يُردك بخير فلا رادّ لفضله** [6] ﴾ . وإذا أراد الله نصرة إنسان فلا يمكن أن يغلب وإن أراد خذلانه فلا يتأتى لأحد أن ينصره ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده** [7] ﴾ . هذا وإن حب الدنيا ، والتعلق بأذيالها والخوف على الحياة أو الرزق ، هذه الأمور تؤدى بالإنسان إلى الضعف وضياع الشخصية ، وقد نبه رسول الله ﷺ على ذلك حين قال : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلّة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم

---

(١) سورة الأعراف (١٤٥) .
(٢) سورة النساء (٧٨) .
(٣) سورة هود (٦) .
(٤) سورة الذاريات (٢٢، ٢٣) .
(٥) رواه مسلم .
(٦) سورة يوسف (١٠٧) .
(٧) سورة آل عمران (١٦٠) .

يومئـذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن . فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت [1] » .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود

من مسئوليات الإنسان المسلم

قَدّر الإسلام قيمة الوقت ونبّه إلى أهميته ، والمتتبع للنظم الإسلامية يدرك إلى أى مدى كان حفاظ الإسلام على الوقت ، وكانت حيطته البالغة . بحيث لا يتعرض للتهديد أو الضياع ، فقد حدد الإسلام مواقيت زمنية لعباداته وكلها تدل على النظام المحكم الدقيق وعلى احترام الوقت وتنسيق فتراته ، فالفروض الخمسة أوقاتها من الفجر إلى الظهر إلى العصر إلى المغرب إلى العشاء . وكلها أوقات تحددت بالوحى الإلهى ولها بدايةٌ ونهاية بحيث إذا انتهى وقت من هذه الأوقات لا تقع العبادة فيها أداء . وإنما تكون قضاء لأن وقتها المحدّد لها شرعا قد فات .

وللصيام وقته الزمنى العام المحدد ووقته اليومى الخاص المحدد من الفجر إلى غروب الشمس . وللزكاة وقتها كذلك ﴿ **وآتوا حقه يومَ حصاده** ﴾ ولزكاة المال وقتها عندما يحول على المال الحول وهكذا . . ولفريضة الحج ميقاتها الزمنى المحدد بشوال وذى القعدة وذى الحجة . والإنسان المسلم مسئول عن الوقت مسئوليته عن كل شىء آخر ، ومحاسبٌ عليه ، كأى نعمة أخرى من النعم الإلهية التى منحها الله تعالى إياه ، ففيما رواه الترمذى : يقول رسول الله ﷺ : « لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يُسْأَلَ عن أربع : عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه » .

إن العمر الذى يعيشه الإنسان على ظهر هذه الحياة مسئول عنه ، إنه مسئول عن أيامه وأعوامه وعن سائر أوقاته فيم أفنى هذه الأوقات ، هل أفناها فى الطاعة أم فى المعصية ، هل أفناها فى العمل الجادّ ، والسعى على المعاش وما ينفعه وينفع الناس والمجتمع أم لا . إن كثيرا من الناس إذا ذهبوا إلى أعمالهم أو مصالحهم يؤدون بعض العمل ، ويَتوقّفون عن أعمال كثيرة مطلوب منهم أداؤها . وتَوقّفهم هذا وإهمالهم ، قد يكون بسبب ، وقد يكون بلا سبب . فمنهم من يتوقف عن العمل الواجب عليه فى مصلحته وموقع عمله بسبب أنه غير منسجم مع رئيسه فى العمل أو أنَّه على غير وفاق مع بعض رفاقه وزملائه . فإذا ما ذهب إليه بعضُ أصحاب الحاجات والمصالح الذين ينتظرون إنجازها لم يجِبُهم الإجابة الشافية وقد يُرْجئهم إلى الغد أو ما بعده . وقد يحيلُهم إلى غيره . . وهكذا من الأساليب والحِيلَ التى يُصرفُ بها صاحبُ المصلحة أو الحاجة دون جدوى ، وهذا الضرب من الناس يقتلُ وقتاً يتقاضى عليه أجرا فى الدنيا وهذا الأجر أو ذلك المال الذى

يتقاضاه غير حلال ، وليس مالا طيبا بل إنه كمن يأكل أموال الناس بالباطل وهو إن خفى أمره على العباد فلا يخفى على رب العباد الذى يعلم السر وأخفى . . . والذى يعلم ما تبدون وما تكتمون .

وليس عدمُ انسجامه أو وفاقه مع الآخرين مبررا له لأن يؤخر عمله ، ويهمل فى واجبه ، ويُضيعَ وقتا ثميناً من الحياة . وهناك نوع آخر من الناس يقتل الوقت وينصرف عن عمل الواجب . بسبب أنه يسعى لمصلحة خاصة . أو أنه كان فى مهمة خاصة به . ومثل هذا النوع وإن كان قد شغل الوقت بعمل إلا أنه عمل فى غير وقته المشروع له ، فلا يصح أن تطغى المصالح الشخصية على المصلحة العامة أو يشغل وقتَ المصلحةِ العامة لمصلحة شخصية . ففى هذا ضياعٌ لحقوق المجتمع وحقوق غيره من الناس ، وهذا الضربُ من الناس ، يمكن أن نسميه (سارق الوقت) أو نسميه : (المختلس المقنّع) نعم إنه سارق الوقت ، والسرقة ليست خاصة بالمال أو المتاع ولكنها تشمل الوقت كذلك ، لأنه اختلس من أوقات العمل ، ومن وقت المصلحة العامة ، واستغل ذلك لنفسه وشخصه ، ومثله كمثل السارق والمختلس تماما بتمام . وهناك نوع آخر من الناس يتوقف عن عمله ويهمله لا لسبب من الأسباب إلا الكسل والخمول ، والركون إلى الراحة والدعة ، ومحاولة قضاء وقت العمل فى احتساء ما تشتهيه نفسه من المشروبات أو مطالعة ما يستهويه من الصحف والمجلات ومحادثة رفاق العمل فى أحاديث شتى بغية التسلية ، وقضاء الوقت حتى يحين موعدُ الانصراف الرسمى من العمل .

وهذا الضرب من الناس ظالم لنفسه وإخوانه ومجتمعه ومعتد أثيم . إنه لا يراقب ربه فى عمله ولا يراقبهُ فى المال الذى يتقاضاه ، وكيف له أن يستحلَّ أخذ شىء لم يؤد له مقابلا من العمل .

إن الإسلام يرفض كل هذه الأنواع ويدعو إلى محاربة الكسل والإهمال والنفعية . . إن أصحاب الأنواع الثلاثة السابقة : استبدت بهم ثلاث آفات :

الآفة الأولى : هى الإهمال ، **والآفة الثانية** : هى المصلحة الشخصية وطغيانها على المصلحة العامة ، **والآفة الثالثة** الكسل والخمول . . ونحن إذا ألقينا النظر على تعاليم الإسلام نجد أنه قد حارب تلك الآفات ، وحذّر منها أشدَّ التحذير ، ففيها ضياع للوقت دون فائدة ، وقتل للزمان دون جدوى . فقد حارب الإسلام (الإهمال) وأمر باتقان العمل والإخلاص فيه ، وإحسانه وتجويده ، وفى الحديث : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » وحارب الإسلام طغيان المصلحة الشخصية على المصلحة العامة كما حارب الكسل والخمول ، ودعا إلى العمل الجاد ، وإلى النشاط وحسن العمل لأن الله مطلع ورقيب وهو سبحانه القائل : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ .

الإنسان المسلم فى بوتقة الاختبارات

من أهم الملامح لشخصية المسلم الثبات فى العسر وفى اليسر ، إن المسلم شاكر فى السراء صابر فى الضراء ، يبرهن على صدق عقيدته بالانفاق فى الحالين : يقول الله تعالى فى وصف المتقين : ﴿ **الذين ينفقون فى السراء والضراء** ﴾ إن شخصية المسلم لا تهتز بالعسر ولا تقنط بالضراء ، كما أنها لا تضل ولا تطغى باليسر أو السراء وإنما هى فى الموقفين سواء ، وهذا شأنُ المسلم الذى قويت عقيدته وآتت أكلها وثمارها ، إنه شاكر فى السراء صابر فى الضراء قال ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

إن للمسلم خطاه الثابتة التي يسير بها ومعه يقين يضىء له الطريق وثقةٌ لمشاهدها العديدة حازمةٌ حاسمة لا يشده بَريقها ولا يخدعه زخرفها .

إن حياة المسلم متصلة الحلقات من الابتلاءات والاختبارات ، فمنها ما يكون ابتلاءً بالنعمة ومنها ما يكون بالنقمة وتلك سنةُ الله فى خلقه ، والعزائمُ المخلصة ذات المعادن الأصيلة حين تنصهر فى بوتقة الابتلاء بالبأساء والضراء تخرج وهى أشد عزما وأقوى إرادة وأكثر بريقا ولمعانا وعندئذ يأتيها نصر الله : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصرُ الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ . . وموقف السلف من محن الحياة وابتلائها موقف الحريص على عقيدته المؤمن بقضاء ربه ، الواثق من الفرج والمثوبة : يقول أحدهم ، وما أصبت فى دنياى بمصيبة إلا رأيتُ لله فيها ثلاث نعم ، أنها لم تكن فى دينى وأنها لم تكن أكبر منها وأننى أرجو ثواب الله عليها .

أما شخصية الإنسان التى لم تتهذب بالإسلام ولم تصقل بمبادئه القويمة فهى فى تطلع إلى فضل الله ورجاء ملح لنعمته إذا نزل الضر ، فإذا رفعه الله ، وأحاطت النعمة جوانب الحياة فإنه ينسى ما كان فيه ولا يقيم حقَّ الله فى نعمته ، ولا يؤدى الشكر الواجب عليه حيالها . . إنه فى حال النعمة ينسى حق الله وحق العباد ، لقد خَيَّمَتْ على شخصيته الأنانيةُ ، وملأت الأثرةُ أقطار نفسه . فلا ينظر للحياة إلا بمنظار المنفعة الخاصة ، يدور معها حيثُ تدور ، ويبحث عنها فى كل مكان لا يعنيه شىءٌ سوى منفعته ، وفى إطارها الضيق يعيش فى جو خانق ومناخ لا يستقر .

إن الطبيعة البشرية فى صراعها الرهيب وفى رغبتها الجامحة لمتطلبات حياتها تظل خطاها تلح فوق الدروب المتشابكة بغية الوصول إلى أملها وهدفها وتضع على مفترق الطرق أمنيات رطبةً خضراءَ لو تحقَّق ما تصبو إليه النفسُ أو جاء ما يهفو إليه الإنسانُ لملأ ببره كل المسالك فكان وصولا للرحم بارا بالمحتاجين سباقا للبذل فى الملمات ساعياً لقضاء مصالح الناس محُباً ودُوداً لكل القلوب . لكنه عندما يتحقق رجاؤه ويستجاب دعاؤه وتسير حياته متدفقة بالنعمة والخير ينسى ما اعتزم عليه ولا يأبَهُ بمن مدَّ يده إليه ، ومن هنا تتعالى نداءاتُ الإسلامِ موجهةً إلى شكر الله الذى أنعم ودافعةً إلى النظر بعين الاعتبار إلى تلك النعم التى لا تُحصى . وتَتَوالى تعاليمُ الإسلام فى إرساء قيم الحق وصقل الشخصية الإسلامية وتهذيبها وعلاجها من ذلك الضعف الروحى والتمزق النفسى . وذلك بالصبر والعمل الصالح والانطلاق من قاعدة العقيدة الصحيحة التى تشرق الحياة منها رخاءً آمنة .

وإذا كان الصبرُ وعملُ الصالحات من وسائل صقْل النفس وتربيةِ الشخصية فإن هناك علاجاً آخر لروحه ولقاء طيباً يتمُّ فيه تخلص الإنسان من هلعه وجزعه ، ومن جحده ومنعه ذلك هو لقاء الله تعالى فى الصلاة التى تتكرر كل يوم مذكرة وموجهة فى كل ركن من أركانها بأن الله أكبر من كل شىء ، وكذلك فى البذل والانفاق ، وفى التصديق بيوم الدين والخوف من الله والعفة ومراعاة الأمانة والقيام بالشهادة . وكل هذه الأمور يلفت القرآن النظر والقلب إليها لتقويم الشخصية وتنقيتها من الهلع والجزع والجحود .

إن شخصية المسلم الحقيقية تملى عليه أن يتعرف على ربه فى وقت الرخاء كما يتعرف عليه فى وقت الشدة ، ومن كان كذلك فهو صادق الإيمان يستحق تيسير الله له وتفريجه لهمومه كما قال الرسول ﷺ ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة . . وفتح الله سبحانه أبواب رحمته ونادى عباده إليها وبين أنه قريب منهم يجيب دعاءهم ويحقق رجاءهم وعليهم أن يستجيبوا لما يحييهم ويقوموا بأصول الإيمان الحق .

***

تهذيب الإسلام للنفس الإنسانية

من أهم الملامح الواضحة فى حياة المجتمع المسلم . . أنه يعتنق الحق ويسير على ضوئه ويعمل فى دائرته . دون أن يكون هناك أى تأثير خارجى عليه ، لأنه يؤمن بأن جزاءه منوط بعمله فإحسانه لنفسه وإساءته لها .

وقد غرس الإسلام فى نفوس الأفراد والجماعات أصول الحق ليتبعوها ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها** [1] ﴾ .

وأنار القرآن الكريم الطريق أمام المسلم ، مبيناً له أنه وحده الذى ينال مثوبة هدايته ، وأنه وحده الذى ينال جزاء ضلالته فلا ينجى اهتداؤه غيره ، ولا يردى ضلاله سواه، وكل نفس وما حملت من وزرها، فلا تحمل وزر نفس أخرى فلكل استقلاله وجزاؤه على حدة . قال الله سبحانه : ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** [2] ﴾ .

وقد نعى القرآن على أولئك الذين وقعوا أسرى العادة والإلف تجافيهم عن الحق . وضرب مثلهم بمن ينادى على حيوان يسمع الصوت ولا يفهم له معنى فهم فى انهماكهم فى التقليد الأعمى ووقوعهم فريسة التبعية البلهاء كمثل الصم البكم . قال الله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون* ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون** [3] ﴾ .

وهذا الصنف من الناس لم يُعْطِ نفسَه استقلالها ولم يَمنحها حريتها فى البحث عن الحق ، وإنما حبسها بين أسوار التقاليد الموروثة ، توثقها العادات البالية وتمتهن كرامتها وإنسانيتها وقد تابع الإسلام نفسية المسلم فى سلوكها بالتقويم والتهذيب لئلا تتأرجح بين مدّ الحياة وجزرها فتتدهور قواها المعنوية تابعة كل ناعق ومنادية كل انسان ، أنا معك محسنا كان أو ظالما ، روى الإمام الترمذى بسنده عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ ، « لا تكونوا إمعة تقولون ، إن أحسن الناس أحسنَّا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا [4] » .

(١) سورة الإسراء (٧) . (٢) سورة الإسراء (١٥) .
(٣) سورة البقرة (١٧٠ ، ١٧١) . (٤) رواه الترمذى .

فإذا كان الله تعالى قد أعد المسلم إعدادا حقا ، وهيأه لأسباب الحق والفلاح ، بما ألهمه من رؤية واضحة للخير حتى يتبعه ، وللشر حتى ينأى عنه ، فليس للمسلم أن يكون إمعة ، ولم تعد له حجة فى تعطيل ما أودعه الله فى حسه ووجدانه .

فكيف به يقف على مفترق الطرق يميل مع رياح الحياة حيث تميل ، لقد سوى الحق النفس وألهمها فجورها وتقواها . قال تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾ وفى استقلال النفس الإنسانية حماية لمقومات الحق والخير التى أودعها الله فى الإنسان . فلا يتأثر بالعوامل الخارجية والمؤثرات المحيطة به ، فإذا كان قاضيا أو شاهدا أو مدرسا أو قائما بالإصلاح بين الناس أو مقوما لأعمال البعض أو نحو ذلك من مسالك الحياة التى يرتادها فإن عليه أن ينظر إلى الحق بغض النظر عن أى عامل آخر أو أى مؤثر خارجى . فإذا قام لحكم بين الناس أو القضاء فيهم أو طلب منه أداء شهادة بالحق أو فصل فى خصومة فعليه أن يتحرّى جانب الحق والصواب فلا تؤثر عليه صلة قرابة أو نسب أو غير ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** [1] ﴾ .

وكما دعا الإسلام إلى المحافظة على قول العدل دون تأثر بصلة القرابة أو ما يدعو إلى الانحياز فكذلك حذّر من أن تكون الكراهية والبغضاء من دواعى الانحراف عن الحق والعدل فقال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير ما تعملون** [2] ﴾ .

وإن السلوك الإسلامى يتنافى مع الظلم ، فيقيم المسلم العدل ولو على نفسه أو أقرب الناس إليه . ويتنافى مع الباطل فيقول الحقَّ ولو على نفسه ، ويعدلُ مع العدو كما يعدل مع القريب والحبيب فهو لا تحكمه تبعيةٌ تهدم شخصيته ، ولا يجور على عقيدته الهوى ولا تتسرب المحاباة إلى داخله إنه يحيا بين الناس قوّاما بالقسط شاهداً لله ولو على نفسه أو والديه أو أقربائه . قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** [3] ﴾ .

ويصون الإسلام الأمة الإسلامية من التأثر بخصائص الغير وأفعاله التى لا تتفق مع روح الإسلام والتى تتنافى مع فضائله ، وأما الاستبداد بالرأى أو التمادى فى الخطأ فليس فيه من قوة الشخصية واستقلالها أدنى علاقة ، بل إن ذلك يتنافى معها تنافيا تاما . فإن

---

(١) سورة الأنعام (١٥٢) . (٢) سورة المائدة (٨) .

(٣) سورة النساء (١٢٥) .

الرجوع إلى الحق فضيلة. ولا يُوصَفُ من يرجعُ للحق بأنه فاقدُ الشخصية بل إنه قوى الشخصية فى ضبط النفس ، وكبح جماحها والاتجاه بها صوب الحق فلا يتجمد عند الخطأ بل يفىء إلى الصواب أينما كان .

وكما أن استقلال الشخصية لا يتنافى مع الرجوع للحق فإنه كذلك لا يتنافى مع التعاون ومشاركة الأمة الإسلامية . فالمراد باستقلال الشخصية ألا يذوب سلوك الفرد فى سلوك آخر ولا تذوب الجماعة فى جماعة أخرى فلكل إنسان مقوماته وقدراته الخاصة ، وحين يسلب هذه المقومات فلا تكون له حريته ورغبته المستقيمة المخلصة . فإنه يقوم حين يقوم بالعمل وهو مسوق إليه ومكره عليه ، فلا يستشعر المتعة به ولا يتذوق الرغبة الدافعة إلى إتقانه . ومن ثم يفقد روح النشاط والحيوية ، ولا يقبل على العمل بجد وفاعلية ، بل يؤدى عمله وهو مكره ومتبرم .

ولو ترك الإنسان بلا توجيه سديد وأطلق لنفسه العنان دون رعاية وضبط ، ومن غير حدود فإن ذلك شر مستطير ، لما يترتب على سلوكه بلا مقاييس ما يترتب من الطلاق نوازعه النفسية . فتنمو الأنانية والأثرة . ويتجاوز الحدود بلا رادع أو ضابط . ومن أجل هذا كله أرسى القرآن للشخصية الإسلامية معالم محددة لا تتعداها ، بحيث يجد المسلم ثواب عمله الصالح ، ويتحمل تبعة إساءته فقال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾ . . هذا بالنسبة للفرد فشخصيته محوطة بدائرة الحق والعمل الصالح .

وأما بالنسبة لعلاقته مع الجماعة الإسلامية وعلاقة الناس مع بعضهم فإن تلك العلاقات مع ما وفره الإسلام لها من الاحتفاظ بالمقومات بحيث لا تذوب فى الآخرين . فإنه لم يمنع الإنسان أو الجماعة من التعاون والمشاركة ، بل أمر بذلك إذكاء لروح التعاون وإبقاء لوحدة الأمة واثراء لها بالعمل المشترك والتضافر المثمر ، وذلك كله يتم فى إطار البر والتقوى وبعيدا عن الاثم والعدوان كما قال تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ . .

* * *

مشكــلات أعجـزت العلم وحلهــا الإيمــان

كان للعلم الحديث أثر بالغ فيما قدمه إلى الحضارة الإنسانية من خدمات ، وفيما بذله من عناصر ومقومات ، كان له أثره كذلك فيما اكتشفه واخترعه من أشياء قربت البعيد ، واختصرت المسافات ، ووفرت الزمن وقدمت للإنسان المعاصر العديد من أسباب الراحة ومظاهر السعادة .

ولكن كل ما قدمه العلم الحديث إنما هو فى شكل الحياة وليس فى داخلها ، وفى مظهرها وليس فى مخبرها ، بمعنى : أنه قدم تلك الأسباب المادية التى تعين الإنسان فى حياته ، وفى مختلف شئونه وأموره ووظائفه بيد أنه لم يستطع أن يدخل إلى الأعماق الإنسانية أو أن يعـالـج النفس البشرية من تلك المخـاوف التى ازدادت أشباحها مع زيادة العلم الحديث ، وتعددت تعدد نظرياته واكتشافاته .

إننا فى هذا لا ننكر العلم الحديث جملة ، ولا نرفضه جملة ، ولا نعول عليه وحده أما أننا لا ننكره ، فلأنه قائم بيننا بنظرياته وأدواته وعياداته ومصانعه واكتشافاته واختراعاته التى قدمت خدماتها للإنسان ، والإنسان محتاج دوما إليها .

ثم لأن الإسلام هو دين العلم ، لا يتعارض معه بل يدعو إليه ولا يهون من شأنه بل يكبره .

ولهذا فنحن لا ننكره ولا نرفضه بالجملة ، وإنما نرفض أن يعول الناس عليه وحده وأن يكون هو الموجه وحده للحياة الإنسانية . .

ومما لا شك فيه أن التعويل عليه وحده ، ضرب من الاسراف فى القول والبعد عن الجادة وضياع وتغريب لأنه ما زال عاجزا أمام العديد من المشاكل التى لم يجد لها حلا ، والتى حاول أصحابها اقتحام لجة علم النفس فأغرقهم بدل أن يحل مشاكلهم . .

وإذا كان الطب الحديث استطاع تقديم العديد من العلاج للعديد من الأمراض فإن هناك أمراضا كثيرة ما زال الطب الحديث عاجزا عن تقديم العلاج لها .

وما زال سر الحياة والموت وكيفية الموت وأمور كثيرة ، لم يزل العلم واقفا أمامها دون جدوى . . معنى هذا أنه لا يعول عليه وحده ، ولكن هناك قوة أكبر منه ، وأعظم أثرا هى

قوة العقيدة ، والإيمان بالله . ومع هذه القوة الإيمانية تختفى بادىء ذى بدء كثير من المشاكل والمتاعب والألغاز فلا يكون لها وجود بالمرة .

لأن المؤمن لا يخاف ، ولا يجبن ، ولا يكذب ولا يغش ولا يحتال ، والمؤمن لا يؤذى جاره ، والمؤمن يقول الحق والخير ، والمؤمن صادق فى القول ، مخلص فى العمل ، وفىّ بوعده ، أمين على ما اؤتمن عليه .

والإيمان ، هو الذى يمكن صاحبه من مواجهة المشاكل العديدة والكوارث الفادحة التى لا يمكن للعلم أن يقدم فيها شيئا . . ان حوادث الحياة المتكررة من غرق وحرق وزلازل وبراكين وأمثال ذلك كثير ، ماذا يقدم العلم لأصحابها وللمحيطين بهم ؟ لا شىء . أما الإيمان ففى صيدليته جزاء للصابرين ، ودعوة صادقة للصبر وعلاج للنفس من الجزع والفزع والهلع وأخذ بيد الإنسان إلى شاطىء الأمان .

ومن أجل هذا نقول أن العلم الحديث والطب الحديث وعلم النفس فى أمس الحاجة إلى الإيمان وبدونه لا يستطيع العلم أن ينجح فى علاج النفس البشرية ولا أن يدفع عنها ما يساورها من شكوك ، ولا ما يحيط بها من أخطار .

يقول « ديل كارينجى » : إنى لأذكر الأيام التى لم يكن للناس فيها حديث سوى التنافر بين العلم والدين ، ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير رجعة ، فإن أحدث العلوم ـ وهو الطب النفسى ـ يبشر بمبادىء الدين ، ولماذا ؟

لأن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى ، والاستمساك بالدين والصلاة كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبى ، وأن تشفى أكثر من نصف الأمراض التى تشكوها . نعم إن أطباء النفس يدركون ذلك وقد قال قائلهم الدكتور « أ . ايريل » : إن المرء المتدين حقا لا يعانى مرضا نفسيا قط . . وإذا كان المؤمن يحيا فى أمن وطمأنينة ، فإن غير المؤمنين من الملاحدة والمنحرفين يحيون فى مخاوف دائمة ، وفى مشاكل لا تنتهى ولا حلول لها .

وفرق واسع بين المؤمن ونظرته إلى الآخرة وبين غيره ونظرته إليها . وفرق واسع كذلك بين النظرتين تجاه الموت . فغير المؤمن يخاف الموت ويخشى عواقبه ويرى فيه انتهاء لحياته وانحلالا لبدنه ، وبطلانا لتركيبه .

وأما المؤمن فيرى أنه ينتقل إلى ربه الذى خلق فسوى وقدر فهدى ، وخلق الموت والحياة والنشور . . ويشير ابن مسكويه إلى الأول فى قوله : « إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدرى الموت على الحقيقة ، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن

أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور وأن العالم سيبقى موجـودا ، وليس هو بمـوجـود فيه » . . وأما المؤمن فكما لم يخف فى دنياه ، فإنه لا يخاف من آخرته ولا من الموت . وقد قيل لأعرابى اشتد مرضه : إنك ستموت ، فقال : وإلى أين يذهب بى بعد الموت ؟ قالوا : إلى الله . . فقال : ويحكم ، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده ؟ . .

إذا ففى الإيمان حفاظ على الإنسان وعلى الحياة من الانقلاب النفسى ، والتدهور والضياع ، لأن الذى يؤمن به هو الله الذى أَحْسَنَ كل شىء خلقه ثم هدى . .

والإيمان فيه هداية للقلب وهداية للنفس وأمان لها من كل المخاوف **﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾** . .

والإيمان يحفظ لأصحـابه حياة طيبة فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فيقول الله تعالى : **﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾** .

والمتتبع لنماذج البشر من المؤمنين وغيرهم ، ومن مشاكل هؤلاء وأولئك يتضح له إلى أى مدى كان للإيمان أثـره البـالغ على حياة الناس ، وكيف حل مشاكلهم وأخذ بأيدى المجتمعات المؤمنة إلى شاطىء الأمان .

— ◆ —

الفصـــل الخـــامس :

من معـالم الدعـوة وتوجيهـاتها

* الدعوة الى بيان دلائل الإيمان فى خلق الإنسان وفى الكون .
* حديث القرآن عن نفسه
* من دلائل القدرة الإلهية .
* الفضائل بين الحدود والقيود .
* فى تطبيق الشريعة أمان ورخاء
* تحذير مؤكد من البعد عن الشريعة
* الاعتدال بين المادية والروحانية .
* من ركائز التمكين فى الأرض .
* إلى منهج الإصلاح من أقرب طريق .
* أصول الاخلاق فى الإسلام .
* الإسلام فى مواجهة التحديات .
* العمل فى ضوء القرآن الكريم .

الدعـوة إلى بيـان دلائـل الإيمـان
فى خـلق الإنسـان وفى الـكون

لم يكن لِلْإلحاد وتياراته من أَثَر ، على القلوب المؤمِنة الصادقِة التى عرفت رَبهًا الذى خلقهـا وخلق الكـون وأنه لا يدبر أمر الكون إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ومن استنَار قلبه لا يحتاج إلى دليل إلا أن هناك تيارات منحرفةً مضلّلَةً . أخذت أشكالا متعددةً وطفت على سطح الحياة الإنسانية متمثلةً فى ظواهر مختلفـة منهـا : الماديةُ الملحدة والحركات الهدامة ، والوجودية المتبجحة الضالة ، مما يبّثه أعداء الإسلام .

والإسلام بكتابه الخالد ودستوره المبين يرّد على المنكرين مسفّها أحلامهم رافعا رايَة الحق : ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون** ﴾ وقدروى عن جُبير بن مطعم قال : « سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب « الطور » فلما بلغ هذه الآية ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون** ﴾ . كاد قلبى أن يطير إلى الإسلام » .

وكتاب الله تعالى منذ القدم وعلى مَرّ أدوار الحياة يتحدَّى كل أفاك أثيم ، وكلَّ جاحد ومعاند ﴿ **هَذَا خَلْقُ الله فأَرونى ماذا خلق الذين من دونه** ﴾ . وفى آية أخرى يكشف عن جهلهم الفاضح وانحرافهم الذى بلغ درجة من السّفَهِ والتخـريف بحيث يدعون غير الله من أصنـامهم فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ .

أدلة الإيمـان فى النفس

ويوضح الله آياته فى أنفسهم فيقول : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ ، ويوضحها فى الكون : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد** ﴾ .

ويوضح الله تعالى أدلة الإيمان من أقرب طريق ، وذلك من خلق الإنسان وأطوار حياته التى مَرّ بها من أول مرحلة منذُ أَنْ خُلِقَ من نطفة إلى أنْ صار علقة ثم مضغة إلى آخر تلك الأطوار .

قال سبحانه : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** [1] ﴾ .

تلك هى الأطوار التى يتقلب فيها الانسان بقدرة الخالق الواحد الذى بيده ملكوت كل شىء وهو على كل شىء قدير .

الطور الأول : ذكره فى قوله : ﴿ **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين** ﴾ والسلالة هى الخلاصة التى تُسَلّ من بين الكدر . وقال ابن عباس وعكرمة المراد منه آدم عليه السلام فهو الذى سُلَّ من طين ، وأما ذريته فمن ماء مهين .

والطور الثانى ذكره فى قوله : ﴿ **ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين** ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى بعد أن خلق أولا جوهر الانسان من طين أو الجنس الانسانى وهو المتمثل فى آدم عليه السلام جعل تكرار أفراده عن طريق نطفة فى قرار مكين . إنها نطفة واحدة تخرج من صلب الـرجل تستقر فى رحم المرأة بل إنها خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الموجودة فى تلك النطفة فانظر الى مدى قدرة الله تعالى ومدى رحمته سبحانه . ان جعلها ثابتة فى الرحم بين عظام الحوض لتحفظ من التأثرات والتحركات فالمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر .

الطور الثالث : فى قوله تعالى : ﴿ **ثم خلقنا النطفة علقة** ﴾ وذلك عندما تمتزج خلية الذكر ببويضة الانثى وتعلق هذه بجوار الرحم نقطة صغيرة فى أول الأمر ويكون غذاؤها عن طريق دم الأم وإنهّا لَقُدْرَةٌ عظيمة تلك التى حَوَّلت النطفةَ البيضاء الى علقةٍ حمراء ومن صفاتها الأولى إلى صفات العلقة وهى الدمُ الجامد .

الطور الرابع : فى قوله تعالى : ﴿ **فخلقنا العلقة مضغة** ﴾ أى جعلها قطعةَ لحم بمقدار ما يُمضغ ، وسمى التحويل خَلْقًا . لأنهُ يفْنى أعراضًا ويخْلَق أعراضاً أخرى .

الطور الخامس : فى قوله : ﴿ **فخلقنا المضغة عظاما** ﴾ أى صيرناها عظاما ، وشكلها سبحانه فكانت ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصَبها وعروقها .

(١) سورة المؤمنون (١٢ ـ ١٦) .

الطور السادس : فى قوله : ﴿ فكسونا العظام لحما ﴾ فيكون اللحم كالكسوة للعظم ، وهنا يثبت القرآن الكريم حقيقة علمية رائعة سبق بها العلم الحديث الذى لم يعرفها إلا بعد تقدم علم الأجنة وهى ان خلايا العظام غير خلايا اللحم وانها تتكون أولا فاذا تمت كانت خلايا اللحم التى تكسوها بعد ذلك .

الطور السابع : فى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ أى خلقا مختلفا عن الأولى حيث انتقل من الجمادية الى الحيوانية وكان أَبْكَمَ فصار نَاطِقَاومنحه السمْعَ والبصرَ وَغير ذلك من الخلقة الإلهية العظيمة التى تتمثل فى صورة البدن والروح والقُوَى بنفْخة فيه ، فتبارك الله أى تعالى شأنه فى قدرته وحكمته أحسن الخالقين المقدرين تقديرا .

الطور الثامن : فى قوله : ﴿ ثم انكم بعد ذلك لميتون ﴾ أى صائرون الى الفناء والموت وليس هذا نهايةَ الأطوار كما يظنُّ البعض وإنما هو نهاية الحياة الدنيا وطورٌ من أطوار النشأة الأخيرة .

الطور التاسع : فى قوله ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ ، وهنا نلاحظ أن الله تعالى جعل الموت الذى هو نهايةُ الحياة الدنيا ، وجعل البعثَ الذى هو إعادةُ ما أنهاه وأفْناه جعل هذين دليلين أيضا على عظيم قدرته وهُوَ سبحانه وتعالى بهذه الأدلّة التى ساقها قد أعطى الانسانَ دليلاً قويّا ومحسوساً يجبُ أن يُؤمن به عن اقتناع كامل ويقين راسخ وان تلك الأدلَة انما جاءت من أقرب طريق من أطوار خلق الإنسان وَتقلّبه بين الحياتين الدنيا والآخرة ، وعن خلق آدم من الطين روى الامام أحمد بسنده عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : إن الله خلق آدَم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض فجاء بنوآدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمرُ والأبيض والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك [1] .

وعن معنى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ . . يقول ابن كثير : يعنى نفخنا فيه الروح . وقال العوفى عن ابن عباس « ثم أنشأناه خلقا آخر » يعنى ننقله من حال الى حال الى ان خرج طفلا ثم نشأ صغيرا ثم احتلم ثم صار شابا ثم كهلا ثم شيخا ثم هرما ، وقد روى أحمد فى مسنده حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله ـ هو ابن مسعود رضى الله عنه قال حدثنا رسولُ الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إنَّ أحدكم ليجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُرْسَلُ اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات رزقه وأجله وعمله وهل هو شقىٌّ أو سعيد . فوالذى لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعَمل أهل الجنة

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح .

حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها وإن احدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها .

عن عبد الله قال : مرَّ يهودى برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه . فقالت قريش : يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبى فقال : لأسْأَلَنَّهُ عن شىء لا يعلمه إلَّا نبىٌّ قال فجاء حتى جلس فقال : يا محمد مم يخلق الانسان ؟ فقال : يا يهودى من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقةٌ منها اللحمُ والدمُ فقال : هكذا كان يقول مَنْ قبلك . .

أدلة الايمان فى الكون

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أدلة الإيمان فى النفس عن طريق خلق الانسان والأطوار التى مر بها ذكر أدلة الإيمان فى الكون فقال : ﴿ **ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسْكَنّاه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرةً تخرجُ من طُور سَينَاءَ تَنْبُتُ بالدّهن وصبغٍ للآكلين * وإنَّ لكم فى الأنعام لعبرةً نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون** [1] ﴾ .

لقد خلق الله سبع سموات وسميت طرائق لتطارقها فبعضها فوق بعض أو لأنها طرائق للملائكة فى العروج والهبوط والطيران أوْ لأنها طرائق الكواكب . فيها مسيرها ، ولكن ما وجه الإنعام فى خلق السموات السبع ، نقول أن وجه الانعام يتلخص فيما يأتى :

أولا : أن الله تعالى جعل السماوات من مواضع الرزق وأسبابه فمنها تنزل الأمطار .

ثانيا : أنه سبحانه جعلها مقرا للملائكة .

ثالثا : لأنها موضع الثواب ولأنها مكان ارسال الانبياء ونزول الوحى .

وفى هذه الاية : ﴿ **ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وماكنا عن الخلق غافلين** ﴾ دليل كونى ، إنها تدل على أن خالق السماوات وجميع المخلوقات لا يهملها وإنما يحفظها من الزوال ومن الاختلال ، ويدبر أمرها حتى تصل الى ما قدره الله تعالى لها وأنه سبحانه وتعالى يعلم

---

(١) سورة المؤمنون (١٧-٢٢) .

أعمال العباد واقوالهم ، وما تكنه صدورهم ، وهذا يفيد الزجر عن مخالفته ، وفى الآية الكريمة دلالة واضحة على كمال قدرة الله وعلمه وأن فيها دليلا على وجود الله تعالى لأن خلق السماوات على هذه الصورة البديعة وما يعتريها من أحوال يدل كل ذلك على وجود الخالق المدبر لها ، والصانع القادر العظيم وهو الله سبحانه وتعالى .

واذا كان الدليل الكونى الأول على الايمان هو خلق السماوات فان الدليل الثانى هو : خلق الماء وانزاله من السماء والنعم التى نحصل عليها عن طريقه ، قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر** ﴾ . . فقد أنزل سبحانه من السماء ماء بتقدير يتناسب مع حاجة الحياة والاحياء . وبحيث يكون نفعه كثيرا وجعله سبحانه ثابتا مستقرا فى الأرض وهو القادر أن يُذْهِبَه ان شاء بازالته أو تصعيده أو تعميقه بحيث يتعذر استخراجه فيمكن ان يجعل الماء يغور فى الأرض عن طريق شقوق فى طبقات الصخور أو غير ذلك من الوجوه . فان القادر على امساكه قادر على ازالته وتبديده .

ومن هنا يتضح فضل الله على العباد ، كما أن فى انزال الماء بقدر وبحسب الحاجة حكما عالية دقيقة فلم يسقه كثيرا غَامِرا يُفْسد العمران ، ولا قليلا لا يكفى الحاجة بل على حسب الحاجة إليه ، بل إنَّ الأرض التى تحتاج الى ماء كثير للزرع ولا تحتمل بلادها انزال المطر الكثير عليها مخافة ان يفسد ما عليها من الديار والزروع . فمن لطف الله تعالى وحكمته ورحمته انه يسوق اليها الماء عن طريق بلاد أخرى . كما فى أرض مصر ، فانه يسوق اليها ماء النيل ومعه الطين الأحمر من بلاد الحبشة فى أوقات المطر بها ، فيسقى الأرض وُيقِر الطين على الأرض ليزرع أهْل مصر لأن الأرض هناك سباخ يغلب عليها الرمال .

ثم ذكر سبحانه بعد نعمة الماء ما يترتب عليه من النعم الأخرى التى تحصل عن طريقه فقال : ﴿ **فأنشأنا لكم به جنات مِّن نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين** ﴾ . وإنما ذكر النخيل والأعناب لكثرة منافعهما فإنهما يقومان بمصاحبة الطعام ومقام الادام ومقام الفواكه كما أشار الى غيرهما من الفواكه الكثيرة فعن طريق الماء أنبت سبحانه البساتين والحدائق منها النخيل والاعناب وغير ذلك من الفواكه فى كل اقليم ومن الثمار ما يعجز الناس عن القيام بشكر الله تعالى . كما انشأ أيضا شجرة هى شجرة الزيتون . تخرج من طور سيناء . والطور الجبل وهو الذى كلم الله عليه موسى وهو بين مصر وإيلة وقيل بفلسطين . وفى قوله : ﴿ **تنبت بالدهن** ﴾ ، إنها متلبسة به ومصاحبة له ، وصبغ للآكلين أى أدْم ، ففيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ .

وأما الدليل الثالث من الادلة الكونية على الايمان فهو ما ذكره فى قوله تعالى : ﴿ **وإن لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾ ، وهنا نشاهد أنه بعد ان أبرز دليل التوحيد عن طريق الانسان وأطوار خلقته انتقل من جانب النفس الانسانية الى جانب الأدلة الكونية ، فأوضح خلق السماوات وانزال الماء واحياء النبات فى الأرض ، ثم انتقل من ذلك الى عالم الحيوان فذكر على طريق الاجمال ما فى الأنعام من عبرة يمكن للعاقل أن يعتبر بها ويستدل عن طريقها على وجود الله تعالى وقدرته ووحدانيته . ثم أخذ فى تفسير تلك العبرة فبينها فى الوجوه التالية :

أولا : ﴿ **نسقيكم مما فى بطونها** ﴾ من الألبان . وإذا تمعّن الانسانُ فى كيفية خلق اللّبَن شاهد أدلة القدرة الإلهية عن كثب ، فهذا اللبن يجتمع فى الضرع ويتخلص من بين فرث ودم ويستحيل الى طهارة ولون وطعم ويصبح غذاء نافعا مفيدا ، ومن عظيم قدرة الله وحكمته ان الانعام اذا ذبحت لا تجد لها أثرا .

ثانيا : ﴿ **ولكم فيها منافع كثيرة** ﴾ فى ظهورها وأصوافها وأشعارها وأوبارها أو فى بيعها ـ للانتفاع بأثمانها وما شكل كل ذلك .

ثالثا : ﴿ **ومنها تأكلون** ﴾ وفى هذا الوجه انتفاع بأعيانها فكما ينتفع بها وهى حية بما سبق ينتفع أيضا بها بعد ذبحها بالأكل . .

رابعا : ﴿ **وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾ ، وذلك لأن الانتفاع بالإبل فى الحمل والركوب على البر كالانتفاع بالفلك فى البحر أو ما هو منزلته قال سبحانه : ﴿ **وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الابشق الانفس إن ربكم لرؤوف رحيم** ﴾ .

تلك هى دلائل القدرة الالهية فى النفس وفى الكون ، فى الانسان وفى الحيوان وفى الماء والنبات وغير ذلك من المخلوقات ، أفبعد كل هذا يستسيغ منكر أو جاحد أن يقف فى وجه الحق ؟ أو يثير شبها حول هذا الدين القيم ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

* * *

حـديث القـرآن عن نفســه

إن أعـظم ما يقف عليه المسلم فى القرآن : حديث القرآن عن نفسه ، وما أروع حديث القرآن عن نفسه ، إنه حديث الصدق فى أسمى درجاته ، وحديث الطهر فى أنقى صوره ، لأنه مصون من كل المؤثرات محفوظ من التبديل والتغيير .

قال الله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ ولقد أقسم الله تعالى على ذلك فقال : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * انه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين** [1] ﴾ .

وقد ضرب الله الأمثلة على عظمة القرآن ، وأنه لو أنزل على جبل لخشع وتصدع من خشية الله قال سبحانه : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** [2] ﴾ .

هذا وإن القرآن الكريم لهو أجل النعم الإلهّية وأولها . ولذا صّدّر الرحمن حديثه عن القرآن فى صدد تعداد النعم الوافرة فذكره قبل نعمة النطق وغيرها من النعم والآلاء فقال : ﴿ **الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان** [3] ﴾ . وحين سمع الإمام على كرم الله وجهه رسول الله ﷺ يقول : « ستكون فتن » . . سأله عن المخرج من الفتن ؟ فأجابه الـرسول ﷺ قائلا : « كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا : ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا** ﴾ من علم به سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ، ومن اعتصم به هُدى إلى صراط مستقيم » ، إذًا تبين لنا مما سبق عظمة القرآن ومنزلته التى تمثلت :

---

(١) سورة الواقعة (٧٥ ـ ٨٠) .
(٢) سورة الحشر (٢١) .
(٣) سورة الرحمن (١ ـ ٧) .

أولا : فى الهداية ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب . قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ وقال : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه** ﴾ ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ .

كما بين القرآن نتيجة من أعرض عن القرآن فى قوله : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** [1] ﴾ .

ثانيا : فى الاعجاز وما تمثل فى القرآن من كونه معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ جاء به فى وقت اكتملت فيه كل ملامح القوى البلاغية ووسط قوم ملكوا زمام الفصاحة والبيان فجاءهم بمعجزة من نوع ما برعوا فيه فعجزوا عن الاتيان بمثله ، قال تعالى : ﴿**وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** [2]﴾بل إن التحدى كان للإنس والجن من الإتيان بمثله واضحا . قال تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ .

وفيما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

وقد حفظ الله كتابه فى القديم وفى الحديث ومن بين يديه ومن خلفه ﴿**وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** [3] ﴾ .

وقد حاول بعض المعاندين أن يثيروا حول القرآن الكريم بعض الشبه وأن يقولوا تنزلت به الشياطين ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ **وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون** [4] ﴾ ، أما تنزيل الشياطين فلا يكون إلا على أهل الكفر والكذب والزور . ﴿ **هل أنبئكم على من تَنَزّلُ الشياطين * تَنَزَّل على كل آفاك أثيم** [5] ﴾ .

ولما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يجلس عند المروة إلى بيعة غلام نصرانى يقال له جبر ، فزعم أعداء الدين أن جبرا هذا هو الذى يعلم الرسول أغلب ما يأتى به

---

(١) سورة طه (١٢٤ - ١٢٦) .
(٢) سورة البقرة (٢٣) .
(٣) سورة فصلت (٤١ ، ٤٢) .
(٤) سورة الشعراء (٢١٠-٢١٢) .
(٥) سورة الشعراء (٢٢١ ، ٢٢٢)

وحاولوا تَرويجَ تلك الفرية فنزل قوله تعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين**[1] ﴾، بل إنهم تخبطوا فى ضلالات كثيرة وأثاروا حول القرآن شُبَها عديدة ، لا يثبتون على حال ولا يهدأ لهم بال شأن كل ملحد ، فمرة يقولون عنه أنه خلط من أخلاط الأحلام وأخرى يقولون عنه أنه افتراء ، وأخرى بل هو شاعر : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون**[2] ﴾ .

وعندما فكر الرسول ﷺ فى الالتقاء بوفود العرب والقبائل فى موسم الحج يدعوهم إلى الله . اجتمع بعض المعاندين من قريش إلى الوليد بن المغيرة يتشاورون وقالوا : ماذا عسى أن يقال فى شأن محمد للعرب القادمين إلى موسم الحج حتى لا يختلف بعضهم عن بعض ويكذب بعضهم بعضا واقترح بعضهم أن يقولوا أن محمدا كاهن ، فرد الوليد هذا الرأى أن ليس فيما يقول محمد بزمزمة الكاهن ، واقترح آخرون أن يزعموا أن محمدا مجنون فرد الوليد هذا الرأى بأنه لا يبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة ، واقترح غيرهم أن يتهموا محمدا بالسحر ، فرد الوليد بأن محمدا لا ينفث فى العقد ، ولا يأتى من عمل السَّحَرة شيئا ، وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحجاج من العرب : هذا الرجل ساحر البيان وأن قَوله سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته . ا هـ .

وفى صدد بيان تلك الفرى التى افتراها أعداء الإسلام يتحدث القرآن الكريم عنها ، ويفندها ويبددها فى قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين * أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم ما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم**[3] ﴾ . إلخ .

جاءت هذه الآيات الكريمة لتقرر قضية الوحى الإلهى فى أجل صورها وأسماها وهى آيات الله البينات التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، وقد عالجت هذه الآيات ذلك الموضوع الهام المتعلق بأمر الوحى ، بعد أن تصدت الآيات السابقة لها من صدر سورة الأحقاف التى تقرر عقيدة التوحيد ، عن طريق بيان ما أنزل الله من كتاب ، وما خلق من السموات والأرض وما بينهما ، وكتاب الكون المفتوح بما فيه من شواهد العظمة الإلهية والقدرة القوية شاهدا على صدق الكتاب المنزل الذى يهدى للتى هى أقوم وكلاهما يتضافران فى بيان أوضح الأدلة على وحدانية الله تعالى ، ومن عجب بعد كل هذا الوضوح

---

(١) سورة النحل (١٠٣) .　　(٢) سورة الأنبياء (٥) .

(٣) سورة الأحقاف (٧ ، ٨) .

أن يُعرض الذين كفروا عن تلك الحقيقة الواضحة التى لا لبس فيها ولا غموض ﴿ **حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى** [1] ﴾ ، بعد ذلك تطرح تساؤلاتها القوية والحجج الملحة وتتحدى من يعبدون أحدا غير الله وتبين عجز الجميع أن يخلقوا شيئاً ﴿ **أرونى ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ إن نهايتهم ونهاية ما عبدوا فى الدنيا عجز ومهانة .

وأما نهايتهم فى الآخرة فهى وقوع العداوة بينهم وبين معبوداتهم وتبرؤهم منهم وكفرهم بهم﴿**وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** [2] ﴾، وهكذا أبطلت الآيات السابقة عقيدة الشرك ، وأثبتت قضية التوحيد فى جلاء ووضوح بعد هذا أخذت الآيات فى إثبات قضية الوحى الإلهى كيف جاء القرآن وحيا جليا وآيات بينات ومع هذا فإنهم لا يملكون أمام إعجاز القرآن إلا أن يقولوا : ﴿ **هذا سحر مبين** ﴾ ثم بينت ما آل إليه أمرهم من التخبط والتضارب ، فيقولون : افتراه . وهنا يبرز القرآن هذه الفرية الأخرى لا فى صورة الخبر بل على صورة الاستفهام لأن هذا لا ينبغى أن يقول به عاقل ومن المستبعد أن ينطلق به إنسان ومعه عقله ، أم يقولون افتراه ؟ وهنا تأتى الإجابة أمرا من عند الله تعالى يتضمن استبعاد تلك الفرية على طريق التدرج معهم حتى يأتى عليها من القواعد فعلى فرض ما ادعيتم فهل يكون مفترى من أجل أن تؤمنوا . . وماذا يجدى إيمانكم لو آخذنى ربى ﴿ **قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا** ﴾ .

ولكن الحقيقة واضحة،ويعلم الله ما يندفعون فيه من طعون زائفة وكفى به شهيدا على صدق ما جئت به وعلى افتراء ما تطاولتم به ﴿ **هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم** ﴾ .

وفى وسط هذا الجو الخانق لديهم ومع هذا الحوار الشديد يكشف القرآن عن أسرار الرحمة الإلهية ، ويشعرهم بحلم الله عليهم رغم تلك الجرائم والافتراءات فيقول : ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ . فقد تتداركهم هداية الله فيهديهم وقد يثوبون إلى رشدهم فيرحمهم وبعد مناقشة المشركين فى ضوء تلك الآيات البينات وبيان أنها حق أخذت فى مناقشتهم عن طريق من أنزل عليه القرآن وهو الرسول ﷺ فهو لا يختص نفسه بشىء ولا يَصدُر فى أمْر إلاّ عن وحى الله ، إن قلبه واثق من ربه فلا يمدّ عينيه إلى سر من الأسرار وأنه ليس أولَ رسول جاء برسالة ربه فقد سبقه من قبل الرسل ﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين** [3] ﴾، أما ما أشارت إليه

---

(١) سورة الأحقاف (١ - ٣) .

(٢) سورة الأحقاف (٦) .

(٣) سورة الأحقاف (٩) .

الآية : ﴿ **وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم** ﴾ فالمراد به ما لم يكن من وظائف النبوة كالحوادث والوقائع الدنيوية ، أما ما يحدث فى الآخرة من ثواب وعقاب أو غير ذلك فإن علم مثل هذا من شئون النبوة ووظائفها ، ولذا اختتمت الآية الكريمة بما يبين إنذار الرسول ﷺ بعقاب الله تعالى : ﴿ **وما أنا إلا نذير مبين** ﴾ كما أخذت الآيات بعد ذلك فى اثبات صدق القرآن عن طريق أحد بنى إسرائيل كواحد من جنس المعاندين . إنه استدل على صدق الآيات من نفس القرآن ثم استدل على صدقها أيضا عن طريق واحد من نوع المعاندين ومن جنسهم : وهو عبد الله بن سلام .

لما سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله فتحقق أنه النبى المنتظر ، فقال له : إنى أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى . ما أول شرائط الساعة ، وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته . فقال : أشهد أنك رسول الله حقا ، فقام ثم قال : يا رسول الله إن اليهود قوم بهت ، فإن علموا إسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبى عليه الصلاة والسلام : أى رجل عبد الله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : أرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ قالوا أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبد الله فقال : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله واحذر ، قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشَهِدَ شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** [1] ﴾ .

هذا هو حديث القرآن الكريم عن نفسه يحمل دليل اعجازه وفصاحته ويحمل نور الله وهدى الله إنه الدستور الخالد الذى نظم شئون الحياة ووثق علاقة الخلق بخالقهم وهدى الناس من ضلالة ، وعلمهم من جهالة ، فما أحوجنا إلى التمسك به والسير على هديه ، وتلاوته وتعلمه وتعليمه ، فمن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم .

* * *

---

(١) سورة الأحقاف (١٠) .

من دلائـــل القـــدرة الإلهية

إن دلائل القدرة الإلهية لا تقع تحت حصر ، ففى الأنفس آيات وفى الكون آيات وفى الليل والنهار آيات وفى الصيف والشتاء آيات وفى السماء والأرض آيات .

وهكذا كل شيء فى ملكوت السموات والأرض يحمل من الآيات ومن دلائل القدرة الربانية ما يشهد بعظمة الخالق وقدرته ووجوده ووحدانيته وأنه الذى خلق فسوى وقدر فهدى .

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

ومن دلائل قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه أنه رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وأنه جلّت قدرته سخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ووضح سبحانه أنه المدبر للأمور كلها . . كما فصّل الآيات والدلائل الشاهدة بوحدانيته وقدرته ، وأنه كما بدأ الخلق هو الذى يعيده وهو الذى بيده مقاليد السموات والأرض وهو على كل شىء قدير ، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الدلائل فى قول الله سبحانه وتعالى : **﴿ الله الذى رفع السموات بغير عَمدٍ تَرَونهَا ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبّر الأمر يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون [1] ﴾** .

فمن ذا الذى يشك فى وحدانية الله وقدرته ؟ ومن ذا الذى يرتاب فى البعث واللقاء ؟ وهذه الشواهد منصوبة واضحة أمام كل ذى عينين ، لا يرتاب فيها امرؤ ومعه عقله ؟

إن أولئك الجاحدين والمعاندين من أعداء الإسلام وممن فى قلوبهم مرض . نظروا إلى كتاب الكون المفتوح بعيون لا تبصر ، وآذان لا تسمع وقلوب لا تفقه ، فكانوا كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

وكما ساق القرآن تلك الآيات والدلائل فى عالم السموات فإنه يسوق آيات ودلائل أخرى فى عالم الأرض ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد جعلها متسعة ممتدة وجعل فيها رواسى من الجبال وأنهارا وثمراتٍ ، تختلف تلك الثمرات فى الطعم وفى اللون وفى الرائحة مع أنها تسقى بماء واحد ولكن القادر العظيم يفضل بعضها على بعض فى الأكل ويفاوت بينها . إنها لدلائل شاهدة بقدرته وعظمته . . ولكن عند من ؟ عند قوم يعقلون ،

---

(١) سورة الرعد (٢) .

أما أولئك الذين لا يدركون حقائق الخلق وأسرار ما فى هذا الكون العظيم ، الشاهد على قدرة الله فإنهم عموا وصموا وضلوا ضلالا بعيدا . قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفى الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** [1] ﴾ .

وفيما يروى لزيد بن عمرو بن نفيل :

وأنت الذى من فضل جُودِك رحمةً
بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له : فاذهب وهارون فادعوا
إلى الله فرعون الذى عاش طاغيا
وقولا له : هل أنت سويت هذه
بلا وتدٍ حتى استقلت كما هيا
وقولا له هل أنت ترفع هذه
بلا عمدٍ أوفوق ذلك بانيا
وقولا له : هل أنت سويت وسطها
منيرا إذا ما جنَّك الليلُ عاديا
وقولا له : من يرسل الشمسَ غدوة
فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له : من أنبت الحبَّ فى الثرى
فيصبح منه الزرع يهتز رابيا
ويُخرج منه حَبَّه فى رؤوسه
ففى ذاك آيات لمن كان داعيا

ومن دلائل القدرة الإلهية تلك الرياح التى تسوق السفن . وقد بين سبحانه أن فى قدرته أن يسكنها فيكون الضياع ويكون الخسران . وفى الرياح من الآيات ما يدعو إلى شكر الله تعالى وعبادته . ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام * أن يَشَأْ يُسكن الريحَ فيظللنَ رواكدَ على ظهره إنّ فى ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور** [2] ﴾ .

---

(١) سورة الرعد (٣ ، ٤) . (٢) سورة الشورى (٣٢ ، ٣٣) .

ومن آيات الله ونعمه أنه يرسل الرياح فتلقح السحاب فتدر المياه النافعة وتلقح الشجر فيتفتح ويزدهر وينمو ويثمر . وينزل سبحانه الماء عذبا ليتمكن الناس من شربه ، ولو شاء سبحانه لجعله أجاجا ، وفى كل ذلك دلالة على كمال قدرته على الموت والحياة والبعث والنشور ، وأنه على كل شىء قدير . قال الله تعالى : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين * وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون** [1] ﴾ .

وفيما رواه الإمام أحمد : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تعالى ، تأتى بالرحمة وبالعذاب ، ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ به ، من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » .

هذا وأن التدبر فى آيات الله والسير والنظر فى ملكوت السموات والأرض أمر له عند المؤمنين وقعُه من الشعور بعظمة الله وقدرته وفضله الوافر على عباده . ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** [2] ﴾ .

* * *

---

(١) سورة الحجر (٢٢ ، ٢٣) . (٢) سورة إبراهيم (٣٤) .

الفضــائل بين الحــدود والقيــود

فى تعاليم الإسلام فضائل مُثلى وآداب عالية ، بها قوامُ الحياة وسلامة بنيانها وصيانة العلاقات الإنسانية من التصدّع والتدهور والضياع ، وتقوم فضائل الإسلام وآدابه على أسس أصيلة لها قوتها وفاعليتها . ثم إنها من ناحية أخرى محكومة برباط قوى من المراقبة الإلهية حتى لا تنحرف يمنة أو يسرة ، وحتى لا تهتز مع أعاصير الحياة فى هبوبها وإثارتها . ولكل فضيلة من فضائل الإسلام قيود ، بحيث لا تتعداها ، حتى لا تصبح ضربا من الفوضى ، أو حتى لا تنقلب إلى رذيلة ، وحتى لا تكون مبعث إساءة بدل أن تكون مصدر إحسان أو مودة ، وما ذلك إلا لأن الفضائل وسَطٌ بين الرذائل . فكل فضيلة وسط بين رذيلتين بحيث لو قصّر صاحبُها فيها أو فرط انقلبت الفضيلة إلى رذيلة ، فالسخاء مثلا : فضيلة . وهى وسط بين رذيلتين : رذيلة الشح والبخل عند التفريط ، ورذيلة الإسراف والتبذير عند الإفراط . ولذا نرى الإسلام حين حث على هذه الفضيلة حذّر من طرفيها حتى لا يقع فيهما فقال الله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** [1] ﴾ .

وكذلك فضيلة القوة فهى وسط بين رذيلتين هما : الضعف والتهور . ففى جانب التقصير والتفريط يكون الضعف . وهذا نبه الإسلام عليه ودعا إلى القوة ففى الحديث : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » . . وفى جانب الإفراط يكون التهور ، وقد حذر الإسلام منه كثيرا وأكد الوصية بالبعد عنه ففى الحديث : « ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب [2] » .

وكما حدد الإسلام الفضائل والآداب بحدود لا تتعداها حتى لا تصبح فوضى ولا تنقلب إلى رذائل فإنه كذلك قيّدها حتى لا تتعدى دائرتها المشرقة وآدابها الطيبة . فحين يدعو إلى فضيلة يقيدها مخافة أن يسير الإنسان بلا قيود فتنقلب إلى رذيلة أو تجره إلى ما هو غير محدود . فمن ذلك مثلا : فضيلة الإنفاق ، حين يحُثُّ الإسلام عليها ويأمر الناس بها يحذّرهم من التبذير كما يحذّرهم من التقتير . ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** [3] ﴾ .

---

(١) سورة الاسراء (٢٩) .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) سورة الفرقان (٦٧) .

ثم إنه يقيد الإنفاق فلا يبخل به صاحبه فيؤدى به إلى الهلاك ، أو أن يزيد إلى درجة التبذير فيكون الهلاك فيقول: ﴿**وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** [1]﴾ومن ذلك أيضا فضيلة التعاون ، فحين يأمر الإسلام بها يحذّر من عكسها . . فهو أولا يحدّد الدائرة التى يكون فيها التعاون . ثم بعد ذلك يقيدها بحيث لا تتعداها إلى سواها فيقول الله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾ ويقول فى تقييدها وعدم تعدّيها إلى غيرها أو إلى الرذائل ﴿ **ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ .

وفضيلة التواصل بين الناس لها أثرها فى ازدهار الحياة الاجتماعية ، وتنمية العلاقات الإنسانية فبالتواصل يَتفقّد الإنسانُ المسلمُ أحوال أخيه ويشاركه آلامه وآماله وهى فضيلة طيبة وكريمة ، ولكن الإسلام يقيدها بحيث لا تتعدى دائرتها إلى التدخل فيما لا يعنيه وفيما رواه الترمذى وغيره عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مِنْ حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . وهذا شامل لترك الإنسان كل قول أو عمل لا يعنيه ، واقتصاره على ما يعنيه من الأقوال والأفعال . .

وترك ما لا يعنى قاعدة هامة وتامة فى باب الفضائل إذا أهملت أصبحت دنيا الفضائل ضروبا متفاوتة من الفوضى والتطفل والإهمال والخسران فلزمت هذه القاعدة الأصيلة التى لابد منها حتى أن الرسول ﷺ يوضح قيمتها ويرفع مكانتها فيبين أنها من حسن الإسلام ، ولذا كان هذا الحديث السابق أحد أربعة أحاديث هى جماعُ آداب الخير كما حكى الإمام أبو عمرو بن الصلاح عن محمد بن أبى زيد إمام المالكية أنه قال : جماع آداب الخير وأزمته تتفرع من أربعة أحاديث قول النبى ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » ، وقوله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، فترك ما لا يعنى بحكم الشرع يقتضينا أن نترك الاستماع إلى ما يحدّثُ الناسُ به بعضهم بعضا أو ما يناجى به بعضهم بعضا . . وعدم التجسس ، فهذان مثالان لترك ما لا يعنى بحكم الشرع ، وحكم الشرع فى ذلك واضح . .

فقد نهى عن الاستماع إلى أحاديث الناس ونهى عن التجسس ، ففى الحديث « ولا تجسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا » . وقد قال الله تعالى : ﴿ **ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ فهذا ترك ما لا يعنى بحكم الشرع . وأما ترك ما لا يعنى بحكم الهوى فإن الهوى قد يدعو إلى ما يخالف الشرع ، فقد يدعوه إلى ترك الإصلاح بين رجلين متخاصمين ، وقد يدعوه إلى عدم الإدلاء بشهادة الحق التى يترتب عليها إعادة حق إلى صاحبه وهكذا . ومن أجل هذا كله كان ترك ما لا يعنى مقيدا بحكم الشرع لا بحكم الهوى . .

(١) سورة البقرة (١٩٥) .

وأكثر ما يراد بترك ما لا يعنى حفظ الله له من لغو الكلام كما قال ﷺ : « إن من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه [1] » .

وأخرج الخرائطى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ رجلٌ فقال : يا رسول الله إنى مطاعٌ فى قومى فما آمرهم ؟ قال له : « مُرهم بإفشاء السلام وقلة الكلام إلا فيما يعنيهم » . . ومجال الكلام واسع جدا فى هذا الموضوع وأكثر ما يكون الوقوع فيما لا يعنى يكون من قبل الكلام ، ولذا نجد التحذير منه والنهى عنه موجودا فى الكتب السابقة وفى الصحف الماضية ونجده محرما على الأمم السابقة .

عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « كان فى صحف إبراهيم عليه السلام : وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات ساعةٌ يناجى فيها ربَّه وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَه ، وساعةٌ يتفكرُ فيها فى صنع الله تعالى ، وساعةٌ يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا (أى ساعيا) إلا لثلاث . تزوُّد لمعادٍ أو حرفة لمعاش أو لذةٌ فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلا على شانه حافظاً للسانه . ومن حسب كلامهِ من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه . رواه ابن حبان فى صحيحه . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : من عدَّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . إن ترك الإنسان لما لا يعنيه ضابط من أهم ضوابط الفضائل والآداب ومكارم الأخلاق ولكنه مقيد بحكم الشرع حتى لا يتلاعب به المتلاعبون أو تصرفه أهواء النفوس على حسب ما تريد .

وحتى لا يقصر الناس فى واجبات مهمة بدعوى هذه القاعدة ـ فالإسلام وهو دين الاعتدال والحق والفضيلة ينشد من أتباعه أن يكونوا متعاونين على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . وأن يكونوا متواصلين متعاطفين فى غير تطفل أو دخول فيما لا يعنى ، إنه دين الأدب العالى والذوق الرفيع لم يترك صغيرة أو كبيرة من الفضائل والآداب إلا أتى بها ودعا إليها .

وفقنا الله لما يحبه ويرضاه . . .

* * *

---

(١) رواه أحمد فى المسند .

فى تطبيق الشريعة أمان ورخاء

إن فى تطبيق الشريعة الإسلامية رخاء وأمانا ، أما الرخاء فإن الله تعالى يجزل الرزق للمتقين ، وأما الأمان فلأن فى اتباع الشريعة نجاةً من العذاب وأماناً من الفتن والخوف ، ذلك لأن مخاوف الناس ترتكز فى جانبين .

الأول : الخوف على الحياة . والثانى : الخوف على الرزق ، وقد وعد الله تعالى ووعده الحق أن من اتقاه وطبق شرعه يضمن له الأمرين قال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ .

فهذه الآية الكريمة مؤكدة لمراعاة حدود الله وما وعد الله على ذلك من المخرج والرزق كما أن فى قول الله تعالى : ﴿ **ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلَم نفسه** ﴾ ، تأكيدا بالوعيد بالنسبة لمن تعدى حدود الله .

روى أن عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنه سالما ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : أُسرَ ابنى . وشكا إليه الفاقة فقال عليه الصلاة والسلام اتق الله وأكثر قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ففعل فبينما هو فى بيته إذْ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت تلك الآية الكريمة ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ والأمان والرزق نعمتان من أجل النعم الإلهية على الناس وحين أمر الله قريشا بعبادته ممتنا عليهم ذكّرهم بهاتين النعمتين ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ .

وإذا كانت هاتان النعمتان جزاء وفاقا لمن عبد الله وطبق شريعته فإنه يقابلهما نقمتان لا يسلطهما الله إلا على الجاحدين الكافرين بأنعم الله الذين لا يطبقون شريعته ، ولا يسيرون على هداها ، هاتان النقمتان هما : الجوع والخوف ، قال الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** [1] ﴾ .

والقرآن الكريم حين يحث على مطلب من مطالب الشريعة أو يدعو إلى سنة من سنن الله كالزواج مثلا ـ ينبه على أهميته كطريق للحلال والعفة ، ويحذر من أن تكون قلةُ ذات

(١) سورة النحل (١١٢) .

اليد عائقـاً دون تحقيقـه فإن عنصر التقوى والصلاح هو الأجدر بالاحترام والنظر إليه ، وعندئذ يَعدُ الله صاحبه باليسر والفضل ، كما يأمر الله تعالى الذين لا يجدون شيئا ألبتة بالعفة . ويعدهم على ذلك أيضا باليسر والفضل ، قال تعالى : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم * وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾ .

وهكـذا يمضى بنـا المنهج القرآنى الحكيم فى ترسيخ دعائم الحق وإرساء القواعد الثابتة لتنفيذ أمر الله وتطبيق أحكام شريعته ، كسبيل لسعادة الدنيا وعز الآخرة .

وليس معنى هذا أن ندع شئون الكسب والمعاش أو وسائل التنمية الاقتصادية ، فإن الإسـلام دين العمل ، ولكن علينا أن نتجه بوسائل الكسب إلى أشرفها وأنبلها . وعلى رجال الاقتصاد والاجتماع والتجارة أن يعملوا بتخطيط إسلامى مدروس ومنهج للكسب والتنمية يخلو تماما من أية شائبة من شوائب الحرام والشبهات .

وفى تطبيق سائر أحكام الشريعة أمان للمجتمع الإنسانى بأسره ، وقد بين الله تعالى أن فى القصاص حياة . قال سبحانه : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقـون** [٢] ﴾ ، فـإن العلم باقامة القصاص يردع القاتل عن القتل فيكون سبب حياة نفسين . . وهكذا الأمر بالنسبة إلى تطبيق الأحكام فى سائر جوانب الحياة ، وقد نادى الإسلام باقامة الحدود . عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم فى الله لومة لائم [٣] » .

أثـر ذلـك فى الفـــرد والمجتمـــع

لقد تحدث الرسول ﷺ عن أثر ذلك بالنسبة للفرد والمجتمع وضرب على ذلك مثلا محسوسا وأننا إن لم نأخذ على يد الجانى يعم الهلاك ، وإن أخذنا على يديه نجا الجميع . عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً [٤] » . .

---

(١) سورة النـور (٣٢-٣٣) .
(٢) سورة البقرة (١٧٩) .
(٣) رواه ابن ماجه .
(٤) رواه البخـارى .

ونـظرة سريعـة إلى المسلمين الأوائل إذا أصاب أحدهم نزغ من الشيطان فاقترف الخطيئة ، تحرك وازع الدين فى نفسه وأحس بفداحة جرمه فيلتمـس الطهارة منه يتقدم لأخذ جزائه عليه فى الدنيا قبل الآخرة .

روى الإمام مسلم بسنده عن بريدة قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله طهرنى ، فقال ويحك فاستغفر الله وتب إليه قال : فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرنى . فقال رسول الله ﷺ ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه . قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرنى . فقال النبى ﷺ مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ مم أطهرك ؟ فقال : من الزنا فسأل رسول الله ﷺ أبه جنون ؟ فأخبرأنه ليس بمجنون فقال : أشرب خمرا ؟ فقام رجل فاستكنهه فلم يجد منه ريح خمر قال فقـال رسول الله ﷺ أزنيت ؟ فقال : نعم فأمر به فرجم ، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس ، فسلم ثم جلس فقال استغفروا لماعز بـن مالك : قال فقال رسول الله ﷺ : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم ، وهكذا نرى كيف سمت أرواحهم وصفت فحافظوا على أحكام الشريعة ونفذوا حدودها مهما كلفهم ذلك .

ولقد وعد الله تعالى ـ ووعده الحق ـ كل من يحقق الإيمان عقيدة وعملا بالاستخلاف فى الأرض وبتمكين دينه الذى ارتضاه ، وبأن يَعدِهم بظلال الأمن الوارفة وبحياة الاستقرار والطمأنينة فقال تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً** [1] ﴾ .

إن هذا النموذج الصادق من المؤمنين الصالحين إذا مكّن الله لهم فى الأرض فلا خوف على دين الله فى وجودهم من الباطل ، فلسوف يوثقون علاقتهم بالله وصلتهم به فيقيمون الصلاة وهى عنوان تلك الصلة كما يوثقون علاقتهم بالناس فى تكافل اجتماعى نقى فيؤتون الـزكاة وبصفة عامة يقيمون شريعة الله فى الأرض ويحافظون على الحدود وتطبيق أحكام الدين أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** [2] ﴾ ولطالما ذكر القرآنَ الكريم أتباع الحق حين نصروا دين الله فنصرهم ربهم وآواهم وأيده م وآمنهم بعد خوف ورزقهم من الطيبات بعد الفاقة .

قال الله سبحـانـه ﴿ **واذكـروا إذا أنتم قليـل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصرهِ ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** [3] ﴾ .

---

(١) سـورة النور (٥٥) . (٢) سـورة الحج (٤١)
(٣) سـورة الأنفال (٢٦) .

وهكذا يتضح لنا مما سبق أن فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الأمن والرخاء ، ذلك فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فالفلاح الدائم ، والسعادة الخالدة فى جنات تجرى من تحتها الانهار ، وهكذا للذين استجابوا لله وللرسول وطبقوا تعاليم ذلك الدستور السماوى الذى ربط الخلق بالحق بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو اليقين فلا ريب فيه وهو الهدى فلا تزيغ به الأهواء فمن سار على مبادئه فهو على هدى ومن طبق تعاليمه فهو من المفلحين قال الله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** [1] ﴾ .

وقد أمر الله تعالى أن نتبع ما أنزله سبحانه فقال : ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون** ﴾ وقال سبحانه : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً** [2] ﴾ .

وقد أكمل الله تعالى الدين وأتم النعمة على العباد ورضى لهم الإسلام دينا ليقيموا على منهجه حياتهم ، قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** [3] ﴾ ، ومن رحمة الله تعالى وحكمته أن جعله دينا سمحا لا حرج فيه ، حتى لا يشق أمره على أحد ، ولا يكون للناس على الله حجة . قال سبحانه : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ فمن ابتغى غيره فلن يقبل منه ﴿ **ومن يتبغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

وإلى جانب كونه كاملا تاما فقد جاء متوائما مع الفطرة يصلح كل زمان ومكان وجاء مصونا من أى تحريف وباطل فكتابه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وقد تكفل الله تعالى بحفظ كتابه : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ . إذاً فالدين محفوظ بحفظ كتابه مصون من قوانين البشر المتضاربة التى تصيب مرة وتخطىء مرات وتصلح اليوم ولا تصلح غدا ، ويمكن أن تسرى فى مجتمع ولا تسرى فى غيره وتثمر فى بيئة ولا تثمر فى أخرى ، تلك هى القوانين الوضعية التى صاغها العقل البشرى الذى يتعرض للخطأ والهوى والسهو والنسيان ، أما القوانين الإلهية فهى فى عصمة من كل ذلك لأنها من لدن حكيم خبير ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع البصير** ﴾ .

---

(١) سورة البقرة (٢ ـ ٥)
(٢) سورة النساء (١٠٥) .
(٣) سورة المائدة (٣) .

وينبغى أن نشير هنا إلى أمر هام تدعمه الشريعة الإسلامية فى طريق تطبيقها وهو أنه بترتب الجزاء على العمل بصورة قاطعة لا يفلت أحد من الجزاء الذى أعده علام الغيوب ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، فمن أفلت من العقوبة فى الدنيا فلن يفلت من عذاب الله يوم القيامة ، ومن أجل هذا كان الإسلام يركز على جانب المراقبة والخوف من الله تعالى ، وأن الناس قد يستطيعون الإفلات من قوانين الأرض ، وقد يستطيعون التهرب من الناس والاختفاء عن عيونهم ولكنهم لا يستطيعون ذلك مع الله الذى يعلم السر وأخفى .

التحـــذير مـن البعـد عن الشريعـة

وكما أكد القرآن الكريم الحكم بما أنزل الله فقد حذر كل من حاد عن منهج الحق أوندَّ عن صراط الله المستقيم فراح يحكم بغير ما أنزل الله وأصدر الله الحكم فى الآيات البينة **﴿ومن لم يحكم بما أنـزل الله فأولئـك هم الـظالمـون [(١)]﴾**، وفى آية أخرى: **﴿ومن لم يحكم بما أنـزل الله فأولئك هم الفاسقون [(٢)]﴾**. وقد أمر الله تعالى بوجوب طاعته سبحانه وطاعة رسـولـه ﷺ وطـاعة أولى الأمر فقال سبحانه : **﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليـوم الآخـر [(٣)]﴾**، وبـين سبحانه أن من أعرض عن هذه الطاعة فقد انسلخ من عقيدته وانصرف عن الدين الحق ، قال الله تعالى : **﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين [(٤)]﴾** .

ولما كان رسول الله ﷺ مبينا لما أنزل الله إليه ، وكانت سنته الشريفة فيها التوضيح والتفصيل للقرآن الكريم فقد أمر الله بطاعته وأوجب اتباعه والتسليم لحكمه قال سبحانه : **﴿ فلا وربـك لا يؤمنـون حتى يحكمـوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما [(٥)] ﴾** ، وقال : **﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾** .

وفَّق الله سائر البلاد الإسلامية أن تعمل بالشرع وأن تسير على هدى رسول الله ﷺ حتى تتبوأ الأمة الإسلامية مكانتها المرموقة كخير أمة أخرجت للناس مثلما كان عليه السلف من الأمان والعمل ، واتخاذهم الأسوة الحسنة برسولهم صلوات الله وسلامه عليه استجابة لقول الله تعالى : **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾** .

---

(١) سورة المائدة (٤٥) .

(٢) سورة المائدة (٤٧) .

(٣) سورة النساء (٥٩) .

(٤) سورة آل عمران (٣٢) .

(٥) سورة النساء (٦٥) .

دع ما يريبك إلى ما لا يريبك

الإنسان مخلوق عاقل ، منحه الله سبحانه وتعالى العقل كمنحة ربانية يدرك الخير من الشر ويميز بين الحق والباطل ، والنافع والضار والطيب والخبيث والحلال والحرام والإنسان أيضا مخلوق متدين لأنه مولود على الفطرة التى فطره الله تعالى عليها ، فإذا ما طرأ تغيير بعدَ ذلك فهو خارج عن أصل خلقته جديدٌ على فطرته كما جاء فى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة » وبهذه الفطرة ، وبقوة الخير الكامنة فى الإنسان وبمنحة العقل التى منحه الله تعالى إياها يتعرف الإنسان على ما أحل الله له وعلى ما حرّمه عليه ، مستضيئا فى كل خطاه بالهدى الإلهى من قرآن وسنة ، ولقد جعل الله سبحانه الإباحة والحلَّ الأصْلَ فيما خلق من أشياء وقرر الإسلام هذا المبدأ وهو أن الأصل فى الأشياء الحل والإباحة إلا إذا ورد نصٌّ صريح من الشرع بالتحريم .

قال تعالى : ﴿ **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا** ﴾ ، وأما المحرمات فقد حددها وفصلها فالحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله ، وفى الحديث : «ما [1] أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرَّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو . فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا » وتلا : ﴿ **وما كان ربك نسيا** ﴾

وبين الحلال والحرام أمور مشتبهة على كثير من الناس فلا يقطعون فيها برأى ولا يقفون على حكمها بالتعيين ، أتكون من الحلال أم لا ؟ والسبب فى هذا أنه يتنازعها دليل الحل فيظن أنها حلال ودليل الحرمة فيظن أنها حرام من جهة عموم الأدلة ، ولكن ما حكم مثل هذه الأمور ؟ لقد ذهب بعض العلماء إلى أنها حرام ، وقال البعض أنها مكروهة وقيل بالوقف ، فلا يحكم فيها بحل ولا حرمة لأنها غير واضحة ، والذى نراه : هو الأخذ بالأحوط فبالنسبة لمن لم يقطع فى هذه الأمور برأى واضح الدليل معين ، عليه أن يسأل الراسخين فى العلم ، وهم الذين أوتوابصيرة مستنيرة ، وعقلية علمية راجحة ولديهم القدرة على الجمع بين الأدلة التى ظاهرها التعارض .

أما إذا اختلفت آراء العلماء باختلاف استظهار الأدلة فعلى المسلم أن يحتاط لدينه ، فيتوقف عن هذه الأمور لأن الرسول ﷺ قال : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه

---

(١) رواه الحاكم وصححه .

وعرضه » أى أنّ من حذر الشبهات وتوقى الاقتراب من مواطنها ، فقد طلب البراءة وحصل عليها فحافظ على دينه من النقص وعلى عرضه من الطعن فيه ، وبهذا يفهم أن من اقترب من هذه الأمور فقد تعرض للطعن فيه فعلى المسلم أن يحافظ على أمور دينه ومروءته .

وفى الحديث : (إنى لأنقلب إلى أهلى فأجد التمرة ساقطة على فراشى فأرفعها لآكلها ، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها) ، وعلى الإنسان المسلم ألا يفعل شيئا قد يكون ظاهرهُ مدعاةً لسوء الظن به حتى يتبين وجه الحقيقة فيه . وعلى الناس عامة ألَّا يعرضوا أنفسهم للقيل والقال ، بل عليهم إذا أحسوا بشىء من هذا القبيل أن يبينوه حتى لا يظُن بهم الظنون ، رُوى : أن صفية بنت حُيى زوجَ رسول الله ﷺ جاءت تزوره حين اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان ، ثم قامت فقام معها يودّعها فمرّ بهما رجلان من الأنصار ورأياه واقفا معها فقال على رسلكما إنها صفيةَ بنتَ حُيَى فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، وهل نظن بك إلا خيرا فقال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وقد خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا [1] .

وأن من يقع فى الشبهات يقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه وفعل الشبهات يُقَرّب من الحرام ، لأن الكثرة منها تجعل صاحبها يصادف الحرام دون أن يشعر . إن كثرة الشبهات والتساهل فى أمرها تجعله يجرؤ على الوقوع فى الحرام . وكل أمر يرتاب فيه المسلم ولا يطمئن إليه فالواجب عليه أن يتركه إلى ما يطمئن إليه ، ولا يرتاب فيه .

عن الحسن بن على رضى الله عنه قال « حفظت من رسول الله ﷺ دع ما يريبك إلى ما لا يريبك [2] » .

وعند الترمذى وغيره زيادة فى هذا الحديث وهى : فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة . وللإنسان المسلم حاسته الإيمانية الصادقة التى لا تكذب ولقلبه من المعرفة والطمأنينة للحلال والطيب بحيث يدركه ويحس به ويستشعره فإن قلب المسلم يضطرب للحرام ويسكن للحلال .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال لرجل : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك قال : وكيف لى بالعلم بذلك ؟

قال إذا أردت أمرا فضع يدك على صدرك فإن القلب يضطرب للحرام ويسكن للحلال ، وإن المسلم الورع يدع الصغيرة مخافة الكبيرة .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .　　(٢) رواه النسائى والترمذى .

وما أكثر الحياة العملية التى يتعامل فيها الناسُ معاملاتٍ عامةً أو خاصةً بيعاً وشراء وما إلى ذلك . . حيث تتعدد فيها الشبهات وفيها ما يرتاب الناس فيه وما لا يرتابون ، ولكن الناس منهم من يتقى الشبهات ويدركها لأول وهلة باحساسه الإيمانى وحاسته القلبية الصادقة فيبتعد عما يُريبه ويفعل ما لا يُريبه ، ومنهم من ينظر إلى الأمور بمنظاره الخاص ، ويحاول تحليل ما فيه ريبة وتعليله بما يتفق وهواه دون وازع دينى أو ضمير حى .

فليس كل الناس على وتيرة واحدة فيما يتصل بإدراك ما فيه ريبة ، وما ليس فيه ريبة وإنما هم يختلفون باختلاف قوة الإيمان وكماله وسلامة العقيدة والعبادة فالحلال والحرام لايخفيان على أحد إن الحلال بين والحرام بين . وكثير من الناس يدرك ما فيه ريبة لكنهم كما قلنا قد يَتعللون بعلل واهية أو ينتحلون أعذاراً غير مقبولة لمحاولة تبرير أعمالهم وسلوكهم ، والقلة ممن أظلمت قلوبهم ـ والعياذ بالله ـ لا يُدركون ولا يحاولون التعرف على شىء من أمور دينهم وأحكام معاملاتهم ، ولننظر إلى سلفنا ومدى حيطتهم وورعهم وبعدهم عن الشبهات وكل ما فيه ريبة . .

يقول ابن المبارك : كتب غلام لحسان بن أبى سنان إليه من الأهواز أن قصب السكر أصابته آفة فاشتر السكر فيما قبلك ، فاشتراه من رجل فلم يأت عليه إلا قليل فإذا فيما اشتراه ربح ثلاثين ألفا ، قال : فأتى صاحبَ السكر ، فقال : يا هذا إن غلامى كان قد كتب إلى فلم أعلمك فأقلنى فيما اشتريت منك فقال له الآخر : قد أعلمتنى الآن ، وقد طيبته لك ، قال : فرجع فلم يحتمل قلبه فأتاه فقال : يا هذا إنى لم آت هذا الأمر من قبل وجهه فأحب أن تسترد هذا البيع قال : فما زال به حتى ردّه عليه ، وعن النوّاس بن سمعان رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « البرُّ حسن الخلق والإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس [1] » . .

وعن وابصة بن معبد رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال : جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت : نعم . فقال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك [2] . .

---

(١) رواه مسلم . (٢) رواه أحمد والدارمى .

الاعتــدال بين المــادية والروحيــة

الإسلام هو دين اليسر والسماحة ، تضمنت تعاليمه القويمة ومبادئه السمحة ما فيه سعادة الناس دنيا وأخرى. وهو دين ينظم العلاقات القائمة بين البدن والنفس ، أو بين متطلبات الجسد ، وبين الجانب الروحى فى الإنسان .

ففى كل إنسـان جانبان أحدهما مادى يتطلب الطعام والشراب والملبس والمسكن والزواج وما إلى ذلك مما جرت عليه سنة الحياة .

والجانب الآخر روحى يتطلب صقل النفس وتهذيب الروح والاتجاه إلى الله ، يهذب النفس وينقيها ويصل بها إلى مرتبة التقوى كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** [1]﴾وغير ذلك من العبادات التى شرعها الإسلام ، وغير ذلك من الطيبات التى أباحها الإسلام للإنسان حتى يتواءم نظام البدن والروح ولا يحدث هناك تفرقة أو انفصال بينهما .

والغلو فى أحد الجانبين خروج عن سواء السبيل ، والتقصير فى أحد الجانبين تَضْييعٌ لحقوق يجب أن تُراعى ، وإهمالٌ لأوامر لها أهميتها ومنزلتها . . ومن هذا كان نداءُ الإسلام بين المادة والروح معتدلا وقائما على أساس تنظيم العلاقة بين البدن والروح ، وإذا استقام الأمر وانتظمت الحال انتظمت العلاقات الأخرى وأخذ الإنسان طريقه إلى ربه سبحانه وتعالى فى اعتدال لا عوَجَ فيه . وفى انتظام لا غُلُوَّ فيه ولا تقصير . فلا رهبانية فى الإسلام ولا مشقة أو تعب يصيب البدن ، ولكنها التشريعات الصحيحة التى أبطلت ما كان عليه البعض من رهبانية وما حاوله البعضُ من عَزل الدين عن الحياة ، وعندئذ تضلُّ الحياة فإذا عُزِلَ الدينُ عن الحياة ضلَّت طريقها وتخبَّطَتْ فى شكوك وأوهام ، فالدين بمبادئه ونظمه بتَعاليمه وقيمه يضىء للحياة طريقها ويبعث فى جوانبها الحياة والأمل ويجعلها دائمةً موصولةً بالخير الدائم الذى لا ينقطع وبالفضل المستمر الذى لا يتوقف ، وعن تلك الرهبانية التى لم يرعها أهلها تحدث القرآن الكريم ، فقال الله تعالى : ﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رَعوها حقَّ رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرَهم وكثيرٌ منهم فاسقون** [2] ﴾ .

---

(١) سورة البقرة (١٨٣). (٢) سورة الحديد (٢٧).

وفى السنة الشريفة تحذيرٌ من تلك الرهبانية وترغيبٌ فى إعطاء الجسم حقه من الراحة ومن طيبات الحياة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن نفرا من أصحاب النبى ﷺ سألوا عن عمله فى السرّ ، فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا آكل الطعام وقال بعضهم : لا أنام على فراش فبلغ النبىَّ ﷺ ذلك فحمد الله وأثنى عليه وقال : ما بال أقوام قالوا : كذا وكذا ؟ ولكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى [1] . وقال الله تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك** [2] ﴾ . وقد وجه القرآن الكريم أنظار المسلمين وقلوبهم إلى حقيقة هذه الحياة الدنيا وأنها لعب ولهو وزينة ، والناس فيها متفاخرون ومتكاثرون ، ولكن نهايتها إلى زوال وآخرتها إلى فناء فلا بقاء لها ولا خلود فيها وكل ما عليها عرض زائل فليس لإنسان أن يتكالب عليها أو أن يتزاحم على حطامها ويتقاتل على بريقها وإنما الواجب على الإنسان أن يكبح جماح نفسه فيعمل لآخرته وليس معنى هذا أن يهجر دنياه أو أن يتركها ويهملها ؟ لا ، وإنما يوفق بين دار العمل والتكليف ، وبين ما تتطلبه دار الجزاء ، الدار الأخرى التى هى خير وأبقى ، يقول الله سبحانه : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** [3] ﴾ . وحين يقصر الناس اتجاههم فى الحياة على طلب المال والولد والمنصب فإنهم حينئذ يتجهون اتجاها ماديا بحتا . . والإسلام لا يحرم التمتع بالطيبات وينادى بعمارة الحياة بالمال والولد ولكن على شرط أن تكون قائمة على أسس من الفضائل والمثل التى نادى بها . الإسلام لا يحرم طيبات الحياة ولكن ينادى بأن تشرق بالإيثار والبذل ، بالتضحية والإخلاص بالتعاون والتساند على البر والتقوى . قال الله تعالى : ﴿ **المال والبنون زينةُ الحياة الدنيا والباقياتُ الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** [4] ﴾ ، وبين الله سبحانه أنه لم يحرم زينته التى أخرجها لعباده ، ولا الطيبات من الرزق فقال جل شأنه : ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ .

وأما محاربة الإسلام للمادية الطاغية البحتة فذلك لأنها نأت عن القيم الرفيعة والآداب العالية والمثل الحية وأصبح هؤلاء الماديون المغالون يمثلون نشاطا جامدا خاليا من الروح والمعنى بعيدا عن المبادىء السامية ، وأصبح هؤلاء الماديون يمثلون حربا على المعانى الإنسانية وعلى الفضائل الكريمة .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة القصص (٧٧) .
(٣) سورة الحديد (٢٠) .
(٤) سورة الكهف (٤٦) .

إن هؤلاء الماديين قد ضل سعيهم فى الحياة ويزعمون أنهم **يفعلون فعلا حسنا** ويقومون بإصلاح فى الحياة ، لقد انطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعها** ﴾ .

وأما السائرون على نهج الإسلام فى اعتداله بين الطرفين بدون إفراط أو تفريط ومن غير غلو ولا تقصير ، فإن الله سبحانه وتعالى يزيدهم هدى على هداهم . قال سبحانه : ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا** ﴾ . تلك حقيقة قرآنية لا يرتاب فيها امرؤ ومعه عقله فالمهتدون السائدون على الحياة هم الذين يزيدهم الله هدى وبهم يشرق المجتمع الإسلامى بالمعانى النبيلة الفاضلة ، والذين لا تشدهم الحياة الدنيا ولا تجذبهم بزخارفها هم الذين فطنوا لدورهم فى الحياة ومهمتهم السامية فى المجتمع الإنسانى ومن أجل ذلك فهم حريصون على أن يتمثلوا مبادىء الحق . وأن يرتادوا سبل الخير والإصلاح وهم بهذا كله جديرون بأن يمكن الله تعالى لهم فى الأرض . وقد رسم القرآن الكريم صورةً مشرقة ووضح ركائز التمكين فى الأرض وهى تتركز فى المبادىء الآتية :

أولا : توثيق الصلة بالله سبحانه وتعالى ، بالقيام بأداء أوامره واجتناب نواهيه ، والإعلان عن ذلك إنما يتمثل فى القيام بالصلاة التى هى عنوان الطاعة لله سبحانه وتعالى ، فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى تكف صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما قال الله تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ . وهى الصلة الوثيقة بين العبد وخالقه الكبير المتعال .

ثانيا : ربط الصلة بالمجتمع ونشر وسائل التكافل الاجتماعى تأكيدا وتنمية للعلاقات الإنسانية الفاضلة بين الإنسان ، وأخيه الإنسان وعلى قمة هذه العلاقات أداء الزكاة .

ثالثا : المهمة الكبرى التى تتطلب الغيرة من كل مسلم على دينه ودعوة الغير إلى الرشد والخير بالحكمة والموعظة الحسنة والعمل على نشر فضائل الإسلام ومبادئه عن طريق الدعوة إلى الله ومحاربة المنكر ومقاومة الشر والفساد أمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر .

قال الله تعالى : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ .

إن ركائز التمكين فى الأرض تعنى القيام بواجب الإنسان المسلم تجاه خالقه سبحانه وتعالى وتجاه نفسه ، وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه ، فينبغى عليه أن يكون حريصا على نشر الفضائل ومقاومة المنكر .

كما يجب على كل مسلم أن يدرك أهمية الوقوف عند معالم الحق والخير بحيث لا يميل ولا يحيد ولا ينحرف يمنةً أو يسرة ، كما يجب عليه الوقوف فى مواجهة التيارات المادية الجارفة التى تشكلت بأشكال مختلفة وتَسَمت بأسماء متباينة متخذة بعض المذاهب الفاسدة وبعض النظريات الوافدة مذهبا وطريقا ، وفى هذا تضييع للقيم وحرب للإسلام يجب الوقوف فى وجه تلك التيارات من شيوعية وقاديانية وبهائية وغير ذلك من المذاهب الهدامة .

ومقاومة هذه التيارات الوافدة من أهم ركائز التمكين فى الأرض لأنه باب واسع من أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى جعله الله سبحانه وتعالى من أهم دعائم خيرية هذه الأمة فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ . ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان [1] » .

رد بعض الشبهات

وقد أثار أعداء الإسلام وخصومه بعضَ الشبهات يحاولون أن يتهموا الإسلام بأنه مادّى وبنقص الناحية الروحية فيه ، وهى بدون شك شبهة واهية لا أساس لها من الصحة فإن التشريع الإسلامى جاء وافيا بحاجات البدن والروح ، وبتنظيم الجانبين والاعتدال بينهما بلا إفراط أو تفريط ، ومن المعلوم أن الإنسان يتكون من عنصرين أحدهما مادى والآخر روحى وقد توسط الإسلام بين الطرفين ، والتوسط هو الفضيلة المثلى وقد وجه القرآن الكريم جميع المسلمين إلى مراعاة مطالب الدنيا والآخرة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب** [2] ﴾ ونهى القرآن عن تحريم الطيبات حفاظا على جانب الاعتدال بين المادة والروح كما حرم الاعتداء ومجاوزة الحد فى ذلك ، بل على الإنسان أن يأكل مما رزقه الله من الحلال الطيب على أساس من التقوى والإيمان .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ .

ويركز الإسلام بتوجيهه للمسلمين محذرا لهم أن تفرقهم الحياة الدنيا بماديتها ومباهجها وأن الأموال والأولاد فتنة وعند الله عظيم الأجر للمخلصين فقال سبحانه :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة البقرة (٢٠٠ - ٢٠٢) .

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ ، وقال تعالى : **﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد [١] ﴾**. وقد وضح الإسلام أهمية طلب الآخرة وضرورة العمل لها ، فمن كانت الآخرة همه وعمل لها جمعَ الله له ما يريد وجعله غنيَّ النفس غنيا بالإيمان وتأتيه الدنيا منقادة راغمة . وأما الذى ينكبُّ على المادة يجمعها ويجعل الدنيا همَّه فإن الله يجعل الفقر بين عينيه ، ومهما واصل التعب والكد فى سبيلها فإنه لا ينال منها إلا ما قدره الله سبحانه وتعالى .

عن يزيد بن ثابت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يؤته من الدنيا إلا ما كُتب له ومن كانت الآخرة همه جمع الله أمره وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة [٢] » . . وحياةُ السلف حافلة بالإيثار والبذل والتضحية والمعروف حتى وإن ترتب على ذلك بذل كل ما يمتلكون . نعم ، الإسلام دعا بالتوسط كما سبق . . قال تعالى : **﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط [٣] ﴾**. ولكن سلفنا الصالح فى نظرتهم الإيمانية الفاحصة يدركون قيمة ميراث الأبناء من بعد . . وخطورة المادة حين يقوى جانبها ويشتد وحين يمسك الأبناء بها وينحرفون بسببها .

فمن الناس من يورث أبناءه أموالا طائلة وعقارات لا حصر لها ظنا منه أنه حين يفارق الحياة يفارقها وهو مطمئن عليهم من الفقر ، ولو أنه ورَّث أبناءه ثروة الإيمان والعمل الصالح والقيم الروحية والتهذيب الخلقى لكانوا أغنى بكثير وأعظم وأسعد من ميراث المال الذي ربما أفسدهم ومزقهم ، ومن الناس من يُوّرث أبناءه إيمانا صادقا وعملاً صالحا وسلوكاً قوياً . ولم يترك لهم من المال شيئاً فإذا بثروة الإيمان والعمل الصالح تجعلهم أغنياء فى الدنيا وفى الآخرة .

وها هو ذا نموذج من السلف الصالح إنه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لقد قال له مسلمة بن عبد الله ـ عند مرض موته ـ يا عمر لقد تركت أولئك لا شىء عندهم فيصبحون فقراء وما كان هذا يقع منك يا عمر . فرّد عليه قائلا : والله

---

(١) سورة آل عمران (١٤ـ١٥) . (٢) رواه البخارى .

(٣) سورة الإسراء (٢٩) .

ما منعتهم حقا هو لهم ، فَبِنَيَّ أحدُ رجلين . . إما رجلٌ يتقى الله فسيجعل الله له من كل ضيق مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . وإما رجلُ مكبٌّ على المعاصى فإنى لم أكن أقويه على معصية الله » إن الإسلام دعوة إلهية لسعادة البشر دنيا وآخرة ، وفي قوانينه الرشيدة أمانٌ للنفس والمال والعِرض ، وفى ظل تعاليمه السمحة المضيئة تشرق حياةُ الناس بالخير والرشد والحق والسعادة والله هو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

من ركـــائز التمكـــين فى الأرض

إن رسالة الإنسان على ظهر هذا الكوكب ليست شيئا هينا ويسيرا ولكنها استخلاف فى الحياة وقيام بمهام لها أصول ثابتة ومحكومة بقانون إلهى عادل : لا يُستخلف فى الأرض إلا من كان صادق الإيمان مخلصا فى عقيدته ، جاداً فى عمل الصالحات على هدى ونور كما قال الله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض** ﴾ .

ويوضح القرآن الكريم ركائز التمكين فى الأرض فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ . .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الربيع الزهرانى حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهشام وعن محمد قال : قال عثمان بن عفان . . فينا نزلت : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله ، ثم مكنا فى الأرض فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ، فهى لى ولأصحابى . وقال أبو العالية : هم أصحاب محمد ﷺ ، وقال عمر بن عبد العزيز ، ألا أنها ليست على الوالى وحده ولكنها على الوالى والمولى عليه « ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم وبما للوالى عليكم منه إن لكم على الوالى من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم وأن يأخذ لبعضكم من بعض وأن يهديكم للتى هى أقوم ما استطاع ، وأن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزورة ولا المستكره بها ولا المخالف سرُّها علانيتها [1] ، ا هـ .

إن ركائز هذا التمكين إنما تكون بتوثيق الصلة بين الخلق وخالقهم ، وإقامة الصلة الدائمة بينهم وبين الله تبارك وتعالى فى كل يوم خمس مرات بأداء الصلاة التى هى عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين . . وبالصلاة تنتفى الفحشاء ويختفى المنكر عن الإنسان ، ويصبح نقى السلوك والمسيرة .

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فإذا اختفت المعصية من المجتمع وتعالت نداءات الحق ودوت كلمة التوحيد بين أرجاء البلاد . وأصبحت أصوات المآذن متلاقية على

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٦ .

كلمة الحق « الله أكبر » وتجَمَّع الناس حول هذا الشعار فلا شك أنهم بهذا يتوحدون ويتجمعون على الخير ويصبحون يداً واحدة لا تخاف عدواً ، ولا ترهب بأساً ولا تخشى فى الحق لومة لائم .

ثم من ركائز هذا التمكين إيتاء الزكاة وفى إيتائها تطهير المال من حق الفقير الذى وجب فيه وتطهير لنفس الغنى من آفة الشح ورذيلة البخل ، وتطهير لنفس الفقير من الحقد والكراهية ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ .

وحقيقة كل من الصلاة والزكاة كعنوان لصلة العبد بربه فى القيام بما وجب على المسلم من الفرائض وعنوان على صلته بالمجتمع الإسلامى تكافلا وتضامنا .

وفى هاتين الفريضتين عنوان للطاعة لله سبحانه وتعالى والإصلاح فى المجتمع والبعد عن الرذائل ومحاولة إزاحة كل فساد فيه ، وربط الإنسان بربه فى صلة دائمة مستمرة لا تنقطع فى كل يوم وليلة ، وصلة دائمة مستمرة لا تنقطع كلما أفاء الله على عباده من خير ورزق ، ثم من ركائز التمكين أيضا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قال الله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** [1] ﴾

ويبرز القرآن الكريم حقيقة هذه الأمة ومكانتها فى الإسلام كخير أمة أخرجت للناس وأنها لم تؤت هذه الخيرية إلا لتمسكها بدينها ، ولحملها راية التوحيد فى الأرض وبقية الإيمان فيها دعوة بالخير والحق وتثبيتا لأصول الإيمان الصحيح بالله الواحد الأحد أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وإقامة للدين وحراسةً لحدوده وذودا عن حماه . قال سبحانه : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** [2] ﴾ .

وقد توعّد الله تعالى الذين يتخلون عن إقامة دينه ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، فقال سبحانه : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** [3] ﴾

---

(١) سورة آل عمران (١٠٤ - ١٠٧) . (٢) صورة آل عمران (١١٠) .

(٣) سورة طه (١٢٤ - ١٢٦) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . ثم قال : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيرا منهم يتَوَلَّون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أنْ سَخطَ الله عليهم وفى العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون** ﴾ ، ثم قال : « كلا والله لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ـ (أى لتعطفنه على الحق) ـ ولتقسرنه على الحق قسرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم [1] » .

وقد بين الله تعالى : أن ظهور الفساد واستشراءه وانقطاع الخير عن العباد بسبب ما اكتسبته أيديهم ، قال سبحانه : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس** [2] ﴾ .

فما يحدث من القحط وقلة الزرع والضرع والنبات والخيرات . وشدة الحاجة بين الناس بسبب ما اقترفوه من المعاصى . . وفى ترك الشر والمعصية ومقاومة الأشرار والأخذ على أيدى العصاة إصلاح للمجتمع ، فى كل هذا مع الطاعة والإقبال على الله زيادة فى الخير والرزق . وما كان سببا فى ترك المعاصى ، وكف الناس عن الجرائم والشرور كاقامة الحدود وتطبيق الشريعة الإسلامية وتنفيذ أحكام الدين ، هو فى الحقيقة خير يعود على البلاد والعباد .

يقول الرسول ﷺ : « لَحَدٌّ يقام فى الأرض أحب إلى أهلها من أن يُمطروا أربعين صباحا » وهذا الذى يحدث ، ما الذى يترتب عليه ؟

يقول الله تعالى : ﴿ **ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ فهو جزاء على ما صنعوا وما ارتكبوا وهو ابتلاء من الله تعالى لهم . إنه ابتلاء فى الأموال والأنفس والثمرات لعلهم يهتدون ويرجعون عن المعاصى . وقد وجه القرآن الكريم أنظار الناس إلى السير فى الأرض والنظر فيها بعين الاعتبار ليعرفوا ماذا حدث للذين من قبلهم ، ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين** ﴾ وهذا الذى حل

---

(١) رواه الترمذى وأبو داود . (٢) سورة الروم (٤١) .

بهم من هلاك وابتلاء حتى كانت بيوتهم خاوية كان ذلك بسبب تكذيبهم وكفرهم بالنعم التى أنعم الله بها عليهم .

وإذا كان ربط الصلة بالله على أساس متين ، وربط الصلة بالمجتمع ، والدعوة إلى الخير من ركائز التمكين فى الأرض . . فإن هناك أسسا أخرى لا تقوم سعادة الفرد أو الجماعة ، ولا الذكر ولا الانثى ولا الأسرة أو البيئة أو المجتمع أو الأمة إلا على أساسها .

وقد حددها القرآن الكريم وجعل منها نظاما إلهيا يربط به سعادة الفرد والجماعة قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

وهكذا نرى أن الله تعالى يوفر لعباده أسباب الحياة الطيبة وهى السعادة والاستقرار والأمن والتمكين هذا فى الدنيا . . وأما فى الآخرة ، فإن لهم جزاء وافرا على ما كانوا عليه من إيمان واستقامة ، وهذا الجزاء ليس مقدار ما كانوا يعملون ولا أوسط ما كانوا يعملون ولا أدنى ما كانوا يعملون ، وإنما هو جزاء ﴿ **بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ ومن أهم أسباب السعادة والتمكين ما تحدث عنه القرآن فى قول الله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى * وما يغنى عنه ماله إذا تردى** [1] ﴾ .

وهكذا نرى كيف سعى الناس فى الحياة ، فمنهم من يتجه إلى ما فيه الخير فيزداد بالخير والحسنى ، ومنهم من يتجه إلى غير الخير فيتردى فى العسرى ، ويؤكد القرآن الكريم الوعد الحق بالحياة الطيبة وبالسعادة والتمكين ، وبالرغد فى العيش لمن استقاموا على الجادة وساروا على هدى الله ونوره بأنَّ الله سبحانه يزيل عنهم كل أزمة أو ضائقة ، ويدفع عنهم كل بلاء أو كارثة ويأتيهم بالرزق من كل مكان . وينزل عليهم بركات من السماء والأرض . قال سبحانه : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** [2] ﴾ . وتكشف السنة الشريفة مع كتاب الله تعالى عن أسباب الكوارث والضائقة المالية أو الضائقة النفسية ، وما يصيب الإنسان . وأن لذلك سبباً مباشرا وهو : عصيان الله ، وعدم الاستقامة على منهج الحق وذلك بارتكاب الذنوب ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، (والذى نفس محمد بيده ما من خَدْش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر) . [3] ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة**

---

(١) سورة الليل (٥ ـ ١١) . (٢) سورة الطلاق (٢ ، ٣) .
(٣) رواه ابن أبى حاتم ، وذكر ابن كثير فى تفسيره .

فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير [٤] ﴾. وتتفاوت الكوارث تبعا للذنوب وكثرتها. وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الحالات التى ينتشر فيها الذنب ويتكرر حتى تحيط الخطيئة بالقلب عندما تسلم كل معصية إلى أخرى، قال الله تعالى: ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾.

ويقول الله تعالى: ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾. وقد ضرب الله الأمثلة فى القرآن الكريم بتلك الأمم التى ظلمت وكفرت، فذهبت وزالت وأصبحت أثرا بعد عين، وذلك بما ظلموا وبما جحدوا وكفروا وظلموا أنفسهم بأيديهم وما ربك بظلام للعبيد..

فنبه كل الظالمين بهذه العبرة ليكون لهم فى ذلك ما يوضح لهم حقيقة الأمر فى الحياة وأن الله لا يغفل عما يعمل الظالمون..

قال تعالى: ﴿ **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال** [١] ﴾.

وبالجملة فإن القرآن الكريم يركز كل أسباب السعادة والتمكين والنصر والاستقرار فى الحكم بما أنزل الله، وأن من لم يطبق شريعة الله فهم الظالمون والفاسقون والكافرون.

﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾. ﴿ **ومن لم يحكم به أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾. ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾.

ويقول سبحانه: ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾..

* * *

(٤) سورة الشورى (٣٠).

(١) سورة إبراهيم (٤٢ - ٤٥).

إلى منهج الإصلاح من أقرب طريق

فى فترة ما قبل الرسالة تفشى الظلم والاستعلاء والبغى والتسلط ، وتواثبت ذئاب البشر فتسلط القوى على الضعيف واستعلى الغنى على الفقير وانتشرت الفوضى الأخلاقية بصورة مزرية لا تطاق . . كانت موازين الحياة فى خلل فاستشرى الفساد فى كل ناحية : فى جانب العقيدة ، وفى جانب السلوك والأخلاق وفى الجانب الاجتماعى والاقتصادى .

لقد كانت الحياة آنئذ تطفح بمثالب لا حَدّ لها وكانت المجتمعات تعجُّ بكل جور وعسف وضياع . . فالبنت موءودة واليتيم مهضوم الحق ، والفقير منبوذ والضعيف مهيض الجناح والمظلوم لا حيلة له ، والربا منتشر والفحشاء سائدة ، وهكذا فى كل مجال وفى كل قطاع من قطاعات الحياة فى الفرد وفى الأسرة وفى المجتمع وفى الأمة .

وما أن أشرقت شمس الإسلام على هذا الليل الجاثم إلا ونفضت عنه كابوس الشرك الرهيب وجاءت الدعوة الإلهية على يدخاتم الأنبياء والمرسلين تحمل راية التوحيد لينضوى تحتها الناس جميعا مؤمنين بإله واحد لا شريك له . وبدأت أولى مراحل الإصلاح فى جانب العقيدة لتقيم حياة جديدة راسخة الأساس قوية الدعائم . وعلى هذا الأساس المتين وهو التوحيد حررت الدعوة الإسلامية العقل البشرى من إسار الشرك والوثنية والتقليد والتبعية ودعت الناس إلى إله واحد قوى مقتدر بيده مقاليد السموات والأرض وهو على كل شىء قدير . وعلى هذا الأساس قامت دعوتها الإصلاحية تقيم ما كان معوجا وتصلح ما كان فاسدا ، وتخرج الناس من الظلمات إلى النور . وفى تلك الفترة المكية عُنى القرآن بالعقيدة كأساس لبناء الدعوة وأساس لعبادة الله ، ولسائر وجوه الإصلاح ، فدعا الرسول ﷺ الناس جميعا إلى توحيد الله رب العالمين . ولم يشأ الحق تبارك وتعالى أن يُنزل على رسوله صلوات الله وسلامه عليه من التشريعات والأحكام الكثيرة وغير ذلك من الأمور فى بادىء الأمر وفى تلك الفترة إذ ليس للمسلمين حياة مستقلة قوية وهم فى حاجة إلى تثبيت العقيدة فى هذه الفترة ، وهكذا كانت دعوة الرسول ﷺ بادىء ذى بدء لا تتصل بناحية اجتماعية ولا اقتصادية ولا غير ذلك من المجالات الأخرى ، وإنما كانت أولا وقبل كل شىء دعوة للتوحيد وتثبيت العقيدة . فإذا ما تمَّت الدعوة إلى العقيدة وأمِنَ الناس تَلَقَّوا بعد ذلك وجوه الإصلاح الأخرى وتلقوا أوامر ربهم وأحكامه فيما يتصل بسائر نواحى الحياة الاجتماعية

والاقتصادية وغيرها . . ثم إن وازع العقيدة الثابتة فى قلب المؤمن يظهر واضحا فى فعل ما يأمر الله به والانتهاء عما نهى عنه ، دون توقف ودون محاولة للتهرب منه .

ولوازع العقيدة أثره البالغ فى الإصلاح وفى التوجيه إلى كل ما فيه الخير وفى إقلاع الناس عن كل العادات السيئة والرذائل القبيحة . لقد استجابوا ـ بدافع العقيدة ـ لدعوة الإسلام وإصلاحه وتوجيه الرسول ﷺ ، حين نهاهم عن معاقرة الخمر فانتهوا عنها وعن الميسر فتركوه وعن الأنصاب والأزلام والربا والفواحش وغير ذلك من سائر وجوه الفساد الذى استشرى فى الحياة وكاد أن يتفاقم خطره ولا يُبقى ولا يذر فى الحياة شيئا . لقد استجابوا مسرعين لأن وازع العقيدة وهو الأساس كان متينا وثابتا ، وقد عرفوا وأيقنوا وآمنوا بالله الواحد القادر على كل شىء فلابد أن يكون ما يدعوهم إلى فعله هو الحق والخير ، وأنّ ما ينهاهم عنه هو الباطل والشر فكانوا أسرع ما يكون استجابة لما يدعوهم إليه ، لقد جاء الإسلام بدعوة الإصلاح الشاملة العامة الخالدة .

وبعد تثبيت العقيدة كأساس قويم لبناء الإصلاح تتابعت نداءات البناء الإسلامى ووصايا الحق والعدل والإحسان . يقول الله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون * وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾[1].

لقد حمل التوجيه الإسلامى لهذه الدعوة نور الحق والعدل ليقوم المسلمون بالتبعة الكبيرة الملقاة على عاتقهم وأن يؤدوا الأمانة على أكمل وجه .

إن مسئوليتهم فى إقامة العدل مسئولية ضخمة عليهم أن يقيموا العدل ولا يخافوا فى الحق لومة لائم مهما كانت الأحوال ، ولو كان ذلك على أنفسهم فعليهم أن يُقروا بالحق وألا يكتموه ولو كان على الوالدين والأقربين وألا يميلوا فى إقامة العدل والشهادة وألا ينحرفوا عن وجه الحق لسبب من الأسباب فلا ينحرف بالحق من أجل غنى إنسان ولا يشفق على آخر لفقره ، فالحق هو الحق لا يتغير بحال من الأحوال والله تعالى يعلم السر وأخفى . وأعلم بما يصلح الجميع فقال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعلمون خبيرا * يا أيها الذين آمنوا**

---

(١) سورة النحل (٩٠ ـ ٩٢)

آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزَّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً [1] ﴾ .

وهدد القرآن أولئك الذين ينقضون عهد الله ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويحاولون الإفساد فى الأرض فقال تعالى : **﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار [2] ﴾** .

وحين يستشرى الفساد فى مجتمع من المجتمعات . ولا تكون هناك مناهضة إصلاحية له فإن القانون الإلهى واضح كل الوضوح ، فيما يترتب عليه من نتائج ، وإن من عدل الله فى حكمه ، أنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب فسادأو ظهور معصية .

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال [3] ﴾ .

وفيما رواه ابن أبى حاتم قال : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حوّل ما يحبون إلى ما يكرهون ثم قال : إن تصديق ذلك فى كتاب الله **﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾** .

ويؤكد الإسلام على حقيقة هامة من حقائق الإصلاح فى الأرض وهى موالاة المؤمنين بعضهم مع بعض ، وحبهم لبعض ، وإخلاصهم وتعاونهم فى كل خير وإصلاح يعود بالنفع على الجماعة . . وبعدم موالاة أعداء الإسلام من أهل الشرك والفساد لأنهم أولياء بعض . فإن لم يجتنب المسلمون أعداءهم تَحِلَّ الفتنة والفساد الكبير **﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنةٌ فى الأرض وفساد كبير [4] ﴾** .

ومنهج الإصلاح فى الإسلام استوفى جميع جوانب الحياة وكل ميادين العمل والنشاط الإنسانى ، وليس بحاجة لتلك النظريات المستحدثة أو النظم الوافدة التى يزعم أصحابها والمتعصبون لها بأننا فى حاجة إليها فى الجانب الاقتصادى مثلا أو غيره ، ففى الكتاب والسنة كل ما تحتاجه الحياة من إصلاح فى كل المجالات ، يقول الأستاذ محمود العقاد رحمه الله : « إنما أقام الإسلام قواعد الاقتصاد التى يقام عليها كل نظام صالح . . فقرر أن يمنع الاحتكار وكنز الأموال وقرر أن يمنع الاستغلال بغير عمل وقرر أن يتداول المجتمع الثروة

---

(١) سورة النساء (١٣٥ ، ١٣٦) .
(٢) سورة الرعد (٢٥) .
(٣) سورة الرعد (١١) .
(٤) سورة الأنفال (٧٣) .

ولا تكون دولة بين الأغنياء ، وقرر أن تكون للضعفاء والمحرومين حصة سنوية لا تقل عن جزء من أربعين جزءا من ثروة الأمة كلها ، وقد تزيد عليها بأمر الإمام وإحسان المحسنين . . ولا خوف على مجتمع قط يمتنع فيه الاحتكار والاستغلال وإهمال العاجزين [1] » . .

ومما سبق يتضح أن منهج الإصلاح فى الإسلام شمل جميع جوانب الحياة وسائر أنواع النشاط الإنسانى اقتصاديا واجتماعيا ، وأنه لا حاجة لاستيراد أنظمة أخرى ولا لإقامة قوانين وضعية ، هى من صنع العقل البشرى العاجز ، غير المعصوم الذى يأخذ بها اليوم ويعدل عنها غدا ، ويرى الخير فى أمر ثم يتبين له عكسه وهكذا . وما ذلك إلا لأنه صنع بشرى قابل للخطأ والصواب وللجهل والنسيان . . أما القوانين الإلهية المحكمة فهى من لدن حكيم خبير يعلم السر وأخفى وفيها سعادة البشرية وأمانها ونهوضها وعزتها .

فما أحوج الإنسانية اليوم وهى فى دورانها المضنى وشقائها المتضاعف أن تعود إلى الإسلام وأحكامه وقوانينه العاملة وأولى لها ثم أولى أن تعود إلى الإصلاح من أقرب طريق وأن توفر على أنفسها وعلى الحياة عناء هذه الرحلة المضنية التى قطعت أشواطها منذ زمن ممعن فى البعد . كلها فى طرق مسدودة . أولى لها أن تعود إلى الإصلاح من أقرب طريق وهو طريق الإسلام ، وأن تنأى بنفسها عن الضياع الذى مَزَّق حياتها ودوَّخ أجيالها واستنفد أنفاسها اللاهثة فى غير جدوى ، ولتنظر إلى بلاد الإسلام التى حملت راية الله فى الأرض واتخذت الإسلام قاعدة للإصلاح كيف شاع فيها الأمن والرخاء والاستقرار والطمأنينة ولتنظر إلى خطى السلف الصالح وما حققوه من إصلاح للحياة فعاشوا حياة آمنة ورُخاء وليقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون * إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ .

* * *

---

(١) الفلسفة القرآنية للأستاذ عباس العقاد .

أصـــول الأخـــلاق فى الإســـــلام

القـرآن الكريم كله دعوة إلى معالم الحق والخير فى الدنيا والآخرة . وفيه تصحيح وتوجيه لعلاقة الخلق بخالقهم وعلاقة الخلق بعضهم مع بعض ، وفيه الهداية الكاملة إلى أقوم طريق﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** [1] ﴾وقد بين الله تعالى أن الرحمة فى اتباعه والاعتصـام به ، وأن فى البعـد عن هداه وعدم الاعتصام بحبله بعداً عن حقيقة الدين وجوهره ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لستَ منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يعملون** ﴾ ، ومن أجل أن تظل كلمة الحق هى العليا وحتى لا تتفرق الأمم على مر الأحقاب والعصور كانت الوصايا القرآنية تتضمن أسباب الأمن والاستقرار وتحتوى على أصـول السعـادة الكـاملة ، وتلك الـوصـايا تمثل بحق أمهات الفضائل ، وأصول الأخلاق ، فلم يبعث رسول من الرسل إلا وحملها إلى أمته ، ولم ينزل كتاب من السماء إلا وتضمنت نصوصه الدعوة إليها . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نُكلِّف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطى مستقيمـا فاتبعـوه ولا تتبعـوا السبـل فتفـرق بكم عن سبيله ذلكم وصـاكم به لعلكم تتقـون** [2] ﴾. فـوضحت الآية الكريمة ما أحله الله وما حرّمه مما يتعلق بالاعتقاد والتشريع والأخلاق أو القول والعمل وجاء ذلك إثر إفحام المشركين وردّ ما افتروه فجاءت الآيات بوصاياها لتُحرّر العقول من الشرك فى العقيدة والشرك فى القول والعمل وتُطلقها من إسار الوثنية المظلمة إلى الإيمان بالله رب العالمين ، وحتى يكون السلوك العملى على أساس من العقيدة الصحيحة ، وحتى يكون الدين كله لله . وتنقسم هذه الوصايا إلى قسمين : قسم يتصل بعلاقة الخلق بخالقهم وقسم يتصل بعلاقة الخلق بعضهم مع بعض . فأما القسم الأول الـذى يتصـل بعـلاقـة الخلق بخـالقهم فيقـوم على الأصـل الأول فى الدين وهو

---

(١) سورة الإسراء (٩) .　　　(٢) سورة الأنعام (١٥١ ـ ١٥٣) .

« التوحيد » وذلك فى قول الله تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا** ﴾ .

وأما القسم الثانى فهو ما يتصل بعلاقة الخلق بعضهم مع بعض فى القول وفى العمل .

فأما بالنسبة إلى جانب « العمل » فمنه ما يتصل بالوالدين والبر بهما ومنه ما يتصل بالأبناء ومنه ما يتصل بحرمة النفس الإنسانية ومنه ما يتصل بالمال .

وأما بالنسبة إلى جانب « القول » ففى قوله تعالى : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا** ﴾ ثم ختم هذه الوصايا كلَّها بتوحيد القلوب وجمعها حول دين الله والتمسك بكتابه والاعتصام بحبله . فيقول سبحانه : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ . وقد دعت الوصايا القرآنية الحكيمة إلى بناء اقتصادى سليم وحياة اجتماعية مثالية لا تصدع فيها من أثر الخيانة ولا احتكار فيها من أثر الجشع وشح النفس ، وإنما هى معاملة تظللها الأمانة والعدل ، والعدل من أهم أسس المجتمع الإسلامى وبدونه تصبح الحياة فوضى لا استقرار ولا أمان فيها ، وفى نهاية المطاف لهذه الوصايا إشارة إلى جميع ما ذكر وتركيزٌ لشريعة الله ، ما يتعلق منها بالأمر والنهى وتوجيه الاعتصام بحبل الله حتى لا تدبَّ الفرقة بينهم .

وفى هذا النسق القرآنى الحكيم نُشاهد بلاغة القرآن الكريم وإعجازه وهو يُطلعنا على سُلّم الهداية الإلهية تدرُّجا بالإنسان من العلم والمعرفة عن طريق العقل والبحث إلى درجة أسمى هى « التذكر والتدبر » إلى درجة أعلى هى « التقوى » فالإنسان إذا عقل تفكر ثم تذكر أى اتعظ ، فاتقى محارمَ الله سبحانه وتعالى .

تلك هى الأصول الحقيقية للأخلاق الإسلامية التى بَنَى عليها الإسلام أخلاقه الكريمة وخلاله العظيمة ، والتى بدونها لا تستقيم الأخلاق ولا تستمر حيث إنها تكون قائمةً على غير أسس ولا أصول ، وأن الإسلام هو دين الأخلاق العالية يُربى أتباعه على أنبل الفضائل وأعظم الخلال ويُكوّن منهم مجتمعا فاضلا وأمة كريمة هى بحق خير أمة أخرجت للناس .

* *

الطيبـــات مـن الـــرزق

تَداركت رحمةُ الله عباده المؤمنين ، فأحل لهم من الطيبات ما فيه صلاحهم ، لتستقيم أمـور معاشهم وليتوجهوا له وحده بالشكر على النعم التى لا تُحصى ، ولقد أمر سبحانه بالأكل من الطيبات التى ساقها لعباده ، رزقا حلالا من لدنه وحرم عليهم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغير الله به ﴿ **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم** ﴾ . .

فى الآيات السابقة لهاتين الآيتين وجه القرآن الكريم دعوته للناس جميعا أن يستمتعوا بما فى الأرض من الحلال الطيب ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان إلا أن جماعة من هؤلاء لم يستمعـوا إلى دعوة الله ولم يهتدوا بهديه وإنما اتبعوا ما وجدوا آباءهم عليه من تمييز بين الطيب والخبيث والحلال والحرام ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس كلو مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين*إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون * وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون * ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون** [1] ﴾ .

بعد ما وجه الدعوة السابقة إلى الناس عامة وجه الدعوة إلى المؤمنين وحدهم وقد ناداهم بالوصف القائم فيهم وهو وصف الإيمان الذى يقتضى أن يستجيب له المؤمن وأن يكون مهتديا بهدى الله بعيداً عما حرم الله . وأن يتنبه المؤمن بعد بيان ما سبق فلا يلتفت إلى ما كان عليه أولئـك العـاصون الحمقى الذين أحلَّ الله لهم خيرات الأرض وطيباتها ولكنهم أحلُّوا بعضهـا ، وحـرمـوا بعضها وهنا جاء الأمر بأكل الطيبات بعد بيان أحوال أولئك ، ليأكل المؤمنون من طيبات ما أحلّ الله ولا يضيقوا على أنفسهم كما ضيق أولئك . وأن هذا الأمـر الذى أمر الله تعالى به المؤمنين من الأكل من الطيبات ، قد أمر به أيضا المرسلين عليهم السلام ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعـالى طيب لا يقبـل إلا طيبا وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعـالى : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها**

---

(١) سورة البقرة (١٦٨-١٧١) .

الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب . ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذّى بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك . والطيبات هى التى يستلذ بها الناس ويستطيبونها من الحلال ، يقول الرازى فى تفسيره ، الطيبُ فى الأصل هو ما يستلذ به ويستطاب ويوصف به الطاهر والحلال على وجه التنبيه لأن النجس تكرهه النفس فلا تستلذه والحرام غير مستلذ لأن الشرع زجر عنه وفى بيان الرسول ﷺ أن الله وجه الأمر إلى رسله كما وجهه للمؤمنين بالأكل من الطيبات أو فى هذا البيان ما يشير إلى أهمية الحرص على الطيبات وأنه أمر من الأهمية بمكان بحيث يجب على المؤمنين أن يحرصوا عليه غاية الحرص ، ولذا فإن الأمر به جاء أولاً قبل الأمر بعمل الصالحات ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ﴾ .

وأن المال الطيب والأكل من الحلال يكون سببا للعمل الطيب وقبوله عند الله تعالى . والمال الحرام والأكل منه يورث العمل الخبيث ولا يقبل لصاحبه عمل ما . وقد روى أن سعد بن أبى وقاص قال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال النبى ﷺ : يا سعد أطيب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل الله منه عملا أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت [1] فالنار أولى به . بل إنه لو تقرب إلى الله أو تصدق بالمال الحرام فإنه لا يقبل من صاحبه ، ففى الحديث : « من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحمه أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله ، جمع ذلك جميعا ثم قذف به فى نار جهنم » . . وقال ﷺ : « لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » . وفى قوله : « واشكروا لله » التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة ، ولو جاء الحديث على الأسلوب الأول فى المتكلم لقال : « واشكرونى » ولكنه جاء كذلك ليصرح باسم الله لتربية المهابة وشكراً لله على نعمه على عباده التى أمر بها الله فى قوله : ﴿ واشكروا لله ﴾ ، وقوله : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون * لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ، وفيما رواه أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى على العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » ، وفى قوله تعالى : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ بيان من الله سبحانه بأنَّ شُكْر الله عبادةٌ فإن الله يعلمُ أنهم يعبدونه وهم بالفعل يعبدونه فبين بقوله : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أنَّ شكر الله صاحب الفضل والإنعام على نعمه ورزقه وإباحة الطيبات من أهمِّ وسائل العبادة . كما أنَّ هذه العبارة كما يقول الألوسى بمنزلة التعليل لطلب الشكر كأنه قيل : واشكروا له لأنكم تخصونه بالعبادة وتخصيصكم إياه بالعبادة يدل على أنكم

(١) أى حرام .

تريدون عبادةً كاملةً تليق بكبريائه وهى لا تقدم إلا بالشكر لأنه من أجل العبادات ، ولذا جُعل نصفَ الإيمان ، وورد من حديث أبى الدرداء مرفوعا يقول الله تعالى : « **إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم أخلق ويُعبد غيرى وأرزق ويُشكر غيرى** » وبعد أن ذكر الطيبات وأمر بالأكل منها بين أنواعا من الحرام فقال : إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ به لغير الله ، وقد جاء التعبير هنا بصيغة القصر التى تفيد حصر الحرمة فى الأمور المذكورة مع العلم بأن هناك أمورا محرمة أخرى ، وذلك لرد اعتقادهم أن هذه الأشياء حلالٌ وهو ردٌ بأبلغ وجه وأقوى صورة مؤكدة ، فالحصر مقيد بما اعتقدوه حلالا بقرينه أنهم كانوا يستحلون ما ذكر .

وهذه الأمور المحرمة منها ما كان تحريمه لعلة فيه ، وسَبَب منعَ حِلَّه . ومنها ما كان تحريمه لغير علة فيه بل بسبب التوجه به لغير الله فأما النوع الأولَ وهو ما كان التحريم فيه بسبب علة فيه فالميتة والدمُ ولحمُ الخنزير ومعروف أن الميتة والدَم تأباهما النفوسُ السليمة واستثنى من الميتة السمك والجرادَ للحديث الذى أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : أُحلّت لنا ميتتان ودمان السمكُ والجراد والكبدُ والطحالُ . وقد ألحق بالميتة أيضا ما قُطع من حى للحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى وحسّنه قال رسول الله ﷺ ما قطع عن البهيمة وهى حية فهى ميتة . والدم وقيد فى سورة الأنعام بالمسفوح وخصَّ لحمَ الخنزير مع أن سائر جنسه حرام لأن معظَم ما يؤكل من الحيوان هو اللحم وباقى أجزائه تابعة له وليدل أيضا على أن الخنزير حرام سواء ذُكِى أو لم يُذَكَّ هذا وقد اكتشف العلم الحديث أن بالخنزير بعض الديدان الشديدة الخطورة ، وقد سبق القرآن العلم الحديث إذ حَرم الخنزير فى أوائل القرن الهجرى الأول ، وأن شريعةً لها هذا السبق لجديرةٌ بالثقة بها وتحريم ما حرَمته وتحليل ما حلَّلته ، وأما النوع الثانى وهو ما كان محرما بسبب التوجه به لغير الله وهذا سبب روحى يجُافى سلامة العقيدة والاتجاه الواحد وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **وما أُهِلَّ لغير الله** ﴾ ، ومع هذا فإنَّ شريعة الإسلام عُرفت باليُسر والسماحة ، فجعلت الضرورات تبيح المحظورات ، فأحلّت لمن اضطر لهذه المحرمات أن يأكل منها بالقدر الذى تنتفى معه الضرورة دون أن يتجاوزها أو يتعدَّى حدودها فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه . فالدين يسر لا عسر قال تعالى : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ ولذا ختم الآية بقوله : ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ .

ومن رحمته فى تناول هذه الأمور وقت الضرورة وهذه الأمور كانت محرمة فى التوراة إلا أن اليهود كتموا الآيات الدالة على تحريم بعضها رغبةً منهم فى كسب مادى هو فى زعمهم كثير ولكنه عند الله قليل ، ولذا عقبت الآياتُ على ما سبق ببيان أنهم صائرون إلى النار

وكان ما يأكلونه ناراً فى بطونهم قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطوهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ .

وبهذا يتبين لنا حرص الإسلام على سلامة النفس وسلامة العقيدة فسلامة النفس تتضح بتحريم ما يضر بصحة الإنسان من أكل الخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير وسلامة العقيدة بتحريم الذبح الذى لا يذكر عليه اسم الله حتى تظل العقيدة فى نفوس أصحابها نقيةً لا تشوبها شائبة شرك قال تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ .

ســـلامة الغـــاية والوســيلة

معالم الحق محددة ، وموازين الحل والحرمة واضحة ، يُدرك هذا كلٌّ ذى عقل ، وكما جاء فى الحديث « الحلال بين والحرام بين » . .

ولقد شرع الله تعالى العبادات والطاعات وجعل لها أساسا لقبولها وصحتها والمثوبة عليهـا هى « النية » ، ولكن النية محلهـا القلب . أى لا يطّلعُ عليهـا إلاَّ علامُ الغيوب سبحانه وتعالى الذى يعلم السر وأخفى .

ومن هنا كان الناس أحد رجلين رجل تُوافق علانيته سرَّه ، وآخر تخالفُ علانيته سرَّه ، إلا أنهما فى كثير من الأحوال يتفقان فى ظاهر الأعمال ، ولكنهما فى الحقيقة جد مختلفين وبينهما عند الله فارق كبير .

فأما الأول وهو الذى اتفق سرّه مع عـلانيته فقد وَثِق بأنَّ ربَّه يراه ، ويعلم خائنة الأعـين ومـا تخفى الصـدور ، ومـا دام كذلـك فمخـالفـة السرّ لا تُبعـده ولا تجنبـه من المؤاخذة . . إنه يوقن أن جزاء العمل بنيته إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وأن الناس يُبعَثون على نياتهم ، وأن النية إن خفيت على الخلق فلا تخفى على الخالق لأنه يعلم ما تبدون وما تكتمون .

وبحسب النية يصح العمل أو لا يصح ، ويكمل أو ينقص ، وبحسب النية يجازى عليه احسانا ، أو يؤاخذ عليه عقابا . كما فى الحديث : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » . والإنسان المسلم الذى يدرك هذه الحقيقة يصدر فى كل أعماله عن نية صادقة لله رب العالمين ، فى سائر عباداته ومعاملاته وسلوكه وأخلاقه حتى فى أعماله المباحة وحتى فى أفعاله وسلوكه العادى . . وهو بهذا يحظى بمثوبة وافرة وأجر كريم ، وما يأتيه من المبـاحات ومن الأفعال العادية بنيته الصادقة المخلصة لله تعالى والتى تمحضت للخير ، تصبح الأمور العادية والأعمال المباحة طاعات يثاب عليها ويؤجر .

فإذا نهض للحياة يعمل ويدأب ويسعى ويكسب ، ويطلب الدنيا دون أن يشغله ذلـك عن الأخـرى ، ويجمع المال الحلال مؤديا حقوقه المشروعة وما يجب عليه فيه متبعا السبل المشروعة الحلال فى كسبه ، والطرق المشروعة الخيرة فى إنفاقه ، إنه يطلبه ليعف عن

المسألة ، ويعلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى ويطلبه سعيا على أهله وأبنائه وأرحامه وعطفا واحسانا إلى الفقراء والمساكين والبائسين والمحتاجين ، والجيران وأهل الحقوق ، وفى الحديث : ومن طلب الدنيا حلالا ، تعففا عن المسألة، وسعيا على عياله وتعطفا على جاره ، لقى الله وجهه كالقمر ليلة البدر [1] .

وإذا أتى شهوته قصدا لإعفاف نفسه وزوجه وابتغاء الولد كان ذلك صدقة يؤجر عليها بحسب نيته ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « وفى بضع أحدكم صدقة ، قالوا : أيأتى أحدنا شهوته يا رسول الله ويكون له فيها أجر ؟ قال : أليس إن وضعها فى حرام كان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له فيها أجر [2] » .

هذا هو الرجل الأول الذى وافقت نيته الخيرة سلوكه الخير .

وأما الآخر : وهو الذى خالفت سريرته علانيته فقد يأتى بعض الطاعات ، ويقوم بأداء بعض العبادات ، ومع هذا فلا ينال من المثوبة ما ينال الأول : وليس له من صحة العمل وكماله نصيبٌ لأن نيته لم تكن خالصةً لله تعالى : فإذا أدى صلاته ـ وهى عبادةٌ ـ رِيَاءَ الناس ـ فليس فقط أنه محروم من الثواب بل الويل له كما قال تعالى ﴿ **فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾ .

وكذلك الزكاة والحج والصدقات وسائر الأعمال .

غير أن هناك نيةً صادقة حسنة ولكنها رغم هذا لا تجدى فتيلا ، وذلك عندما تختلف سلامة الغاية والوسيلة ففى الأمور المحَرَّمة مثلا : لو حسنت النية مهما حسنت فإنها لا تغير الحرام إلى الحلال ولا تجعل من الأمر الحرام جوازا ولا حِلًّا بحال من الأحوال .

فمثلا لو أن إنسانا ما جمع مالا كثيرا من « الربا » وعن طريق معاملاته الربوية . جمع ثروة طائلة ليقيم بها مسجدا ، أو حتى مساجد عديدة ومشاريع للخير ، وإنفاقا فى سبيل الله فهل هذه النية الحسنة والتى هى غاية سليمة تبرّر الوسيلة السيئة المحرمة التى اتبعها فى معاملاته الربوية ، وفى أفعاله المحرمة ؟ كلا كلا . . فحسن الغاية لا يبرر سوء الوسيلة ، لأن الله تعالى طيب فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان حلالا طيبا ، يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ ، وقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه الشيخان .

السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء « يا رب يا رب » ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك[1] .

وكذلك لو جمع المال من حرام فكانت وسيلته محرمة ورصدنية حسنة له « بأن ينفق منه ويتصدق مبتغيا عند الله الأجر ، فإنه لا أجر له ، وعليه إثم الحرام وإصره وله العقاب حتى ولو أنفقه كله ، لا يبارك الله فيه . ففى الحديث : من جمع مالا من حرام ، ثم تصدق به ، لم يكن فيه أجر وكان إصره عليه[2] » .

بل إن ما تركه من هذا المال يكون زاده إلى النار ففى الحديث : « لا يكسب عبد مالا حراما فيتصدق به فيقبل منه ، ولا ينفق منه فيبارك له فيه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله تعالى لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث[3] » .

ومن الأشياء التى ساءت فيها الوسيلة ، وظاهر غايتها غير ذلك ، من يشرب المسكر كالخمر مثلا بحجة الدواء ، فمع كون النية والغاية من الشرب العلاج فهى محرمة لا شك فى حرمتها ، وأما تعلل المتعللين بأن فيها علاجا أو دواء فغير صحيح فشربها للدواء حرام ، لأنه ورد النهى عن التداوى بما حرمه الله تعالى ، قال ﷺ : « إن الله أنزل الداء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تتداووا بحرام[4] » .

بل إنها لا شفاء فيها ، لأن الشفاء فى الحقيقة ـ بيد الله سبحانه وتعالى ، واتخاذ الأدوية إنما هو أخذ بالأسباب واتباع لتوجيهات الإسلام والله سبحانه وتعالى المالك للشفاء لم يجعل فيما حرم شفاء .

قال ابن مسعود فى شأن المسكر : ان الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم[5] .
فاتضح لنا أولا النهى الصريح عن التداوى بالحرام ، ثم اتضح ثانيا أن المحرم لا شفاء فيه .
وما يتضح ثالثا : فهو أن كل مسكر ليس ـ فقط ـ منهيا عن التداوى به ، وأنه لا شفاء فيه فحسب بل إن فى الحرام داء لا دواء .

فمن شرب مسكرا ليتخلص من داء ، أو ليبتغى الشفاء فإنه يقع فى الداء ويصيبه الداء بلا شك ، فعندما سأل رجل رسول الله ﷺ عن الخمر فنهاه عنها فقال الرجل : إنما أصنعها للدواء ، فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بدواء ولكنه داء[6] » .

---

(١) رواه مسلم والترمذى .
(٢) رواه الحاكم وابن خزيمة وابن حبان .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه أبو داود .
(٥) رواه البخارى معلقا .
(٦) رواه مسلم وأحمد وأبو داود .

إذن فليس لأحد أن يتعلل بحسن النية أو شرف الغاية ونقائها ، مبررا بذلك الوسيلة التى يتبعها ، والسلوك الذى يسير فيه .

فإن الإسـلام واضـح فى وسـائله وغاياته ونقى فى مبادئه وأحكامه وقوى فى اثبات الحق واحقـاقـه وفى انكـار البـاطـل وازهاقه . . وفى هذا كلّه ما ينير الطريق أمام المجتمعات الإسلامية ، لتمضى على هدى ونور وتشق طريقها إلى ربها فى أمان وهدى ، وفى إخلاص فى السر والعلانية .

حقيقة صنائع المعروف

هناك إطاران فى الحياة تدور فيهما كل عادات الناس ، وأعرافهم واعتادوا أن يسموا كُلًّا منهما بـ « فعال وصنائع » . وقد جرت عادة الناس أن يسموا كل عمل أو صنيع باسمه المعروف ، وأن يصفوه بوصفه المألوف .

بيد أن كثيرا مما يطلقون عليه ذلك ليس له من المعروف إلا اسمه وليس له فى باب الخير إلا رسمه ، وذلك لأن صاحب الفعل إما أن يكون أهلا له بأن يكون مسلما قائما بعمله ابتغاء مرضاة الله لا يريد من وراء صنيعه جزاء ولا شكورا ، وإنما يريد الجزاء من صاحب الجزاء ويخاف يوما عبوسا قمطريرا فذلك هو الاطار الأول القائم على أساس الإسلام والإخلاص .

وإما أن يكون صاحب الصنيع غير أهل له بألا يكون مسلما أو لا يبتغى من ورائه إلا ثناء الناس والمنّ بما صنع أو قدّم وذلك هو الإطار الثانى .

فأما بالنسبة للأول : فإن الإنسان المسلم ينهض فيه بصنائع المعروف التى يقدمها لصالح الجماعة الإنسانية ، ولا يعنيه أعرف المجتمع أنه الذى قام بهذا العمل أم لم يعرف ولا يهتم إذا كان الناس قد أثنوا عليه أو لم يثنوا ولا يبتغى مصلحة خاصة له أو منفعة فردية تعود عليه لأن المسلم المخلص يقوم بما يقوم به على ثقة أكيدة بأن الله تعالى لا ينظر إلى الأجسام والصور ولكن ينظر إلى القلوب .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم [1] » . .

فحقيقة صنائع المعروف لا تتحقق إلا بإخلاص العمل وأدائه ابتغاء وجه الله تعالى وحده لا شريك له ، أما من أشرك مع الله فى فعله أحدا ففعله باطل وهو على باطل وليس لله من صنائعه وأعماله شىء . .

يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه : « إن الله تبارك وتعالى يقول : (أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تعالى

(١) رواه مسلم .

لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا : هذه لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شيء [1]) » .

ووجوه الخير كثيرة وضروب صنائع المعروف لا تقع تحت حصر ولكن ما يجب التركيز عليه هو أن تكون خالصة . . ومن صنائع المعروف ما يقوم به المسلم لمصلحة غيره ونفع مجتمعه وقد لا يكون له من عمله فى الدنيا نصيب ولا منفعة فهو بعمله هذا يشارك فى عمارة الحياة فإنه لم يعش لنفسه فقط وإنما يعمل ويقدم لمصلحة مجتمعه .

روى الإمام أحمد عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رجلا مر به وهو يغرس غرسا بدمشق فقال له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ ؟ قال : لا تعجل على . . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من غرس غرسا لم يأكل منه آدمى ولا خلق من خلق الله إلا كان له به صدقة » . وفى رواية أخرى قال : « أتغرس هذا وأنت شيخ كبير وهذه لا تطعم إلا فى كذا عاما ؟ فقال : ما على أن يكون لى أجرها ويأكل منها غيرى ؟ » .

ولله در القائل : « غرس مَن قَبلنا فأكلنا ونَغْرس ليأكل مَن بعدنا » .

بل إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ليرتفع بمستوى العمل حتى يجعل منه عملا خالصا من أعمال البر بحيث يصبح غاية ذاته لا وسيلة من وسائل الكسب والمعاش فحسب يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها » . (والفسيلة) : هى ما يقطع من صغار النخلة أو يجتث من الأرض .

وأما بالنسبة للإطار الثانى الذى قد يكون داخله صنائع معروف أو أعمال بر فإن المعروف أن الكافرين لا ثواب لهم وذلك لقول الله تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾ . . فصنائعهم فى الدنيا يعمد الله سبحانه وتعالى إليها يوم القيامة فيظهر بطلانها كلية ويحبطها لأنها خالية من الإيمان الذى هو أساس الثواب فى الآخرة ، وخالية من الإخلاص القائم على أساس الإيمان بالله الواحد لا شريك له .

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن : حقيقة صنائع المعروف لا تكون إلا فى جو من الإيمان بالله والإخلاص له والبعد عن الرياء أو حب الظهور أو الثناء أو المن .

إذا علمنا ذلك ضربنا عرض الحائط بما يتطاير على بعض الألسنة فى بعض المجتمعات البشرية من تمجيد أعمال غير المسلمين ومن إثارة الدعايات التى تلمع بطلاء الخداع والمغالاة حول معاملات أعداء الإسلام .

---

(١) رواه البزار والبيهقى .

فمهما يكن فى ظاهرها الخير فإن فى باطنها الشر ، ومهما يرفع منها أولئك المغرضون فهى هابطة هشة لا أساس لها من إيمان أو خلق وإنما هى مساندة ودعاية للباطل تتوازن معها حرب أخرى على معاملات المسلمين وإثارة الشبهات حول مجتمعاتهم ولكننا نحن المسلمين أدرى بأصول ديننا وعباداتنا ومعاملاتنا والحق أحق أن يتبع .

ولكن ثمة أصول يجب أن تتبع وقواعد ينبغى أن تراعى وذلك بتأصيل قاعدة الإيمان والمضى على أساس من الإخلاص وتنقية صنائعنا من أية شائبة من الشوائب .

ولدينا من أبواب صنائع المعروف الكثير من الجهاد والإصلاح ومؤازرة الحق ونصرة المظلوم والإحسان إلى المحتاج ومعاونة الفقير وإنقاذ المستغيث ونجدة المكروب . .

ويجب أن تكون هذه الصنائع ونحن نؤديها خالصة من الرياء خالصة من آفة المَنّ بالمعروف التى يقع فريستها كثير من الناس .

ومن أولى التعاليم الإلهية التى نزل بها الوحى على رسول الله ﷺ النهى عن المن بالمعروف . . قال الله تعالى : ﴿ **الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم * يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين** [1] ﴾ . .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر » .

تلك هى حقيقة صنائع المعروف التى ينشدها الإسلام من أتباعه لقيام مجتمع يزدهر بالخير وتتضافر كل قواه لمصلحة الفرد والجماعة وخير الدنيا والآخرة يتوخون أصول الحياة الطيبة والفوز عند لقاء الله وذلك هو الفوز العظيم . .

* * *

(١) سورة البقرة (٢٦٢ ـ ٢٦٤) .

أضـــواء من الدلالات الكـــونيـة

يحتـوى هذا الكـون الفسيح على دلالات كونية وآيات شاهـدة بوجـود الله تعـالى ووحدانيته ، وقدرته وعظمته ، وأنه المحيي والمميت ، وإلى جانب آيات الكون . . فهناك آيات فى النفس . . إنها آيات كثيرة ، مبثوثة فى الكون .

وفـى كـــل شـىء لـه آيــة تــدل على أنـه الــواحــد

ويحدثنا القرآن الكريم عن طائفة من تلك الآيات التى فى النفس ، والأخرى التى فى الكون ، قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين *ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون *وله من فى السموات والأرض كل له قانتون * وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** [1] ﴾ .

ففى هذه الآيات الكريمة ، طوف بنا الأسلوب القرآنى الحكيم فى كل الآفاق ليطلعنا على ما تنطوى عليه الكائنات من أسرار عجيبة ، ودلالات رائعة وآيات باهرة .

الآيات تستعـرض الكـــون :

وتبدأ هذه الآيات بخلق الإنسان ، ثم تنتفل إلى خلق السموات والأرض ، ثم إلى اختلاف اللغات واللهجات والألوان . .

ثم تعود إلى خلق الليل والنهار ، والبرق والمطر ، واحياء الأرض وقيام السماء والأرض بأمـر الله . . وبعـد الانتهاء من بيان الآيات فى خلق النفس والآيات الكونية . . تجمع

---

(١) سورة الروم (١٩ ـ ٢٦) .

الآيات الكريمة بين سائر المخلوقين فى السموات والأرض ، وأنهم جميعا بقدرة الله . . ثم تبرز النتيجة والثمرة بعد توضيح تلك الأدلة بأن الذى بدأ الخلق هو الذى سيعيده بعد الفناء ، وهو أهون عليه وهو العزيز الحكيم .

أما بالنسبة لأول النشأة والخلقة وهو آدم ، فإنه من تراب ، ثم انتشر البشر بعده من ماء مهين ، وقد خلق حواء من آدم ، وهنا حكمة عالية فى خلق البشر جميعا من نفس واحدة لا من نفسين مختلفتين، كل منهما من جنس آخر ، إذ لو كان كذلك لما حدث بينهم ائتلاف ، بل تحدث النفرة والاختلاف ، كما جعل بين الزوجين مودة ورحمة تنسجم مع مجيئهما من نفس واحدة متآلفة .

وتظهر أهمية المودة والرحمة حين يمسك الإنسان المرأة التى يتزوجها مودة ومحبة لها ، ورحمة بها ، وعطفا عليها ، كأن يكون له منها أبناء ، أو تحتاج إليه فى الألفة والاتفاق ، وفى ذلك آيات لمن يتفكر فى صنع الله : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ .

اختلاف الألسنة واللغات :

أما بالنسبة لخلق هذا الكون الفسيح من السماوات وما فيها ، ومن الأرض وما عليها ثم من آياته هذا الاختلاف الكبير فى الألسنة واللغات المتعددة ، والاختلاف الكبير فى الألوان مع أن الجميع مخلوقون بجوارح متفقة ، فلكل انسان عينان ، وحاجبان وأنف . . إلخ . . ثم هناك آيات أخرى كالنوم بالليل والسعى بالنهار ، ثم ما فى البرق من آيات أخرى من صواعق وأمطار مزعجة أو أمطار تزجى لحاجة الناس إليها ، وما ينزل من السماء من الأمطار التى يترتب على مائها إحياء الأرض التى كانت يابسة ، تنبت من كل زوج بهيج . . إنها حقا آيات لقوم يعقلون ويتدبرون ما فيها من حكمة وما تدل عليه من قدرة الله الخالق العظيم .

﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾ إنها قائمة بأمر الله وقدرته قائمة من غير عمد : ﴿ **ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾ وذلك عند النفخ حيث يخرج الناس أحياء من قبورهم بعد موتهم بقدرة المبدىء والمعيد . .

ثم تختم الآيات الكريمة مطافها ، موضحة أن كل شىء فى السموات والأرض لله ، والكل له طائع ، وأنه الذى بدأ ، وأنه الذى يعيد ، وإذا تعلل المنكرون والجاحدون بأنهم

لم يروا البعث والعود . . فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا ولا أن يشكوا فى أن خلق كل هذه الكائنات وإيجادها من العدم أصعب من إعادتها وأن إعادتها أهون عندهم . فماذا يقولون . . والذى يبدأ الخلق هو الذى سيعيده ، وهو الذى لا يشبه أحدا ، فهو الواحد الأحد القادر المقتدر له الصفة العليا والحقيقة الواحدة ، لا إله إلا هو ، وهو العزيز فى ملكه ، الحكيم فى خلقه وتدبيره . .

﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون * وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

لا تعـارض بين الإسلام والتقـدم الحضـارى

الإسلام هو دين العلم والمعرفة . . ودين التقدم والعمران لا يأبى ـ على أتباعه ـ أن يصنعوا لأنفسهم وحياتهم ما يدفع حياتهم قدما إلى الإمام . . بل إن الإسلام أمر بإعداد القوة ليكون المسلمون أقوى من أعدائهم وأقدر على دفع كل عدوان يتربص بهم الدوائر .

قال الله سبحـانه وتعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ كما أمر الإسلام أتباعه بالسير والنظر فى ملكوت السموات والأرض وما بـث لله فى ملكوته من آيات .

وهـذه الحضـارات الإسـلامية التى تبوأت مكانتها العالمية على ظهر هذا الكوكب الأرضى لم تكن وليدة الصدفة . . ولم تنبعث من فراغ ، وإنما أخذت وضعها فى المجتمعات الإنسانية لأنها قامت على فكر مستنير استمد أضواء خطاه من ينابيع الإسلام الأصيلة . فلقد منح الله تعالى الإنسان عقلا مفكرا يميز بين الحق والباطل وبين الخير والشر . ومنحه العقل أيضا ـ ليفكر ويتدبر وليبحث وينقب ويكتشف ويصنع ويتقدم فى هذا الكون الفسيح .

وإلى جانب هذه المنحة الربانية وهى : (العقل) منح الله سبحانه وتعالى الإنسان سمعا وبصرا وفؤادا وجعله مسئولا عما منحه إياه . فقال سبحانه فى محكم آياته الكريمة : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ .

وقد اضطلع رجال أفذاذ من أمتنا الإسلامية بمهمة البحث والاكتشاف . . لقد كان لهم منهجهم التجريبى الذى اعترفت أوربا ولا تزال بأنها مدينة لهم حتى الآن ومن هؤلاء : الرازى وابن سيناء فى الطب ، ومنهم : الكندى فى الرياضيات وجابر بن حيان فى الكيمياء وابن الهيثم فى الطبيعة .

ويقـول الأستـاذ بريفولت فى كتابه : « بناء الإنسانية » : ليس « لروجيّه باكون » ولا « لفرانسيس باكون » الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى فلم يكن « روجيه باكون » إلا واسطة من وسطاء العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو نفسه لم يملّ قـط ـ مـن التصريح بأن تعلم معاصريه فى أوروبا اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

تلك كانت نظرتهم وذلك اعترافهم وإلى أى مدى أدركوا أهمية اللغة العربية كطريق للمعرفة الحقة .

أين هذا من إهمال الكثيرين من العرب للغتهم . وأين هذا من أولئك الذين ينادون بالعامية ؟ وأين هذا من تلك الأمية التى فشت فى العرب كثيرا وما زالت ؟

لقد آن الأوان لأن يقضى على الأمية وأن يأخذ المسلمون طريقهم إلى العلم والمعرفة وإلى الثقافة الأصيلة والحضارة الإسلامية العريقة التى أسسها أسلافنا . إن محو الأمية واجب إسلامى وإن طلب العلم فريضة على كل مسلم .

إن المسلمين إذا ما تأخروا فذلك نتيجة إهمالهم وتفريطهم فى تراثهم وليس الذنب ذنب الإسلام فالإسلام حثهم على العلم والمعرفة وأمرهم بالبحث والنظر . والله تعالى جعل لهم الأرض مهدا وسلك لهم فيها سبلا .

وطالما تفشت دعاوى زائفة أثارها أعداء الإسلام فى القديم وفى الحديث بغيا منهم وعدوانا زاعمين ـ كذبا وبهتانا ـ أن الإسلام يتعارض مع التقدم الحضارى وأن المسلمين متأخرون . وقد وضح لنا مما سبق كيف حث الإسلام أتباعه . بل وكيف جعلهم مسئولين عما منحهم به من نعمة العقل والسمع والبصر والفؤاد .

وكم انطلقت دعاوى أخرى تقول بضرورة أخذ الحضارة الحديثة بحذافيرها ودعوات ينادى أصحابها برفض الحضارة الحديثة ، وآخرون يرون أنهم معتدلون فيأخذون منها الصالح ويتركون غيره . ولكنها آراء إذا طرحت على بساط البحث والمناقشة لا يبقى منها شيء . فالقول بأخذ الحضارة الحديثة جملة مرفوض لأن فيها ما ليس بصالح . ولأن فيها ما يتعارض مع روح أمة لها شخصيتها ومكانتها . والقول بتركها جملة لا يتفق أيضا بحال إذ أن هناك أشياء فى تلك الحضارة أصبحت من ضرورات الأفراد والجماعات . . والقول بأخذ الصالح منها أيضا مرفوض . لأن تحديد الصالح وغير الصالح سيختلف من عقل لعقل ومن فكر لفكر ومن بيئة لبيئة . . ونقف بعد ذلك لنقول : فما الحل ؟

والإجابة على هذا : أن فى الإسلام كما سبق نهوضاً وتقدماً وأن العقل الإسلامى يدين له العالم الحديث بحضارته . فليسر الفكر الإسلامى وليأخذ مسيرته المباركة موصولة من الخلف بالسلف . وليس فى الإسلام تعارض بحال من الأحوال مع الحضارة والتقدم والنهوض . بل إنه أمر بالسير والنظر والعلم والمعرفة كما سبق ، فالحضارة المادية والحياة المعملية بمخابرها وأدواتها ومعاملها وصناعتها لا تتنافى مع الإسلام بل تتفق معه ويدعو إليها .

أما ما يتصل بالفكر والثقافة : فإن لنا أصول ثقافتنا التى ترتكز على الوحى الإلهى فيما يتصل بالشئون الدينية . . وقبول الفكر البشرى وما صنعه العقل المادى فى هذا الصدد قابل للخطأ والصواب ومن حاول أن يأخذ من غير أصول الإسلام ضل . وما تسرب الغزو الفكرى إلى البيئة الإسلامية إلا عن طريق فترات الضعف التى انتابت الأمة فترات وفترات .

وإلا ـ أيضا ـ عن طريق الذين خُدعوا بكل فكر جديد براق وجروا يلهثون وراءه باسم الحضارة والمدينة .

إن القرآن الكريم دستور حياة كفل للبشرية سعادتها دنيا وأخرى فمن حاول التقدم عن غير طريقه ضل ضلالا مبينا ، وفى الحديث : « ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » . .

إن فى القرآن والسنة غناء للفكر الإسلامى وللثقافة الإسلامية يقول الله تعالى : **﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾** .

وقد رفض رسول الله ﷺ قبول أى شىء يخرج عن دائرة هذين الأصلين ليضع بذلك مناهج الحياة الثقافية الإسلامية الصحيحة .

روى الإمام أحمد عن جابر رضى الله عنه : أتى سيدنا عمر بن الخطاب النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبى ﷺ . قال : فغضب . وقال : « أتتهوكون » أى ـ تتشككون ـ فيها يا بن الخطاب ، والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شىء فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » .

خصـــائص العمل فى المجتمع الإسلامى

الإسلام دين العمل والمسلمون يتميزون بأنهم عاملون مجدون ومخلصون ومتقنون . فللعمل أهميته فى المجتمع الإنسانى ، إنه يثرى الحياة بالنشاط والحيوية والخير والسعادة ويعمل على استمرار عمارة الحياة ورخائها وبدونه تتوقف عجلة الحياة وتكسل مسيرتها نحو التقدم والازدهار .

وللعمل فى المحيط الإسلامى خصائص تميزه وسمات تشرق بها الحياة وتزداد خيرا فمن خصائص العمل فى المجتمع الإسلامى : أنه مرتبط بالله سبحانه وتعالى الرازق ذى القوة المتين ، وهو الذى يَسر السبل وذلل الوسائل ومهد الأرض وأمرنا بالسعى ، ولكن السعى وحده لا يجدى إلا إذا يسره الله تعالى، فالرزق من عند الله والعمل لا ينافى التوكل عليه . . قال الله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ .

فالآية الكريمة أضافت الرزق إلى الله سبحانه إشارة إلى أن الرزق من عنده وهو الميسر له والخالق لكل شىء .

وفى الآية الكريمة ـ كذلك ـ تنبيه للأمـة الإسـلامية إلـى أن العمل والسعى على المعـاش واتخاذ الأسباب لا ينافى التوكل على الله ، فالذى مهد الأرض وجعلها ذلولا هو صاحب الرزق وهو الذى أمر بالسعى وبالمشى فى أرجاء الأرض والسفر بين أقطارها والتردد فى أقاليمها طلبا لوجوه الكسب المختلفة وسلوكا فى سبل الرزق المتعددة من زراعة وتجارة وصناعة ونحو ذلك . .

ويقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا [1] » . . وفى هذا الحديث نرى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أثبت للطير رواحا وغدوا لطلب الرزق هذا مع توكلها على الله سبحانه وتعالى .

فالله سبحانه وتعالى هو الذى سخر كل شىء وهو الذى يسيرنا وهو الموجد للأسباب وهو الخالق لكل شىء وهو على كل شىء قدير .

---

(١) رواه الإمام أحمد ورواه النسائى والترمذى وابن ماجه .

وهو سبحانه الذى سلك لنا سبلاً فى الأرض وأنزل بقدرته من السماء الماء وأخرج به النبات والزروع والثمار المتعددة لنأكل منها ولترعى أنعامنا ، ونعمه سبحانه وتعالى لا تحصى وآلاؤه لا تستقصى ، قال سبحانه : ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** [١] ﴾ .

ومن خصائص العمل فى المجتمع الإسلامى : الإخلاص فيه فإن الإخلاص فى العمل أساس قبوله وأساس نجاحه ونقائه بحيث لا تشوبه شائبة ما ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « أخلصوا أعمالكم لله فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له وابتغى وجهه [٢] » . والمخلصون أبعد الناس عن الفتن فإذا هبت أعاصير الفتن كان المخلصون بمنأى عنها بل إنها لو أحاطت بهم ينجيهم الله وتنجلى عنهم . قال ﷺ : « طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء [٣] » . .

الإخلاص فى العمل :

ومن خصائص العمل : الاتقان فيه والجد والاجتهاد فيه بإحسان العمل وجودته فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين باحسان العمل فقال : ﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ . ويقول الرسول ﷺ : « إن الله كتب الإحسان فى كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته [٤] » .

وأن الله تعالى يحب منا إذا عمل أحدنا عملا أن يتقنه لأن اتقانه وثيق الصلة بالخاصية السابقة وهى الإخلاص لأنه يحمل صاحبه على إتقان عمله فيراقب ربه فيه . والإنسان المخلص فى عمله متقن له لأنه على يقين بأن الله يراه فهو يحسن عمله احسانا كاملا وهو بهذه الصورة فى عبادة ، وكما عرف رسول الله ﷺ الإحسان فى قوله : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والعامل المسلم يجب أن يتقن ما كلف به من عمل فلا يجيده وقت حضور صاحب العمل أو الرئيس فحسب فإذا ما تغيب صاحب العمل أو رئيسه أهمل ولم يعد يتقن عمله وإنما الواجب عليه أن يكون اتقانه فى غيبة رئيسه صورة حية وواقعية لإتقانه وقت حضوره .

---

(١) سورة طـه (٥٣ ـ ٥٥) .

(٢) ... داود والنسائى والدارقطنى .

(٣) رواه البيهقى وأبو نعيم فى الحلية .

(٤) رواه مسلم .

وبهذه الخاصية تميز العمل فى الإسلام وكان جديرا بأن يؤخذ وأن ينظر إليه نظرة ثقة وتقدير ، وما أثير من شبه حول أعمال المسلمين وحول صناعاتهم ما كان إلا وليد مخططات الأعداء الذين يحاولون أن يفقدوا المسلمين والعرب الثقة بأنفسهم ، وكم حاولوا أن يروجوا أعمالهم وصناعاتهم ولكننا إذا تتبعنا التاريخ واقتفينا خطاه واستقرأنا صفحاته وجدنا أن المسلمين والعرب هم أصل الحضارة ، وسماتهم إتقان العمل وجودته واحسانه .

ومن خصائصه أن العامل فى المجتمع الإسلامى يعطى أجره كاملا غير منقوص لأن صاحب العمل يراقب ربه ولديه الوازع الدينى الذى يكفيه ويمنعه عن أكل أموال الناس بالباطل أو غصب حق من حقوق العاملين .

إن العامل يأخذ حقه قبل أن يجف عرقه وصاحب العمل يرى أن فى إكرام العامل أو الموظف عنده فى الحفاظ على حقه لخيرا له وفرجا ونجاة من كل كرب أو مُلمة .

وفى حديث النفر الذين انطلقوا حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فى هذا الحديث قالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا إلى الله تعالى بصالح أعمالكم . وتقرب أحدهم ببره لوالديه وتقرب الثانى بتركه معصية الله خوفا من الله وقال الثالث : « اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله أد إلى أجرى فقلت كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بى فقلت : لا أستهزىء بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون » .

كما يتميز العمل فى الجو الإسلامى بالبعد عن كل المحرمات وعما يتنافى مع روح الإسلام فلقد حرم الاسلام كل عمل خبيث وكل كسب خبيث يكون نتيجته الاشتراك فى عمل حرمه الله كالخمر والربا والاستغلال والغش والسرقة وكل أنواع الكسب الحرام فقد حرم الإسلام أكل أموال الناس بالباطل ، وقال رسول الله ﷺ : « أيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به [1] » .

والعمل حين يكون نقيا طيبا حلالا جامعا لخصائصه المطلوبة فهو فى سبيل الله وهو عبادة كريمة ، وقد مر على النبى ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ عليه وسلم جلده ونشاطه فقالوا يا رسول الله لو كان هذا فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن كان خرج

---

(١) أخرجه الطبرانى .

يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان [1] »

ولقد ضرب رسول الله ﷺ المثل للمسلمين فى العمل مهما كان الإنسان موسرا بأن الأكل من عمل اليد خير عند الله وضرب المثل بداود عليه السلام حيث كان يعمل مع أنه كان غنيا عن الكسب لتوافر الأموال لديه فقال رسول الله ﷺ : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده [2] » .

* * *

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه البخارى .

الكســـب الطيـــب

التجارة ـ فى الإسلام ـ من الأعمال الهامة ، والكسب الطيب ، فالبيع والشراء يحصل الناس على ما يحتاجون إليه ويتبادلون منافعهم .

ولكن نظرة الشريعة الإسلامية إلى الأعمال التجارية من بيع وشراء نظرة تتسم بالأمانة والصدق والتعاون والمساعدة والصراحة والوضوح والتساهل والتسامح .

أما عن الأمانة والصدق فى البيع والشراء فقد أخرج الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهـداء والصـالحـين » وإنـما حظى بهذه المكـانة لأمانته وصدقه ، إن فى وسع التاجر ألا يكون أمينا وأن يغـش وذلك ممكن بالنسبة له أكثر من غيره ، وعامة الناس لا يجيدون معرفة الأشياء التى يريدون شراءها وليست لديهم الدقة الكافية التى يتعرفون بها على كل صغيرة وكبيرة . . فلو أن التاجر غشهم فى سلعة من السلع لما استطاعوا أن يكشفوا غشه إلا قليلا .

كما أن فى امكان التاجر ألا يكون صادقا وأن يكذب على المشترى فى تحديد سعر السلعة فيرفعه ارتفاعا كبيرا بحيث لو حاول المشترى ـ مهما حاول ـ أن يخفض فى السعر فلن يصل إلى سعرها الحقيقى .

فى يد البائع كل هذا وفى وسعه أن يفعل مثل هذه التصرفات المسيئة وأكثر منها عندما يفقد دينه وخلقه ويتجرد من الصدق والأمانة . . وعندئذ قد يثرى ثراء فاحشا من الظلم والخيانة والكذب ولكن ثراءه كله حرام وسحت ، وأكل لأموال الناس بالباطل .

أما حينما يتمسك بمبادىء الشريعة ، ويتسم بالأمانة وبالصدق فإن جزاءه كبير وإن ثوابه وافر ، وحسبه مكانة ودرجة وسعادة وهناءة أنه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وفى رواية عن الترمذى ، عن رفاعة بن رافع قال : « إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق » . .

وتحذر الشريعة الإسلامية من ظاهرة كثيرا ما تتفشى فى الأسواق وعلى ألسنة بعض التجـار والمشتغلين بالبيع والشراء ، وهى ظاهرة الحلف صدقا كان ذلك أوكذبا ، وهى

ظاهرة من الظواهر السيئة ، وأشدها سوءا وشرا وفتنة . . ما يصنعه كثير من الناس حين يحاول الترويج لبضاعته عن طريق الحلف ، وقد يقع فى الكذب والزور والبهتان فيخسر دينه ويبيعه بدنياه ، وذلك هو الخسران المبين . .

عن قيس بن أبى غرزة الغفارى رضى الله عنه قال : كنا - قبل أن نهاجر مع النبى ﷺ نسمى السماسرة ، فمر بنا رسول الله ﷺ يوما بالمدينة فسمانا باسم هو أحسن منه فقال : « يا معشر التجار . . إن البيع يحضره اللغو والحلف » . . وفى رواية الحلف والكذب ، فشوبوه - أى أخلطوه - بالصدقة . .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب » . رواه الشيخان .

وفى رواية أبى داود : ممحقة للبركة - فمع ما فى الحلف من الزور والبهتان - إذا كان كذبا - ومع ما فيه من تضليل وتمويه المشترى ، ومع ما على فاعله من الإثم والعقوبة والمؤاخذة - مع هذا كله - فإن ما يريده من وراء حلفه وهو زيادة المال ومضاعفة الربح لا يتحقق ، لأن البركة مرفوعة عنه ، وكأن الحلف قد محقها . . وماذا يجدى المال وماذا ينفع الربح إذا كان لا بركة فيه .

إن المال إذا محقت عنه البركة ، أصبح مبعثرا بين المرض وعقاقيره ، وبين الأبناء وتبديدهم له ، وبين المشاريع الخاسرة والأعمال التالفة . . وكان بعيدا - والعياذ بالله - عن الإنفاق والصلة والبر والصدقة وصلة الرحم والزكاة وغير ذلك من الوجوه التى ينمو بها ويزداد وتتشكل أهم أسباب البركة وعناصرها .

وكما أن الكذب والخيانة قد تكون من البائع والمشترى فإنها كذلك قد تكون من البيعين ، وبين البائع وشريكه ، فلا يصح أن يكذب الشريك على شريكه ولا أن يخونه لما يتسبب أحدهما من محق البركة وذهابها . . عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدق البيعان وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كذبا وكتما فعسى أن يربحا ربحا ما ويمحقا بركة بيعهما » . .

ومن أهم سمات البيع والشراء فى الشريعة الإسلامية ، بالإضافة إلى ما سبق من الأمانة والصدق والصراحة وعدم الكتمان . . السهولة والتسامح فلا يظلم البائع المشترى ، ولا يطمع المشترى فى حق البائع ، فإذا تم البيع والشراء على هذا النحو من السهولة والتسامح وعدم الجدال الممقوت ، والنقاش المضنى الذى يتشكل بالجشع والجور على الحقوق . . فرحمة الله مع المتسامحين الميسرين . .

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى [1] » . .

وهناك فى البيع والشراء ظاهرة أخرى هى : أن يكون المشترى معسرا فيحتاج إلى أن يمهله البائع أو أن يتجاوز بعض الشىء ، ويكون البائع موسرا يمكنه أن يمهل صاحبه وينتظر عليه ، وهنا يحتل البائع المتسامح مكانة عالية ، ويحظى بمثوبة عظيمة عند الله ، جزاء تسامحه وتيسيره على عباد الله المحتاجين ، فما دامت الرحمة شعاره ، يرحم عباد الله الذين يحتاجون إلى الرحمة فإن الله تعالى يرحمه ، ويدخله الجنة ، « **الراحمون يرحمهم الرحمن** » .

وعن حذيفة وأبى مسعود البدرى رضى الله عنهما ، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول : « إن رجلا ممن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه فقال : هل عملت من خير؟ قال : ما أعلم . . قيل له : انظر . . قال : ما أعلم شيئا غير أنى كنت أبايع الناس فى الدنيا ، فأنظر الموسر ، وأتجاوز عن المعسر ، فأدخله الله الجنة [2] » .

نعم إنه لجزاء كريم ، وأجر وافر ، وكيف لا ، وقد كان رحيما فى دنياه ، رحيما فى معاملته مع الناس ، لم يستول عليه الجشع ، ولم يحط بمشاعره حب الجمع وسرعة الأخذ وإنما نظر بعين الرأفة والرحمة فأنظر من احتاج إلى انظار وتجاوز عمن يحتاج إلى التجاوز ، فكان جديرا بأن يتجاوز الله عنه يوم القيامة .

وصانت الشريعة الإسلامية البيع والشراء من كل ظلم يقع على أحد الطرفين أو يكون مبعثه جهالة المشترى بالسلعة التى يشتريها وعدم خبرته فيها ، عن عمرة بنت عبد الرحمن رضى الله عنها قالت : ابتاع رجل ثمرة حائط ، فعالجه ، وقام فيه حتى تبين له النقصان ، فسأل رب الحائط أن يضع له أو يقيله ، فحلف أن لا يفعل فذهبت أم المشترى إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال : « تألى ـ أى حلف ـ أن لا يفعل خيرا ، فسمع بذلك رب الحائط فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هو له » رواه مالك .

وكما صانت الشريعة الإسلامية البيع والشراء من كل ظلم يقع على أحد الطرفين فإنها حرصت كل الحرص أن تكون ظاهرة البيع والشراء فيما هو حلال ومباح ، فحرم الإسلام بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ، وما إلى ذلك مما هو محرم وغير مباح .

عن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح بمكة : « إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام . فقيل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة ، فإنه يطلى بها السفن ، ويدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس . فقال : هو حرام ، ثم

---

(١) رواه الشيخان .　　(٢) رواه الشيخان .

قال عند ذلك : قاتل الله اليهود ، إن الله تعالى لما حرم عليهم شحومها أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » .

إذن . . لابد لكل مسلم يتعاطى الكسب الطيب أن يكون رقيقا مع إخوانه يكتفى بالحلال الدائم مهما قل فهو أفضل من الكثير الحرام . . وأن يبتعد عن الجشع وظلم المسلمين . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . .

الإســلام فى مواجهـة التحــديات

ليس فى العـالم بأسره، ولا فى الفكر الإنسانى على مر أدوار الحياة، رابطة تجمع الناس وتوحدهم ، وتصلحهم وتوجههم ، وتمكن لهم ، وتأخذ بأيديهم إلى النصر والفتح سوى رابــطة الإســلام . . وليس فى العـالم بأسره من قوة دافعـة إلى الحق سوى قوة العقيدة الصحيحة ، التى جاء بها الدين الحنيف .

ولهـذا فإننـا نجد أعداء الإسلام الذين يكيدون للمسلمين يفكرون ويمعنون فى التفكير ويخططون ـ بمكر خبيث ـ لمحاربة الإسلام عقيدة وسلوكا وفكرا وتطبيقا ويحاولون ـ بكل ما وسعهم ـ أن يصدوا الناس عن هذا الدين ، وأن يزعموا أن بعض المفتونين وضعاف الإيمان ، يرتدون عن عقيدتهم أو عن قيم هذا الدين ومبادئه الفاضلة .

ورأس الفســاد والشر ، والمكـر والمؤامـرات ، هم أولئك الذين يحيكون مخططات الغزو الفكرى والعقدى وينفخون فى رماد المؤامرات مع عصابات الشر والضلال . . ومع تلك الجمعيات السرية ، وأخـطرهـا « المـاسـونية » ومعلوم أن الذين يقبضون على زمام الماسونية ويديرون خططها ، إنما هم اليهود .

وعن طريق المـاسونية وصل بعض المنحرفين إلى بعض المراكز بحيل يهودية لخدمة أغراض خبيثة ، وعن طريق الماسونية اشتعلت حروب وفتن وانطلقت تيارات مخربة ، منها الضياع والانحراف والضلال ، منها ما هو اقتصادى ، ومنها ما هو اجتماعى وهى تهدف إلى حرب الدين ، وتعمل على نشر الإلحاد والكفر والفساد .

ومن أقوال المحفل الماسونى الأكبر سنة ١٩٢٢ م : « سوف نقوى حرية الضمير ، وسوف نعلنها حربا شعواء على العدو الحقيقى للبشرية ، الذى هو الدين ، وهكذا سوف ننتصر على العقـائـد البـاطلة وعلى أنصارها » وفى مجلة الشرق الأكبر التركية الماسونية : « لا يعنينا كفر الملحد أو ثواب المتدين أو وصف الجنة والنار ، وإذا وجد من يحاول العمل فى ساحة الدين فنتركه وشأنه مع الله ، وإذا أصر على رأيه فنرجو منه أن يتركنا وأن لا يدخلنا بينه وبين الله » .

وفى محاضرات محفل الشرق لعام ١٩٢٣ م قولهم : « إنه يجب أن تبقى الماسونية كملة واحـدة وعليه يقتضى محو جميع الأديان ومنتسبيهـا من الأساس [١] » ، وقد قال الأستاذ الميدانى فى نفس الكتـاب تعليقـا على بعض النقـول الخـاصـة بهذه الجمعية أو المؤسسة اليهودية : « والمتتبع يرى حشدا كبيرا آخر من الأقوال التى صرحت بها المحافل والمؤتمرات والمنشورات الماسونية ونطق بها كبار الماسونيين فى عصور مختلفة والتى تبين الأهداف الحقيقية لهذه المؤسسـة اليهـودية العـالمية ، والتى أصبحت من الأمور البديهية المعروفة عند جميع الباحثين ألا وهى إعادة مجد بنى إسرائيل وتأسيس دولتهم الكبرى التى يريدون لها أن تمد سلطانها على العالم أجمع وأن تهدم جميع الأديان السماوية والمذاهب الأخلاقية والاجتماعية والاقتصـادية النـافعـة فى الأرض وأن ترفع لواء اليهودية وحدها وما الدولة الصهيونية فى فلسطين إلا وليدة هذه المخططات اليهودية التى استخدمت الجمعية الماسونية وسيلة من وسائلها » اهـ .

وليس إجـرام اليهـود قاصرا على تلك المخططات المختلفة القريبة منها والبعيدة ، ولكن تاريخهم ينبىء عن وحشية لم تعرف البشرية لها مثيلا بحيث لا يجدى معهم إصلاح ، ولا تنبض قلوبهم برحمة ، وتاريخ حروبهم ووحشيتهم يدل على بشاعة ما ارتكبوه مع الشيوخ والأطفال . . ومع النساء والصالحين ، بل مع الأنبياء والمرسلين .

ويقول عنهم « جوستاف لوبون » لا أثر للرحمة فى وحشية اليهود ، فكان الذبح المنظم يعقب كل فتح مهما قل ، وكان الأهالى يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة فيبادون باسم يهوه من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن ، وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء [٢] .

غـــرور اليهـــود واستعلاؤهم :

ولقد نظروا إلى أنفسهم نظرة غرور واستعلاء وأعلنوا أنهم شعب الله المختار وأنهم فوق البشر ، مع أن معتقداتهم وطباعهم وسلوكهم وأخلاقهم شاهدة على شرهم وخبثهم وضلالهم وأنهم لا عهد لهم ولا أمان لهم .

فأين تلك الأفضلية ؟ وأين هذا الاختيار الذى يزعمونه ؟ . . ولماذا يكونون شعب الله المختار ؟ لضلالهم وإجرامهم ؟ أم لشرهم وحربهم للدين ؟

---

(١) « مكائد يهودية » الأستاذ عبد الرحمن الميدانى .

(٢) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ترجمة الأستاذ عادل زعيتر .

لقد علق على هذا الزعم الكاتب الكبير والمفكر المجاهد الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار فى كتابه « مؤامرة الصهيونية على العالم » فقال : « إن اليهود يرون أنفسهم شعب الله المختـار وأن غيرهم هم العبيد المسخرون لخدمتهم ، وأن وجود (القوييم) منة من منن اليهود على هؤلاء القوييم ولولا اليهود ما خلق القوييم » .

وهذا التفوق الذى ادعاه اليهود لأنفسهم حتى كانوا شعب الله المختار لا وجود له إلا على معنى واحد هو الامتياز فى الشر والتفوق فى الضلال والهمجية وتحطيم الإنسانية مع كل قيمها الرفيعة . . ومن البدهى أن التفوق لا يكون إلا بالفضل ولا فضل لليهود فى أى حقل من حقول الخير ، بل هم يفسدون كل عمل صالح ، بل أفسدوه منذ كانوا حتى اليوم .

المخططات اليهـــودية :

وللمخططات اليهودية خطرها وشرها ، ولها عداوتها السافرة للدين وللخلق ، وقد اشتملت تلك المخططات على القضاء على الدين والمتدينين والقضاء على المعانى الأخلاقية والقيم ، ويتضح ذلك من محاولتهم بث الإلحاد ونشره وتكوين الجمعيات السرية والحركات الهـدامـة ، التى أخـذت أشكـالا متنـوعـة ، واتجاهات مختلفة متعددة العناوين ومختلفة الأسماء ، إلا أن الطابع واحد ، والهدف التحللى والانحلالى واحد ، لأن الأصابع التى تحرك هذه الحركات الهدامة والجمعيات المضللة المنحرفة هى الأصابع الصهيونية .

الـدس على الإســلام :

وهى لا تقتصر فى اتجاهها إلى الهدم والتحلل إلى الدين فحسب ، ولا تتجه إلى أساليبها الهدامة بالطرق المباشرة فحسب ولكنها تتخذ الطرق المباشرة وغير المباشرة فهى تتجه إلى القـرآن ، وإلى تفسـيراتـه وإلى السنة وكتبها ودواوينها لمحاولة الدس والوضع والتحريف والتغيير ، وإلى كل لون من ألوان الثقافة والفكر الإسلامى ، لمحاولة تشويه الحقائق . . وتتجـه إلى النـاحية الأدبية . فتنشر الأدب المنحـل وتعمل على تشجيعه وإذاعته لإفساد ما يمكن إفساده فى الدين والخلق والثقافة والفكر والأدب وهكذا . وتتكشف بعض هذه المحاولات فى البروتوكول الرابع عشر من بورتوكولات صهيون ترجمة الأستاذ عبد الغفور عطار يقول البروتوكول الرابع عشر : عندما نصبح سادة الأرض يجب ألا نسمح بوجود أى دين فى العالم غير دين إلهنا الواحد الذى ارتبط به مصيرنا الذى قرر مصير العالم باختياره إيانا اختيارا يفرض علينا أن نمحو من الأرض كل الديانات ، فإذا نجم من ظهور ملاحدة فهو إلى أجـل لأنهم سيزولـون ولا أثر لهم فى خطتنا ، بل سيكونون أمثولة للأجيال الجديدة

المدعوة إلى الاصغاء إلى تعاليمنا عن ديانة موسى التى وصفت بالمتانة وكمال النظام ، والتى فرضت علينا أن نخضع العالم كله لسيادتنا ، وسنظهر فى سياق التبشير الحقيقى لديانة موسى التى هى مصدر كل قوى التهذيب .

الإسـلام ديـن الحـق :

وننشر فى كل مناسبة مقالات نثبت فيها الفوارق بين عهدنا الزاهر والعهود الغابرة بالمقارنة ، ولا مراء أن السلام الذى يعقب كفاح قرون مليئة بالاضطراب والفتن يظهر محاسن حكمنا وأما أخطاء الإدارة المسيحية فسنضخمها ونصبغها بأصرخ الألوان التى تجتذب انتباه الشعوب وتثير فيها شعور الكراهية والاشمئزاز من الحكم السابق حتى نجعلها تؤثر الإخلاد إلى السلام فى ظل العبودية على الحياة فى جو حقوق الحرية الوهمية التى أذاقتها الويل وسلبتها حق العيش وامتصت دم الوجود الإنسانى وجعلتها سلعة بأيدى الأفاكين المغامرين يستغلونها فى منافعهم الخاصة وهم أجهل من أن يقودوها إلى طريق الخلاص .

وعندما كنا ندفع القوييم إلى تغيير حكوماتهم يوم كنا ندك أركان حكمهم أوقعهم فى ضجر حملهم على أن يفضلوا كل ما يأتيهم منا على أن يعودوا من جديد إلى شقاء الأيام السابقة ، وسنندد - بخاصة بالأخطاء التاريخية التى اقترفتها الحكومات المسيحية فى اتباعها أوهام الإصلاح الاجتماعى غير معيرة أى اهتمام إلى ما نجم عن مشاريعها من أضرار فى سير الحياة العامة ، ومن شقاء الإنسانية قرونا طويلة جاهلة ما يضمن الرغد الذى قضت عليه .

وتظهر قوة مبادئنا ومتانة إجراءاتنا من مقارنتها بنظام الهيئة الاجتماعية السابقة الذى ذهب مع الريح وسيتولى فلاسفتنا نقد ديانات القوييم ، وكشف مساوئها أما دياناتنا فما ثم من يستطيع معرفتها من حيث محتواها غير شعبنا الذى لا يخاطر بافشاء أسرارها . . وقد نشرنا فى بلدان تدعى الرقى أدبا منحلا دنسا تغثى منه النفس ، وسنوالى بعد قيام مملكتنا لزمن يسير تشجيعه ، رجاء أن نجلى ما بينه وبين آدابنا من فوارق فى المضمون النقى المحمود وسيعيد شيوخنا المهيئون لقيادة القوييم خطبا وبرامج ومذكرات ومقالات تؤثر فى عقول القوييم ونقودهم إلى معارف وآداب تصوغهم الصياغة التى نريدها . أ هـ .

كشف الحركـات الهـدامة :

وهكـذا تتكشف أمـامنا المخططات الصهيونية فى حركاتها الهدامة وأنها خلف كل محاولات الافساد والتحلل ممسكة بمعول الهدم ومحاولة نشر الإلحاد ومقاومة الدين والخلق والفضيلة . . وفى كشف المؤامرات السيئة ما يستوجب على كل مسلم الغيرة على دينه وأمته من هذا الـزحف الـظالم ، والـوقـوف فى مواجهة كل التحديات السافرة والمقنعة الحربية والفكرية ، حتى يتم النصر على أعداء الإسلام والمسلمين ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

الإيمان والخير من منجزات حضارتنا

الإسلام هو دين العلم والمعرفة ، وأول آية نزلت من القرآن الكريم ، كانت أمرا بالقراءة ودعوة إلى العلم والمعرفة . . قال تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** [1] ﴾ .

وأهم العلوم وأولاها بالتعلم والتعليم ، هى العلوم الدينية التى يتعرف الناس بها على خالقهم الواحد الأحد ، وما يجب أن يقوموا به من طاعة وما يصدروا عنه من عمل . وقد أشاد القرآن بفضل العلم والعلماء ، وما لهم من مكانة عالية ، قال سبحانه : ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ .

وإذا كان العلم يمثل دائرة الضوء الواسعة ، التى يبزغ منها الشعاع الحضارى ، فإن أهميته تظهر بشكل واضح فى كل مجالات الحياة ، وفى كل عناصر الحضارة ومقوماتها من عمل أو بناء ، ومن صناعة أو إنتاج وما إلى ذلك .

وإذا كان موقف الإسلام من العلم يتمثل فى الدعوة إليه والأمر به وبالسير والنظر فى ملكوت السموات والأرض والانتفاع بما سخره الله تعالى للإنسان ، فإن على الإنسان واجبا هاما وضروريا ، هو أن يدير دفة الحياة العلمية والحضارة بما يتمشى مع روح الإسلام وألا ينحرف بها يمنة أو يسرة ومن هنا تتميز الحضارة الإسلامية بطابع الإيمان والخير والنفع العام وبما يسعد البشرية . . فالحضارة الإسلامية تتسم بالتعمير ، وبالانتاج والاستثمار . . وبالتقدم والرقى ، وبالرخاء والرفاهية ، فى كل مجالات الحياة وميادينها .

ففى مجال الانتفاع بالأرض يقول الله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** [2] ﴾ .

وفى مجال الزراعة قال سبحانه : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون** [3] ﴾ .

---

(١) سورة العلق (١ - ٥) .　　(٢) سورة الملك (١٥) .

(٣) سورة يس (٣٣ - ٣٥) .

وفى مجال التجارة يقول سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق** ﴾ .

وفى مجال الصناعة قال تعالى : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** [1] ﴾ .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب فى صنعته الخير والرامى به ومنبله [2] » .

ويشيد الإسلام بالعمل الصناعى ، وما يترتب عليه من حماية الإنسان ووقايته وأنه من أفضل أنواع العمل والكسب . قال ﷺ : « ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »[3]. وكان داود عليه السلام يصنع الدروع للوقاية والحماية وأرشده الله إلى هذه الصنعة وأن يقدر فى السرد : أى حلق الحديد . قال الله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير** [4] ﴾ .

وأشار القرآن الكريم إلى بعض تلك العناصر أيضا ـ وهو الحديد وما فيه من بأس يمكن الانتفاع به فى الوقاية وفى الحروب وما فيه من منافع للناس قال سبحانه : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز** [5] ﴾ .

كما أشار القرآن إلى بعض العناصر فى قوله تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور** [6] ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراسانى وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد ، القطر : النحاس ، قال قتادة : وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام [7]أ . هـ . .

كما أخبر القرآن الكريم عن ذى القرنين ، وعن بناء « السد » من الحديد والنحاس المذاب فى قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون**

---

(١) سورة هود (٣٧)
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه البخارى .
(٤) سورة سبأ (١٠-١٢) .
(٥) سورة الحديد (٢٥)
(٦) سورة سبأ (١٢، ١٣) .
(٧) تفسير ابن كثير

قولا * قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا * قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما * آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا * فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا [1] ﴾ . .

ويوجه القرآن الكريم العقول والأنظار إلى آثار القدرة الإلهية فى هذا الكون الفسيح ، وكيف خلق الله الكون وجعل بعضه مختلفا عن بعض وغاير بين الأشكال وفاوت بين الألوان ، ففى الجبال طرق بيض وأخرى حمر ومنها صخور شديدة السواد وكذلك أيضا بالنسبة للناس والدواب والأنعام كلها مظاهر للقدرة الإلهية وآثار لا يعقلها إلا العلماء الذين يعلمون الصانع المبدع والخالق الوهاب فيخشونه ، يقول الله تعالى : **﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور [2] ﴾** .

ومما سبق يتضح أن الإسلام وقف من عناصر الحضارة موقف التأييد والتشجيع وأباح كل ما يعود بالخير والنفع على البشرية مما يحفظ عليها صحتها ويمكنها من الانتفاع بالحياة برا وبحرا وجوا ومن زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . قال الله تعالى : **﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون [3] ﴾** .

وكان للمسلمين الفضل الأول فى تقدم الحياة الإنسانية واكتشاف عناصر حضارتها فكانوا بحق روادا لآفاق المعرفة والبحث ودراسة الظواهر الكونية ، وهذا راجع إلى ما دعاهم إليه دينهم من السير والنظر والبحث والتأمل قال الله تعالى : **﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون [4] ﴾** .

وكان لحضارتهم أكبر الأثر فى حضارة الأمم والشعوب كلها ، يشهد لذلك ما قدموه فى مجال العلوم المختلفة فى الطبيعة والطب والرياضة والفلك وغير ذلك من العلوم ، وتميزت

---

(١) سورة الكهف (٩٣ - ٩٧) .
(٢) سورة فاطر (٢٧ ، ٢٨) .
(٣) سورة الأعراف (٣٢ ، ٣٣) .
(٤) سورة البقرة (١٦٤) .

حضارة الإسلام بطابع الخير والأمن ، إنها حضارة تبنى ولا تهدم ، وتعمر ولا تخرب ، وتعمل على تهذيب النفس الإنسانية ، ورقى المجتمع مضبوطة بقوانين العدل والإحسان .

يقول « جوستاف لوبون » : والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشاف العلم ومن أعظمها تهذيبا للنفوس وحملا على العدل والإحسان .

وأما عن سبق العقلية العربية بفضلها فى المضمار الحضارى فالعرب « أنجزوا فى ثلاثة قرون أو أربعة من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الإغريق فى زمن أطول كثيرا وكان تراث الاغريق العلمى قد انتقل إلى البيزنطيين فلم يستفيدوا منه فلما آل إلى العرب حولوه إلى غير ما كان عليه فتلقاه ورثتهم مخلوقا خلقا آخر ، ولم يقتصروا على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، بل نشروها كذلك بما أقاموه من الجامعات وما ألفوه من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ فى أوربا من هذه الناحية [1] » .

ومجال العلم والمعرفة فى الإسلام لا حدود له ، وقد أمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه بطلب الزيادة من العلم قال سبحانه : ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾ . . وقال : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ .

أفبعد كل هذا تتهم العقلية الإسلامية بالجمود والتأخر كما يدعى خصوم الإسلام . . إن المتتبع للتاريخ الإنسانى والتراث الحضارى ليدرك بيقين أن المسلمين عندما كانوا مرتبطين بدينهم وعقيدتهم مطبقين لتعاليم الإسلام سائرين على منهاجه كانوا أسبق الأمم وأقواها ، وكان النصر حليفهم وعندما بعدوا عن دينهم واستولى عليهم الهوى وأخذهم الغرور العقلى انتكسوا وتأخروا . ويقول المفكر الإسلامى الكبير والداعية المجاهد فضيلة الشيخ « محمد الغزالى » : إنه لمما يثير الضحك أن يتهم الإسلام بخصومة للمدنية أو تعويق للحضارة . لقد قطع الشرق الإسلامى من القرون أربعة عشر قرنا وقطع الغرب المسيحى من الزمن عشرين قرنا ولو أن التأخر كان حليف الشرق طوال هذه القرون والتقدم حليف الغرب لقلنا على عجل أن الإسلام مبعث هذا التخلف الشائن .

* * *

---

(١) حضارة العرب ترجمة الأستاذ عادل زعيتر .

سيأتى قوم يجادلونكم بالمتشابه من القرآن فخـذوهم بالأحـاديث

كان للحـديث النبـوى الشريف أثره البالغ فى بناء ثقافة إسلامية أصيلة ، ظلت بمنابعها الثرية ، مصدر الإشعاع ، لكل الأئمة والعلماء ، والمفكرين والباحثين .

ولولا الحديث النبوى الشريف ، ما عرف المفسرون معانى آيات القرآن الكريم ، ولا وقفوا على أسباب النزول .

ولولاه ما عرف الفقهاء تفاصيل أحكام الشريعة الإسلامية ، ولا الحلال والحرام . . ولـولاه ما عرف المسلمون فى كل عصر ومصر ، أقوال الرسول ﷺ ولا أفعاله ولا تقاريره ولا صفاته الخُلُقية والخِلقيّة ولا سيرة ولا مغازيه . .

ولولاه كذلك ما عرف « الاسناد » الذى هو من خصائص الأمة الإسلامية . .

وقد تمخضت بحوث العلماء ودراسات الأئمة والمحدثين وسائر المشتغلين بالسنة عن علوم وفنون ، واصطلاحات وقواعد كانت ـ بحق ـ قمة ما وصل إليه الفكر البشرى فى توثيق الأخبار ، أو تضعيفها وفى تعـديل الرجال ، أو تجريحهم . . ودرسوا السند والمتن وقدموا للنقد العلمى أدق الطرق السليمة وأصح ما عرف العلم فى القديم والحديث ، من النقد الداخلى ، والنقد الخارجى .

ورتب العلماء دواوين السنة المعتمدة ترتيبا موضوعيا ، ورتبوها وبوبوها تبويبا فقهيا ، مما يسهل على الباحث والقارىء الوصول إلى طلبه ، ومعرفة ما يحتاج إليه من أصول دينه وأحكام الشرع وسائر الآداب والفضائل والأخلاق .

ومن هنا كان عطاء الثقافة الحديثة شاملا وعاما ، استوعب بشكل منقطع النظير كل ما يحتاج إليه الفقيه والأديب واللغوى والمفسر ، وعالم الأخلاق ، والواعظ والموجه ، والعالم والمتعلم ، وقامت ـ إلى جوار هذا كله ـ دراسات جادة وعميقة فى شرح السنة وما يستنبط من الأحاديث ، وما يمكن تطبيقه على الظواهر الاجتماعية الحديثة ، وما تحل به مشكلات العصر الحديث المختلفة .

وكان رجال السنة أول من ضرب أروع الأمثلة فى التواضع للعلم وأخذه ممن هو أهله ، حتى وإن كان دونهم فى السن أو القدر . . فعرف عنهم أخذ الكبير عن الصغير وروايته عنه ، ورواية الآباء عن الأبناء . . وذلك كله حتى لا يتوهم أن الصغير أفضل من الكبير ، وحتى لا يتوهم أن الابن أفضل من الأب ، وحتى لا يظن أن فى السند انقلابا حيث جرت العادة برواية الابن عن أبيه والصغير عن الكبير وكان من بين علوم المحدثين وبحوثهم : معرفة المتفق والمفترق والمؤتلف والمختلف ، والمتشابه ، ومعرفة تاريخ الرواة وطبقاتهم والثقات والضعفاء والأوطان والبلدان . . ومعرفة من تقبل روايته ومن لا تقبل ، وآداب الرواية ، وآداب المحدث وطالب الحديث وطرق التحمل والأداء . . والجرح والتعديل وغير ذلك من البحوث والعلوم التى عنى بها علم أصول الحديث . . ومن العجيب بعد كل هذا أن يخرج بعض أعداء السنة ، ينادون بدعوى زائفة مغرضة يريدون من ورائها الاقتصار على القرآن الكريم . . وفى هذا بعد عن الدين ، بل وبعد عن القرآن نفسه ، فإن أهل الحديث هم أعلم الناس بكتاب الله .

عن عمر بن الخطاب : سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالأحاديث ، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله . . وتتضح الحاجة إلى السنة فى بيانها للقرآن الكريم وتفصيلها لأحكام الدين والإجابة على كل ما تحتاجه الإنسانية فى كل زمان ومكان فيما يتصل بالعقيدة والشريعة والأخلاق .

ولقد أمر الله تعالى بطاعة رسول الله ﷺ ، كما أمر بطاعته فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** (١) ﴾ .

كما أرسى القرآن قاعدة أساسية فى قبول ما جاء فى السنة وأن فى طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى . . ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** (٢) ﴾ .

إذا تبين هذا فليس من الصواب فى شىء ، أن ينادى أحد ما بالاقتصار على القرآن وحده . . ولقد تنبأ رسول الله ﷺ بما ستتعرض له سنته الشريفة من تحديات بعض المغرضين ، وأصحاب الشبه الواهية التى لا أساس لها ، وأنهم سيقومون بدعوة خبيثة يحاولون فيها أن ينادوا بالاقتصار على القرآن وحده ، بغيا وعدوانا ، وحسدا وبهتانا ، وفى هذه الدعوة وأمثالها ، إهمال لنصف الدين وفى ترك السنة الشريفة ، استعجام لمعظم القرآن ، وعدم فهم للمراد منه عند الله تعالى .

---

(١) سورة النساء (٥٩) . .　　　(٢) سورة النساء (٨٠) .

وفى الحديث : « ألا إننى أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكة يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم مثل قراه [1] » . .

ولقد حاول أعداء السنة ـ قديما وحديثا ـ أن يستدلوا على دعواهم الزائفة ، بخبر موضوع ، لا أساس له وهو « إذا جاءكم عنى حديث فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق فخذوه وما خالف فاتركوه » . .

وقد وضح أئمة السنة وجه الحق فى هذا الحديث ، وكشفوا عن كذب الخبر ووضعه ، وأنه قد وضعته الزنادقة ليصلوا إلى ما يريدون من تقويض المصدر الثانى للتشريع الإسلامى ، وهو الحديث النبوى الشريف . يقول أئمة الحديث المتضلعون فى فهمه : عرضنا هذا الحديث على كتاب الله فوجدناه مخالفا ، لأنا وجدنا فى كتاب الله : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ووجدنا فيه : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾ ووجدنا فيه : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ .

وهكذا يثبت القرآن الكريم أن نأخذ بما جاءت به السنة . . ونتحدى دعاة الباطل ـ بعد كل هذا ـ أن يأتوا بآية واحدة تدعو أو تقول بعدم اتباع الرسول ﷺ إلا فيما صرح به القرآن الكريم .

وأنه لا سبيل إلى بيان القرآن تفصيلا وتوضيحا ، إلا عن طريق السنة لبيان أسباب النزول ، ومعرفة توضيح المبهم وتفصيل المجمل ، وتقييد المطلق ، وغير ذلك . .

ولشدة الحاجة إلى السنة عنى أئمة الحديث بالسند والمتن ، بتمحيص شديد ، وتوثيق بالغ لا مثيل له ، فقد نظروا إلى السنة النظرة اللائقة ، ففيها بيان لأصول الشريعة وفروعها وتوضيح للقرآن على يد من نزل عليه القرآن كما قال الله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ .

---

(١) رواه أبو داود .

من ركـــائز التضـــامن الإســـلامى
أخـوة الإيمـــان وآدابهـــا

قال الله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ .

فى هذه الآية الشريفة ، يقرر الإسلام أخوة الإيمان ، وأنها لا تتقيد بعلاقة النسب فإن أخوة النسب تنفصم بمخالفة الدين ، ولكن أخوة الدين لا تنفصم بمخالفة النسب .

وفى الصحيحـــين عن أبى هريرة رضى الله عنـــه قال : قال رســـول الله ﷺ : « لا تحاسـدوا ولا تبـاغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا » والتحسس : هو الاستماع لحديث القوم ، والتناجش : هو أن تزيد فى ثمن السلعة دون رغبة فى شرائها لتحريض الغير عليها ، وفى رواية أخرى بلفظ مسلم يبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه حقوق هذه الأخوة وواجباتها « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

ومن الـواجبـات المترتبة على أخوة الإيمان الإصلاح بين المسلمين كما جاء فى الآية الشريفة : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ . . فالاصلاح بين كل مسلمين أو طائفتين ، واجب تمليه أخوة الإيمان ، وقد مهدت الآية الشريفة طريق الإصلاح بالتزام التقـوى ، حتى لا يحيد المصلحون ولا يحابى بعضهم بعضا ، بل يكون العدل رائدهم والتقوى طريقهم وبهذا تتحقق الغاية الكريمة وهى رحمة الله بالمؤمنين دنيا وأخري ﴿ **واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ ويدعو القرآن الكريم جميع المؤمنين أن يطهروا البيئة الإسلامية من رذائل شتى :

١ - منها الرذائل الظاهرة التى تتعلق بالجوارح كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب .
٢ - ومنها الرذائل الباطنة التى تتعلق بالمشاعر كالظن .

أما الأولى الظاهرة : فيقول فيها القرآن : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم** ﴾ فينهى الله تعالى عن سخرية بعض الناس ببعض ، فعسى

من سخروا منه أن يكون خيرا منهم عند الله تعالى ، فى عقيدته وفى عمله وفى باطن أمره . فإن مقاييس الخيرية ليست فى المظهر ، ولا فى الشكل ، ولكنها فقط فى التقوى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم** ﴾ الآية ، نرى أنه ورد فى سبب نزولها آراء منها : انها نزلت فى وفد بنى تميم عندما استهزءوا بفقراء الصحابة أمثال عمار وبلال وخباب وابن فهيرة وصهيب وسلمان وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم ، لما رأوا من رثاثة حالهم .

وقيل : نزلت فى سخرية الغنى بالفقير ، وقيل فى عكرمة بن أبى جهل ، فعندما جاء إلى المدينة مسلما كان بعض المسلمين إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه فنزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس كانَ فى أذنه وقر فاذا سبقوه إلى مجلس النبى ﷺ أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ، فاقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبى ﷺ فلما انصرف النبى عليه الصلاة والسلام أخذ أصحابه مجالسهم منه فربض كل رجل منهم بمجلسه وعضوا فيه ـ أى لزموه ـ فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا ، فيظل قائما فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا ففسحوا له حتى انتهى إلى النبى ﷺ وبينه وبينه رجل فقال له تفسح : فقال له الرجل : قد وجدت مجلسا فاجلس فجلس ثابت من خلفه مغضبا ثم قال : من هذا ؟ قالوا فلان فقال ثابت : ابن فلانة يعيره بها يعنى أمًّا له فى الجاهلية فاستحى الرجا فنزلت أ هـ من تفسير القرطبى .

وقد نصت الآية على النساء كذلك وأفردتهم بالذكر فى النهى عن السخرية ، وذلك لأن السخرية تقع كثيرا منهن ، « فإنهن خلقن من ضلع أعوج وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه » ولذا نص عليهن فى قوله تعالى : ﴿ **ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن** ﴾ وقد جاء فى سبب نزولها أن امرأتين من أزواج الرسول ﷺ سخرتا من أم سلمة عندما ربطت خصريها بثوب أبيض وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنهما : انظرى ما تجر خلفها كأنه لسان كلب ، فهذه سخريتها وقال أنس وابن زيد : نزلت فى نساء النبى ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر وقيل : نزلت فى عائشة أشارت بيدها يا بنى إنها لقصيرة . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حيى بن أخطب أتت رسول

الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله إن النساء يعيرنني فأنزل الله هذه الآية [1]

وقد نهى الله تعالى كذلك عن (اللمز وهو العيب) ، ويكون تعبيرا باليد ، أو العين أو اللسان أو الإشارة .

وأما الهمز فيكون باللسان . قال تعالى : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ ويدل هذا التعبير الحكيم على أن المؤمنين نفس واحدة ، فلا يليق بهم أن يعيب بعضهم بعضا ، وكما لا يعيب المؤمن نفسه لا ينبغي أن يعيب غيره ، فالمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ومن الرذائل التي نهى الإسلام عنها : التنابز بالألقاب . قال تعالى : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ . قيل : إنها نزلت في بني سلمة ، قدم رسول الله ﷺ وليس رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا فلان فيقولون مه يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم فنزلت الآية ، وقال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره ، كأن يقال له : يا يهودي يا نصراني ، فنزلت الآية . وقال قتادة : وقول الرجل للرجل يا فاسق ، يا منافق .

قال تعالى : ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ يقول ابن زيد : أي بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته . . وقيل من لقب أخاه أو سخر منه فهو فاسق أما بعض الصفات التي يكون ظاهرها الكراهة ، ولكن لا يراد بها العيب حين التحدث بها فلا بأس بها . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حميد الطويل ، سليمان الأعمش ، وحميد الأعرج ، ومروان الأصفر ، فقال : إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به .

وقد ختم الله تعالى الآية الكريمة التي نهى فيها عن تلك الرذائل بتهديد من تسول له نفسه عن الاسترسال في مثل هذه المعايب بأنه قد وقع في الهلاك وأصبح من الظالمين لأنفسهم لارتكابها فقال تعالى : ﴿ **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ وإذا كان التنابز بالألقاب مما يعيب المسلم ويمزق ود الصدور ، فإن بديله وهو نداء المسلم لأخيه بأحب الأسماء مما يصفي له ود أخيه يقول عليه الصلاة السلام : ثلاث يصفين لك ود أخيك تسلم عليه إذا لقيته وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه .

ومثال النوع الثاني وهي الرذائل الباطنة التي تتعلق بالقلب والشعور : « ظن السوء » وقد حذر الله تعالى من الظن في قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ وقد نزلت هذه الآية الكريمة كما قال أبو عبد الله القرطبي في رجلين من أصحاب النبي ﷺ اغتابا رفيقهما وذلك أن النبي ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج

---

(١) تفسير القرطبي .

إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما فضم سلمان إلى رجلين ، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ، ولم يهيىء لهما شيئا فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما فقالا له انطلق فاطلب لنا من النبى ﷺ طعاما وإداما فذهب فقال له النبى ﷺ اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عنده فضل من طعام فليعطك . وكان أسامة خازن النبى ﷺ فذهب إليه فقال أسامة ما عندى شىء ، فرجع إليهما وأخبرهما ، فقالا قد كان عنده ولكنه بخل ثم بعث سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا فقالا : لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة وهى بئر قديمة بالمدينة بها ماء غزير ـ لغار ماؤها ـ ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شىء فرآهما النبى ﷺ فقال مالى أرى خضر اللحم فى أفواهكما ؟ فقالا يا نبى الله والله ما أكلنا فى يومنا هذا لحما ولا غيره . فقال ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ﴾ . . وجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » . . والظن الذى تحذر الآية منه هو الظن الذى يقوم على اتهام لا أساس له ولا سبب يوجبه .

ومن الرذائل المنهى عنها « التجسس » وهو البحث عما يكون خفيا عن الإنسان كمن يتهم إنسانا بفاحشة أو بشرب الخمر مثلا دون أن يبدو له ما يقتضى ذلك أو دون أن تظهر له علامة على تحقيق ظنه ، كأن يكون المظنون منه من أهل الصلاح والتقوى فإن ظن السوء به حينئذ يكون محرما ، هذا بخلاف من عرف واشتهر بين الناس بمخالفة الشرع والمجاهرة بالمعاصى فلا يكون الظن به محرماً .

قال عليه الصلاة والسلام : إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء .

هذا ويترتب على الظن التجسس ثم الغيبة وذلك لأن مجرد التهمة يكون سببا فى البحث عما ساور الإنسان من خاطر فيحاول التجسس ليتحقق مما يظنه فينتقل من درجة الظن إلى درجة التجسس ثم يدعوه وقوفه بالتجسس على بعض ما يعلم أو ما لا يعلم إلى غيبة أخيه فينتقل إلى درجة أسوأ وحالة أكبر وهى الغيبة وهكذا .

وينقى الإسلام جو المجتمع على مختلف طبقاته ويوضح كيف يتفاقم الخطر من جراء الظنون السيئة بين الناس بعضهم مع بعض ، بل وبين الحاكم والمحكوم ، فحين يبتغى الحاكم الريبة فى الناس يفسد ذات بينهم .عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال « إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم » ويوضح الرسول ﷺ خطر الغيبة والتجسس ويكمل بيان نتائجها السيئة التى لا تقتصر على الأخرى فحسب بل إن المغتابين والمتجسسين ينالون

جزاءهم فى الـدنيا وعقابهم فيها قبل الآخرة ، قال ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته » .

وقد كان سلفنا الصالح يدركون خطر التجسس ، ومدى حرمته فكـانوا يبتعـدون عن التجسس وعن تتبـع أسرار النـاس حتى ولو ترتب على ذلك اقامة حكم من أحكام الشريعـة ، أو اقـامـة حد من حدود الله ، قال عبد الرحمن بن عوف : حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة إذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط ، فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهما الآن شرب فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه . . قال الله تعالى : ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ وقد تجسسنا وانصرف عمر وتركهم .

ومن الرذائل المنهى عنها « الغيبة » قال الله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ وقد فسر الرسول ﷺ معنى الغيبة ، ففى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة أن الرسول ﷺ قال : « أتـدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذكرك أخاك بما يكره » قيل أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟قال« إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

وقـد رأى رسـول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعـراج صورة محسـوسة لأولئك المعتدين المغتابين ، وكيفية عذابهم ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : لما عرج بى مررت بقـوم لهم أظفـار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس ويقعون فى أعراضهم وقد صور القرآن الكريم صاحب الغيبة فى هيئة مستقذرة ، وصورة تدل على خسة الطبع ودناءة النفس وفساد القلب ، قال تعالى : ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه** ﴾ فصور الله تعالى الغيبة بأكل الميتة لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبته ممن اغتابها ، ولننظر ـ بعد إلى تصوير الرسول ﷺ للغيبة : روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه حين جاء ماعز إلى النبى ﷺ فشهد على نفسه بالزنا فرجمه الرسول ﷺ ، فسمع نبى الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجم رجم الكلاب فسكت عنهما ، ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : « أين فلان وفلان » ؟ فقالا : نحن يا رسول الله ، قال : انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا يا نبى الله ومن يأكل هذا ؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه ، والذى نفسى بيده إنه لفى أنهار الجنة وينغمس فيها .

وحكم الغيبة : أنها من الكبائر قال ﷺ : « دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » . واتفق العلماء على أنها من الكبائر يجب التوبة إلى الله منها ، واختلفت الآراء : هل يستحل المغتاب أم لا ؟

١ - فقال بعض العلماء : ليس عليه استحلاله ، وإنما هى خطيئة بينه وبين ربه واستدل أصحاب هذا الرأى بأنه لم يأخذ شيئا من ماله ، ولا أصاب من بدنه ما ينقصه فليس فى ذلك مظلمة يستحلها منه وإنما المظلمة ما يكون فى المال والبدن .

٢ - وذهبت فرقة أخرى : إلى أن الغيبة مظلمة ، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه ، واستدلوا على ذلك بما روى عن الحسن : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته .

٣ - وذهبت فرقة ثالثة : إلى أن الغيبة مظلمة ، وعلى صاحبها الاستحلال منها ، واستدلوا على ذلك بما أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أوشىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » .

والذى نرجحه : هو الرأى الثالث القائل : بأن على الذى اغتاب الاستحلال من غيبته لحديث البخارى ، فهو يدل على التحليل وحديث الرسول ﷺ هو الحجة والبيان الصحيح ولأن التحليل كذلك يدل على التعاطف والتراحم وهو من قبيل العفو . قال الله تعالى : ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ اللهم إلا إذا ترتب على الاستحلال خطأ شديد ، ومخافة أن يجر إلى اندلاع فتنة كبرى فإنه حينئذ يمسك عن الاستحلال حتى يواتيه الوقت الملائم له ويقوم بالتوبة والاستغفار لأخيه .

وأما الرأيان الأول والثانى : فنرى أن أصحاب الرأى الأول ينفون الاستحلال متعللين بأنه لم يصب مالا ولا بدنا فليس فى ذلك مظلمة والحق أن إجماع العلماء منعقد على أن على القاذف للمقذوف مظلمة بأخذه بالحد حتى يقيمه عليه وذلك ليس فى البدن ولا فى المال ، فهذا دليل على أن الظلم فى العرض والبدن والمال . وأما الرأى الثانى القائل أنها مظلمة يستغفر لصاحبها ففيه تناقض لأن قولهم « مظلمة » يثبتون ظلامة المظلوم وإذا ثبت لم يزلها عن الظالم إلا احلال المظلوم له وهذه الأحكام سارية فى سائر المظالم التى يتوب منها المسلم . وأما صاحب الهوى والفاسق المعلن فسقه والإمام الجائر فكل هؤلاء لا غيبة فى حقهم فإن من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له بل إن ذكرهم بما هم عليه يحذر ويكشف

عوارهم ، قال ﷺ : « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس » وإذا كانت واجبات الأخوة فى الـدين تقتضى تكريم المؤمن ونفى كل الرذائل عن دائرة نفسه ومجتمعه وتحتم احترام المسلم لأخيه ومساعدته له وعدم التعرض بما يسيئه فى نفسه أو ماله أو عرضه .

إذا كانت هذه وغيرها من أسمى المبادىء لتكريم الإنسان المسلم فإن الله تعالى قد وسع دائرة هذه الأخوة فلم يجعل للأسرة الإسلامية حدودا تحدها قرابة أو نسب أو زمان أو مكان أو بيئة أو مجتمع بل إن الإسلام فتح لأتباعه آفاق التعارف والتآلف .

واستهدف من وراء جعله لهم شعوبا وقبائل ، التعارف المثمر الذى يكمل بعضهم بعضا فى اطاره المشرق .

ولم يجعـل من اختلافهم فى اللون أو اللغة أو المال أو القوة سببا للتمايز والتعاظم ، فنفى أن تكون هذه الأسباب أصولا للتكريم أو قواعد للتعظيم وإنما جعل المعيار الحقيقى الذى توزن به منازلهم ودرجاتهم منحصرا فى شىء واحد هو (تقوى الله) .

قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ .

* * *

المجتمع المؤمن كما يصوره القرآن الكريم

للمجتمع المؤمن خصائصه ومقوماته ، ومعالمه وسماته ، التى تتحدد بها ملامحه ، وتتميز بها ذاتيته ، وقد ألقى القرآن الكريم الأضواء الكاشفة على مكونات هذا المجتمع ، فى صورته المشرقة بالعقيدة الصحيحة ، والعمل المخلص ، والخلق النبيل ، وأفرد له سورة من سور القرآن ، تحمل اسم الإيمان وهى سورة « المؤمنون » .

وتستهل السورة الكريمة ، حديثها عن المجتمع المؤمن فى شخصيته وخصائصه فتقرر الفلاح للمؤمنين الذين توافرت فيهم هذه الصفات التى ذكرها الله سبحانه وتعالى وهى تجمع بين العقيدة والعمل والخلق كما تجمع بين الفعل والترك .

ويقرر الله تعالى الفلاح للمؤمنين الذين اتصفوا بتلك الصفات ، أولا قبل أن يذكر صفاتهم ، وهذا وعد صادق بفلاحهم ، وظفرهم بالمراد أفرادا وجماعات فى الدنيا وفى الآخرة .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنين * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والـذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلـك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ .

وقد أخذت الآيات الكريمة فى تعداد تلك الصفات ، مكونة صورة واضحة الملامح لشخصية المؤمن كما أرادها الله تعالى ، وهى الصورة التى تمثلها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو القدوة الحسنة الذى ينبغى على كل مسلم أن يقتدى به ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ .

لقد تمثلها صلوات الله وسلامه عليه ، لأن خلقه القرآن ، ولأن الله قد أدبه فأحسن تأديبه . . أخرج النسائى أن السيدة عائشة رضى الله عنها سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » . . ثم قرأت : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ وقالت : هكذا كان رسول الله ﷺ .

وإن هؤلاء المؤمنين الذين يتكون منهم المجتمع المؤمن والذين قرر لهم ربهم الفلاح هم الذين جمعوا سمات الشخصية الإيمانية إلى جانب عقيدتهم وإيمانهم الصادق بالله سبحانه وتعالى . .

وتـأتى على قمـة أوصـاف المؤمنـين « صفة الخشوع فى الصلاة » قال الله تعالى : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمهـا فقـد هدم الدين والصلاة صلة بين العبد وربه ، فيها كف للعبد عن الفحشاء والمنكر . . ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ . . وفيها تكفير للذنوب وليس ذلك لأية صلاة يؤديها الإنسان حسبما اتفق . لا ، إنما ذلك خاص بالصلاة التامة الكاملة فى خشوعها وخضوعها وإخلاص مقيمها ، وقد عد بعض العلماء الخشوع من أعمال القلب كالخوف والرهبة ، وعده البعض من أفعال الجوارح ، كالسكون ، وترك الالتفات ، وعده الآخرون جامعا بين الأمرين ، أى بين فعل القلب وفعل الجوارح ، وهذا أولى ، فالخاشع فى صلاتـه ، يكون ساكن الجوارح ، لا يتحرك ولا يلتفت ، ناظرا إلى موضع سجوده ، ويكون فى غاية الخضوع والتذلل .

وقد روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، رأى رجلا يعبث بلحيته . فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه . . وخشوع الجوارح يكون بسكونها ، وعدم تحركها ، وعدم التطلع بالعين ، بل ينظر إلى موضع سجوده ، ولا ينظر إلى أعلى ولا إلى أية جهة أخرى ، روى الإمام مسلم ـ بسنده ـ عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة أولا ترجع إليهم » . . وفى هذا نهى وتهـديد يفيد التحـريم . وقـال ابن حزم : تبـطل به الصلاة . وقال القاضى عياض : واختلفوا فى غير الصلاة فى الدعاء ، فكرهه قوم ، وجوزه الأكثرون .

وبعد أن وصفهم بما يفيد حسن علاقتهم بالله تعالى ، وعظيم فعلهم فى العبادة من الخشـوع فى الصلاة ، أتبع ذلك الوصف بالإعراض عن اللغو ، وذلك ليجمع لهم بين الفعـل والـترك الشـاقـين على الأنفس ، والفعـل والترك هما قاعدتا بناء التكليـف ، قال سبحـانـه : ﴿ **والـذين هم عن اللغـو معـرضـون** ﴾ . . ذلـك لأنهم مشتغلون بالجـد والاجتهاد . ومنصرفون للعمل والعبادة . وقد قيل فى معنى اللغو : أنه كل ما كان حراما أو مكروها أو مباحا ، ولكن لا يكون بالمرء ضرورة إليه ولا حاجة . وقيل : إنه عبارة عن كل ما كان حراما فقط . وقيل : إنه عبارة عن المعصية فى القول والكلام خاصة . وقيل : إنه المباح الذى لا حاجة إليه . ومن اللغو ما يكون كفرا كقوله تعالى : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القـرآن والغـوا فيـه** ﴾ وقد يكون كذبا كقوله تعالى : ﴿ **لا تسمع فيها لاغية** ﴾ وقوله :

﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ﴾ . . وقد مدح الله تعالى عباده المؤمنين الذين سماهم « عباد الرحمن » ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ .

وفى هذه الآيات الكريمة نرى أن الله سبحانه وتعالى قد وصف عباده المؤمنين المفلحين ، بأنهم معرضون عن اللغو ، والإعراض عن اللغو يكون بعدم فعله وعدم الرضا به وعدم مخالطة من يفعله ويأتيه .

وفى الكثير من آيات القرآن لم يكن هناك فصل بين الصلاة والزكاة ولكن فصل بينهما بالإعراض عن اللغو ليشير إلى أنه من متممات الصلاة .

وبعد أن وصفهم بالخشوع فى الصلاة وصفهم بفعل الزكاة وأدائها ليوضح أنهم بلغوا الغاية فى القيام بالعبادات البدنية والمالية . وفى الزكاة تكافل اجتماعى وتأمين لحقوق العاجزين والمحتاجين ، إلى جوار ذلك فيها تطهير للمال وتطهير لنفس المزكى وتطهير لنفس الفقير .

أما تطهير المال فيكون بإخراج حق الفقراء والمحتاجين منه ، فيكون الباقى منه حلالا طيبا ، وأما تطهير نفس المزكى فمن آفة الشح والبخل ، وتطهير نفس الفقير من آفة الحقد على الغنى ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ .

ويقول ابن كثير : الأكثرون على أن المراد هنا زكاة الأموال ، مع أن هذه الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التى فرضت بالمدينة هى ذات النصب والمقادير الخاصة وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة قال الله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ . وعن الشعبى : هذا حق فى المال سوى الزكاة ، وبعد أن بينت الآيات ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون من صلة بالله وصلة بالمجتمع ومن عبادة بدنية وعبادة مالية أخذت فى وصفهم بالعفة والطهارة ووقاية البيت الزوجى وحفظ الأسرة والمجتمع من التوحل فى الفاحشة .

إن صيانة العرض ، والتجمل بالعفاف سمة المؤمنين المفلحين ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ والمعنى : إلا من أزواجهم . وقيل : إلا والين على أزواجهم ، أو قوامين عليهم ، ونرى أن الآية الكريمة لم تستثن إلا الزواج والتسرى ، وما عدا ذلك فهو داخل فى دائرة الحرام بشتى صوره ومختلف أشكاله ، من زنا ولواط ، واستمناء باليد ، أو غير ذلك من مباشرة الشهوة وعدم حفظ الفرج .

ثم تأتى الصفة التالية ، مبينة أهم ما تستقيم به حياة المجتمع الإنسانى ، وذلك بإرساء أساس الأمن والطمأنينة والثقة والاستقرار ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ .

وتتناول الأمانات كل ما يمكن تركه داخلا فى الخيانة ، فمن ذلك التكاليف الشرعية ، والودائع ، وما أشبه ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم** ﴾ . .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن أشد الناس خيانة من لم يتم صلاته » . وأما العهد فهو ما عقده الإنسان على نفسه مما يقربه إلى ربه ، ويطلق أيضا على ما أمر الله تعالى به ، ويدخل فى العقود والأيمان ، وبالجملة فالمراد بالأمانات والعهود : ما كان منها فى جانب الخلق . . وقد أوضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه أهمية الأمانة فى الإيمان ، عن أنس قال : ما خطبنا رسول الله إلا قال : « لا إيمان لمن لا عهد له » [1] . .

كما أكد القرآن الكريم على الوفاء بالعهد ، قال الله تعالى : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا** ﴾ .

وكما بدأت صفات المؤمنين بالصلاة ، فقد ختمت بالصلاة أيضا ، لبيان أهمية هذه الفريضة ، ومكانتها العظيمة فى الإسلام ، وقد عبر فى جانبها بالفعل فى قوله : ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ ، لأن فى الصلاة تجددا وتكرارا ، فهى خمس صلوات فى اليوم والليلة . . وليس فى إعادة ذكر الصلاة فى ختام هذه الأوصاف تكرار ، لأن الخشوع والمحافظة متغايران وليسا بمعنى واحد ، فالخشوع صفة للمصلى فى حال أدائه لصلاته وأما المحافظة فالمراد بها : التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما ، والقيام بأركانها وإتمامها حتى يكون ذلك دأبه دائما وأبدا .

وبعد هذه الصفات التى حددت شخصية المجتمع المؤمن كما يصورها القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ **أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ . . وقد يتبادر هنا سؤال : وهو أن الصفات المذكورة لم تستوعب جميع العبادات والمأمورات والمنهيات ، فكيف استحق أصحابها الفلاح ؟ . . وللإجابة على هذا نقول : إن فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ بيانا مجملا لجميع الواجبات والمأمورات والمنهيات ، ولذا فقد كان الوعد بجنة الفردوس ، والفردوس أعلى الجنة كما قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه « سلوا الله الفردوس فإنها أعلى الجنة » . . وإذا كانت تلك هى خصائص المجتمع المؤمن كما أوضحها القرآن وأرستها السنة

---

(١) رواه أحمد .

الصحيحة فما بال أولئك الهدامين ينادون بخصائص لا تثبت على الحق ، ولا تتلاقى مع المبـادىء القـويمة ؟ . . وما بالهم بعد أن أثبتت تجاربهم فساد مذاهبهم المادية المنحرفة ، يستمرون فى الدعوات الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين ؟ ألم يأن لهم أن يثوبوا إلى الرشد ويرجعوا إلى عقيدة الإسلام الصحيحة وقيمه الرائدة التى صاغت المجتمع المؤمن الذى حقق النصر ونشر قوانين العدالة والأمن ، والسعادة والرخاء .

هذا هو نداء الحق : ﴿ **فأمـا الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ .

* * *

رسـالة المجتمع المـؤمن فى جهـاده

إن رسالة المجتمع المؤمن تتركز فى جهاده بالنفس والمال والكلمة لإقرار الحق ونشر الـدعـوة الإسلامية ومقاومة القوى المناوئة للإسلام والمسلمين ، ولقد وضح القرآن قيمة الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال فقال الله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ . وفى سبب نزول الآية الكريمة روى عن عبد الله بن رواحة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ - يعنى ليلة العقبة عندما قيل له : اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقـال أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك قال الجنة ، قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ . وسواء قتلوا أو قتلوا ففى الصحيحين : « تكفل الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيله ونصديق برسله إذا توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج نائلا ما نال من أجر أو غنيمة ولا أحد أوفى عهدا من الله فليستبشر كل من قام بما يقتضيه العقد ، وذلك هو الفوز العظيم » .

وقد وصف الله تعالى المؤمنين المجاهدين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله تعالى ، يصفهم بفضائل كريمة وخلال عظيمة ، هذه الصفات هى أنهم يهجرون الآثام والذنوب فإنهم تائبون إلى ربهم وراجعون إليه وأنهم مخلصون لله حامدون لله شاكرون لأنهم قائمون بالعبادات على أكمل وجه ولا يقتصرون على إصلاح حالهم فحسب ، بل إنهم يصلحون أحـوال الغـير : فى العمل والتوجيه والقدوة فاستحقوا البشارة من الله على اخلاصهم فى عقيدتهم وجهـادهـم وإيمانهم : ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ ولقد تحدث القرآن عن سمات هؤلاء المؤمنـين كنـماذج تمثـل القدوة الفاضلة الحسنة فى الإيمان والعمل والسلوك فقال تعالى : ﴿ **التـائبـون العـابـدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾ .

وفى نفس السورة الكريمة توضح الآيات أن المؤمنين ما كانوا لينفروا جميعا ويتركوا الرسول صلوات الله وسلامه عليه بل تنفر من كل فرقة منهم طائفة - وهى السرايا - حتى

يعلموا ما أنزل الله على نبيه ويعلموا السرايا عندما ترجع إليهم ، وقد كان الرسول ﷺ إذا بعث الجيش أمرهم أن يغزوا وأن تقيم طائفة معه لتتفقه فى الدين وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرهم : ثم أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا أعداءهم من الكفار الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولذلك بدأ الرسول ﷺ وقاتل المشركين فى جزيرة العرب فلما فرغ منهم ودخل الناس فى دين الله أفواجا شرع فى قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب إلى جزيرة العرب وأشار إلى أهمية الغلظة عليهم بقوة القتال .

قال الله تعالى تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون * يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ وقد وضح الله تعالى أحوال الناس عندما تنزل سورة ، فالمنافقون يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما المنافقون فزادتهم شكا على شكهم .

وإن أمر أولئك المنافقين لعجيب فى بعدهم عن الهداية حيث تنزل السورة فيتلفتون ثم ينصرفون عن الحق صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ، عن هذا كله يتحدث القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون * وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون** [1] ﴾ .

وهكذا نرى كيف رسم القرآن الكريم الطريق إلى عزة المؤمنين ووجوب الجهاد والدفاع عن عقيدتهم ووطنهم الإسلامى ، ووجوب اليقظة التامة لما يكون من الذين فى قلوبهم مرض من المنافقين الذين يظهرون فى كل زمان ومكان .

ويختم القرآن الكريم سورة التوبة بامتنان الله على المؤمنين برسوله الذى أرسله من جنسهم وبلغتهم ويعز عليه عنتهم وهو حريص على هدايتهم رؤوف رحيم بهم فإن أعرضوا عما جاءهم به من الشريعة السمحة فإن الله يأمره بأن يعلن توكله على الله فهو حسبه ، فهو خالق كل شىء ، ومالك كل شىء ، وهو رب العرش العظيم .

وقال سبحانه : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** ﴾ .

---

(١) سورة التوبة (١٢٤ ـ ١٢٧) .

العمـــل فى ضـوء القـــرآن الكـــريم

الإيمان والعمل . . هما الأساسان الأصيلان فى الإسلام ، والمتصفح لآيات القرآن الكريم التى تحدثت عن الإيمان يرى الحديث بعده مباشرة عن العمل ، فالإيمان بلا عمل لا أثر له والعمل بدون إيمان لا وزن له وخلاصة التوجيه الإسلامى تتركز فى الإيمان والعمل أو فى العقيدة السليمة والأعمال المستقيمة التى يتسم صاحبُها بالاستقامة على الجادة .

عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت لرسول الله ﷺ قل لى فى الإسلام قولا لا أسـأل عنـه أحـدا بعـدك ؟ قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » . . وقـد صور القرآن الكريم وعد الله تبارك وتعالى الذى لا يتخلف وهذا الوعد يتركز بالفوز بجنات تجرى من تحتها الأنهار إنه فوز دائم بلا زوال لأولئك الذين جمعوا بين العقيدة السليمة والعمل الصـالح وتلك هى القاعدة الصحيحة التى يترتب عليها الجزاء فى الآخرة لا كما يدعى البعض أنه بمجرد التمنى ، وفى الآيات توضيح وتبسيط لقضية الإيمان حيث يقول الله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملو الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا * ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجـز بـه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا * ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا * ولله ما فى السموات والأرض وكان الله بكل شىء محيطا** ﴾ [٢]

وفيما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى بكر بن أبى زهير قال : أخبرت أن أبا بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية . . ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به** ﴾ **فقال النبى صلوات الله وسلامه عليه** : « **غفر الله لك** يا أبا بكر ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء » ؟ إن الذى يعمل سوءا يجزى بها عمل وليس من أحد يحفظ الإنسان أو يرد عنه العذاب أو يمنعه منه إلا الله . وبعد أن وضح سبحانه وتعالى الجزاء على السيئات ذكر الجزاء على العمل الصـالح موضحا كرامته واحسانه وقبول الأعمال الصالحة من العباد من الذكور والإناث بشرط الإيمان وأنهم بذلك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ، وهو قدر نقرة النواة . .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة النساء (١٢٢ ـ ١٢٦) .

ثم وضح القرآن الكريم شرطين أساسيين لصحة العمل أولهما ، اخلاص العمل لله بإحسان الوجه لله وثانيهما أن يتبع فى كل ما يأتيه من أعمال ما شرعه الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ .

وذلك أن اتباع الدين القيم والبعد عن غيره يقتضى من الإنسان المسلم استقامة السلوك وتطبيق العقيدة بالعمل ومقاومة كل موجات التحلل وكل تيارات الإلحاد والانحراف التى تطفو على سطح الحياة بين فترة وأخرى متشكلة بأشكال مختلفة ومتقنعة بقناع الحضارة تارة ومتسترة باسم الثقافة تارة أخرى .

وتأكيدا للترغيب فى اتباعه بين الله تعالى أن إبراهيم عليه السلام صفى الله خالص المحبة له وذلك بقوله : ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلا** ﴾ . . وتختم الآيات الكريمة مطافها فى الحديث عن قضية الإيمان بالعمل وعن قبول العمل والجزاء عليه ببيان أن الله له ـ وحده ـ ملك السموات والأرض يتصرف فيه كيف يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وأنه محيط بكل شىء لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . ومتى وقفت النفس البشرية على هذه الحقيقة القرآنية فهى لابد أن تعمل لإرضاء الخالق القادر المحيط بكل شىء .

وفى ظل هذا العمل وفى جو هذه الطاعة التى ترتبت على الاعتقاد الصحيح المثمر . فى هذا كله صلاح للمجتمع الإسلامى كله بأثره فى سلوكه وفى سائر الأعمال والعلاقات : ﴿ **لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطا** ﴾ . .

ولقد أكد القرآن حقيقة الجزاء على العمل فى مواضع عديدة موضحا أن لكل إنسان جزاء عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر . . قال الله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال شرا يره** ﴾ . . وحقيقة العمل تختلف من إنسان لآخر فبينما يكون إنسان على الجادة ويتبع الحق ويعمل له . . نرى آخر ليس على الجادة . . أو يحاول أن يظهر كذلك والاختلاف بين الاثنين واضح وجوهر الحقيقة الفاصلة إنما هو العمل لأنه التطبيق الفعلى الذى يميز بين السلوكين ، بل قد تختلف حقيقة العمل وقضيته لا بين إنسان وآخر بل بين الإنسان نفسه ، فى بعض أوقاته ، وفى بعض أعماله ؛ فيكون فى بعض الأعمال محسنا للعمل مجيدا له . . وفى البعض الآخر ليس كذلك ولكنه يحاول تبرير موقفه وإقناع نفسه وانتحال الحيل والمبررات بأنه حسن العمل والسلوك .

ولكن الإسلام يجعل الدرجة الرفيعة فى الإحسان هى كما جاء فى الحديث : « **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » . . وما دام يضع فى قلبه وفى ذاكرته وفى حسه أن الله مطلع عليه ويراه فلابد أن يحسن العمل وأن يخلص الوجهة لله رب العالمين .

منهج الإسلام فى بناء المجتمع

إذا كان منهج الإسلام فى بناء المجتمع قد تدرج من حفظ حرمات المسلم إلى الدفاع عن شخصيته ، ثم إلى أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه ، وارتقى فى بناء شخصيته إلى دور الإيثار . إذا كان منهج الإسلام فيما دعا إليه قد اشتمل على كل هذا ، فإنه هنا يضع أصولا هامة على أساسها تتكون الشخصية المثالية ، وتأخذ دورها فى الحياة أخذا وعطاء وتتوثق صلتها مع الله سبحانه وتعالى ، ومع المجتمع الإسلامى ، وذلك بتقوى الله .

وفى تعداد أوصاف المتقين ، الذين وصلوا بأعمالهم إلى مراقى الفلاح ، والذين كونوا بمثالياتهم الفذة ملامح الشخصية الإسلامية ، أبرز القرآن الكريم من السمات ومن الركائز ، ما تدور عليه سعادة الفرد والجماعة من العمل البدنى والعمل المالى والناحية النفسية كالانفاق وعدم الإضرار ، وكظم الغيظ ، والإحسان ، يصور هذا قول الله تعالى : **﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾** . (١)

وهكذا أطلعتنا هذه الآية الكريمة على خمس سمات إذا تكاملت تكون الشخصية المثالية : **﴿ الذين ينفقون فى السراء والضراء ﴾** ، فهم سواء فى حالة الرخاء وفى حالة الشدة ، وهنا لفتة حكيمة حيث بدأت صفات المتقين بالانفاق وذلك لسببين : أولا لمقابلته بالربا الذى نهى الله عنه فى آية سابقة ، حيث قال : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾** فإذا كان فى الربا استغلال من الغنى للفقير ، وانتهاز لحاجته وفاقته لأكل ماله بغير وجه حق ، فإن فى الصدقة مساعدة للفقير وعونا له ، لا يبتغى على ذلك جزاء ، وهذا دليل على صدق الإيمان وبرهان على قوة اليقين ، ولا يجعلهم اليسر فى بطر ولا يوقعهم العسر فى القنوط ، فهم لا يقتصرون فى تعاونهم على حالة الرخاء والنعمة بل هم فى الحالين سواء ، فلما كان الانفاق أدل على التقوى وأعظم نفعا للمجتمع الإنسانى من سائر الأعمال الأخرى استهلت الآية الشريفة موكب المتقين

---

(١) سورة آل عمران (١٣٣ - ١٣٦) .

وملامح الشخصية الإسلامية بالانفاق ، وتنتقل بنا الآيات من جانب الانفاق والتكافل الاجتماعى إلى الناحية النفسية : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ فشخصية المسلم تظهر فى قدرته على ضبط النفس ، وحبس الغيظ بالصبر عند ما يهضم له حق ، أو ينال منه أحد ، فيكبح جماح نفسه ولا ينزلق فى الشر ولا يشعل الفتنة . . ثم يرقى الإسلام بنفس المسلم ، فبعد أن أطفأ جذوة الشر التى تكاد تندلع ، وذلك بكظم الغيظ انتقل بالمسلم إلى درجة أسمى فيها معالجة للنفس ، وارتفاع إلى مرتبة أسمى من السابقة ، فقد يكظم الإنسان غيظه ، ولا يزال فى قلبه شىء من الضغينة أما العفو فيمسح ما بقى من الشر حتى يعود القلب نقيا .

وفيما رواه الطبرانى عن عبادة بن الصامت قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع الدرجات ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : تحلم على من جهل عليك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك » . .

ثم تنتقل الآيات إلى مرتبة أسمى : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ وإذا كان العفو منزلة فوق العدل ، كان عند بعض العلماء احسانا وعلى هذا فمعنى : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ أى الذين أحسنوا فى معاملتهم وعفوهم ، وفى هذه الآية كذلك سمة أخرى يبلغ بها المسلم قمة المثالية ، بحيث لا يكتفى بكظمه غيظه أو عفوه فحسب بل إنه يحسن إلى من أساء إليه . وقد روى أن بعض السلف غاظه غام له غيظا شديدا فهم بالانتقام منه فقال الغلام : والكاظمين الغيظ فقال : كظمت غيظى . قال الغلام : والعافين عن الناس قال : عفوت عنك . قال : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ قال اذهب فأنت حر لوجه الله . ثم تطوف بنا آيات القرآن فتكشف عن الطبيعة البشرية وأنها عرضة للخطأ والزلل ، وهنا تبدو شخصية المسلم ، بالمسارعة إلى الرجوع لربه والتوبة النصوح : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ وأن سماحة الإسلام لا تدعهم فى مؤخرة القافلة ، بل ترفعهم إلى مصاف التوابين المنيبين . بهذه المعالم المتميزة ترتقى شخصية المسلم ، ففى جانب المال ينفق فى السراء والضراء شاكرا الله على نعمته ويبرهن على صدق عقيدته ولا يخشى من ذى العرش اقلالا ، وفى الجانب النفسى يتحلى بضبط النفس وبالعفو عمن ظلمه ، وبالإحسان إلى من أساء إليه ، وفى جانب المعصية والمخالفة لا يجعل للشيطان سلطانا عليه ، فإذا مسه طائف من الشيطان تذكر فيشق الطريق إلى ربه ، ويثوب إلى رشده ويتوب لله الغفور الرحيم .

إن شخصيته هنا تتغلب على الشيطان ، وعلى هوى النفس الأمارة بالسوء وتظل قوية بالله ، تسرع بالإنابة إليه .

ومن أهم ما يقوم به المسلم من واجبات تعبيرا عن عقيدته ، والتزاما بواجبات دينه النصح ، إذ أنه فى حب الخير لنفسه أو للغير يجب عليه أن يقبل نصيحة من ينصحه فى الخير ، وأن يقوم بنصيحة غيره من الناس . وشخصية المسلم فى قبول النصيحة وفى العمل بها تظهر حين يرى ما كان عليه من باطل أو شر ثم يستمع إلى نصيحة أخيه المسلم فإذا به يسرع باجابته ، ويثوب إلى الرشد وإلى الصواب ويقلع عن الشر ويقدم على الحق والخير ، ويرى أن الرجوع للحق فضيلة وأن التمادى فى الباطل رذيلة إذ ليس معنى شخصية المسلم الجمود على ما هو عليه حتى وإن كان على غير الحق ، لأن هذا الجمود ، وعدم الاستجابة للنصيحة هدم لبناء الشخصية ومسخ للصورة الحقيقية التى ينبغى أن يكون عليها المسلم من معرفة الحق واتباعه ، ومعرفة الباطل واجتنابه ، ولطالما ظلم المستبدون بالرأى مفهوم الشخصية وأساءوا التمثيل بها ، فظنوا أن الوقوف عند رأيهم وإن كان غير صواب من معانى الشخصية ، فمنهم من دافع عن رأيه وتشبث باقتناعه ، وأحس أن فى رجوعه عنه ظهورا بالضعف أو رميا بالجهل والنقيصة وأما شخصية المسلم فى القيام بالنصح ، فذلك بأن يقول الحق ولو على أقرب الناس إليه ، وألا يخشى فى الله لومة لائم ، إنه يبذل النصيحة لله سبحانه وتعالى ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم . .

* * *

الإســلام وتوثيق العــلاقات

ومن أهم ما يميز المسلم قدرتـه على توثيق العـلاقـات الإنسـانية والاجتـماعية ، بينه وبين مجتمعه الذى يعيش فيه ، وللعلاقات الطيبة النقية أثرها الكريم فى غرس المودة فى النفوس ، واشاعة الخير فى المحيط الإنسانى ، وفى دائرة العلاقات ، يظهر أثر الإنسان فى الغـير ، كما يظهـر أثـر الغـير فى الإنســان ، ولهـذا نجد الإسلام قد دعا إلى اختيار الأصدقاء ، وتمييز الأخلاء ، ففيما رواه أبو داود يقول الرسول ﷺ : « **فلينظر أحدكم إلى من يخالل** » . .

وللبيئـة تأثـيرهـا فى سلوك الإنسان وعلاقاته ومعاملاته ، فإن كانت البيئة صالحة ترعرعت فيها الصداقة وازدهر فى جوانبها العلاقات الطيبة ، وكان لها أكبر الأثر فى إصلاح السلوك ، وتقـويم المعـوج وإرشاد الضال ، ومساعدة المحتاج ، واعانة الضعيف ، وإن كانت فاسـدة فقـد يمـرض فيها الصحيح ، ويضل فيها الصالح ، ففى جوها الملبد ، ومناخها الخانق لا تستطيع أن تتنفس الفضائل ، وفى أرضها المجدبة ، لا تنمو العلاقات الكريمة إلا قليلا . . وكم رأينا من نفوس صالحة أفسدتها البيئة الضالة ، ونفوس ضالة أصلحتها البيئة الرشيدة . .

وللجليس الصالح والجليس السوء أثر بالغ على من يجالسه . . روى الإمام أحمد ـ بسنده ـ عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « **إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير . . فحامل المسك إما أن يحذيك ـ أى يعطيك ـ وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد ريحا طيبة . . ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحا خبيثة** » .

وللعـلاقـات السيئـة نهايتهـا الأليمة ، وعاقبتها الوخيمة ، فهى تجر على صاحبها الـويلات والخطوب ، وتجعله ينظر للحياة بمنظار قاتم ، لا يبصر ما فى الحياة من معان إنسانية ، وكأنه لا يرى المجتمع إلا من خلال تلك العلاقة الهابطة ، والأسباب الرخيصة ، فلا يخف للعمـــل بإخـلاص ، ولا يطمـح إلى الآمـال النـاضرة التى تملأ الحياة بالجـد والاجتهـاد ، وجـانب الإخلاص فى علاقته مع قرناء السوء مفقود . . وشخصيته متفتتة تذروها رياح الأهواء ونزعات النفس الأمارة بالسوء . . ومظهره غائم كمخبره ، لا يستطيع

الإنسان أن يصفه بسلوك معين أو أن يميزه بسمة واضحة ، فهو غير مستقر فى حياته ، لأنه فقد أهم أسس الاستقرار والرشد . . لقد فقد مقتضيات العقيدة الصحيحة التى تربطه بربه الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى يعلم سرهم ونجواهم ، قال الله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

وإن موقف أقرناء السوء فى الآخرة ، موقف العداوة بينهم ، فيومها يشعرون بسوء علاقتهم ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ . وقد صور القرآن الكريم نهاية من أضله خليله ، فتمسك بحبال الشيطان ، فندم حيث لا ينفع الندم وتحسر على علاقة السوء . . قال تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ .

هذا وقد سلك الإسلام بأتباعه سبيل التعاون فى علاقاتهم ، وأرسى مبادىء الود والتواصل بين المسلمين ، فشرع الهبة والهدية ، جبرا للقلوب ، وغرسا لأسباب المحبة والألفة بين الناس ، كما حث على قبول الهدية الخالصة النقية التى لا تشوبها شائبة ، إذ أن لها أثرها فى اقتلاع جذور الشر والكراهية وتنقية النفوس من المشاعر السيئة ، وقد أعلن رسول الله ﷺ قبول الهدية مهما قلت ، وإجابة دعوة من دعاه ، روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لو دعيت إلى ذراع أو كراع لقبلت » . .

وكان ﷺ يكافىء على الهدية لتظل أسباب المودة موصولة ، وليظل التواصل وتبادل المنافع والتعاون على البر والتقوى ، فكل ذلك من أهم ما ينعش العلاقات ولا سيما بين الجيران . . روى البخارى بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » .

ومن أهم قوانين الإسلام فى تنقية العلاقات وإبراز الشخصية الإسلامية فى صورتها الكريمة المخلصة الإصلاح بين الناس ، قال الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ . . والعلاقات الإنسانية والاجتماعية متسعة الجوانب ، متشابكة الفروع ، إنها تشمل علاقات الأقارب والجيران والضيوف والغرباء وعلاقات أفراد المجتمع بكل دوائره ومؤسساته وعلاقات المجتمعات بعضها ببعض . . وهكذا ، وفى ضبط سيرها وحسن اتصالها ما يظهر البيئة الإسلامية فى صورتها المشرقة ويضفى على شخصيتها المهابة والتقدير ، ومن حسن السمت ما يجعلها بيئة خصبة مترعة بالفضائل ، دفاقة بالحق والخير . .

الإســـلام فى القــرآن الكــريم

قال الله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحسـاب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما علينا البلاغ والله بصير بالعباد** ﴾ [1] .

لهاتـين الآيتين ارتباط بما سبقهما من آيات ، فقد امتدحت الآيات السابقة لهاتين الآيتـين أحباب الله وأصفياءه الذين اتبعوا الدين وساروا على النهج المستقيم كما أبرزت ما كان عليه أعداء الدين من الكافرين والجاحدين فبعد أن بينت الآيات هذا كله عقب سبحـانه على ذلك ببيان الدين الحق والعروة الوثقى فقال تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ ثم أكد الله تعالى قضية التوحيد ، مبينا أن الدين الذى ارتضاه هو الإسلام ولا يرضى غيره ، فقال تعالى : ﴿ **إن الـدين عنـد الله الإسـلام** ﴾ وهـو يتناول فى إطلاقه جميع الرسالات التى جاء بها الرسل ، لأنه روحها الكلى الذى اتفقت فيه على اختلاف فى بعض التكاليف والأعمال ، وشرع الله تعـالى الدين لتصفية الروح والعقل من أى شائبة من الشوائب فيسلم العقل وتسلم الروح من أية خرافة تتراءى أو اعتقاد مزيف يمكن أن يكون ، كما شرع الله تعالى الدين ليصلح الظاهر والباطن والقلب والعمل والسلوك والنية ، أخرج ابن جرير عن قتادة قال : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله ، وهو دين الله تعالى الذى شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه** ﴾ .

والدين يشمل العقيدة والشريعة والأخلاق التى شرعها الله لعباده وقد جاءت كل الـرسـالات والأديان به ﴿ **شرع لكم من الـدين ما وصى به نوحـا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾ . .

---

(١) سورة آل عمران (١٩ ، ٢٠) .

وقد روى على بن إبراهيم عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال فى خطبة له : « لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلى ، الإسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ، ثم قال : إن المؤمن أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه ، إن المؤمن من يعرف إيمانه فى عمله ، وإن الكافر يعرف كفره بانكاره ، أيها الناس دينكم دينكم فإن السيئة فيه خير من الحسنة فى غيره إن السيئة فيه تغفر وإن الحسنة فى غيره لا تقبل » .

﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم** ﴾ وقد قيل : إن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، أو من أرباب الكتب المتقدمة وقيل : هم قوم موسى اختلفوا بعده ، وقيل : هم النصارى اختلفوا فى أمر عيسى عليه السلام ، والأظهر أنها عامة تشمل الجميع ، فلا تختص بفريق دون غيره . . وما كان هذا الاختلاف إلا بعد وضوح الأدلة ، ومعرفة الحقيقة ، وكان مبعث هذا الاختلاف هو الحسد فيما بينهم وطلب الرئاسة ، فلم تكن هناك شبهة أو أمر خفى عليهم ومن هنا فقد كان لهم هذا الوعيد الشديد على كفرهم واختلافهم : ﴿ **ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب** ﴾ والمراد بآيات الله : الحجج ، وقيل : التوراة ، وقيل : هو الانجيل ، وقيل : القرآن ، وقيل : آياته الناطقة بأن الدين عند الله الإسلام ، والأظهر أنها عامة تشمل أى آية كانت ، وشرعة الحساب هنا تقتضى احاطة العلم والقدرة ولذا أفادت هذه الجملة الوعيد ولم يقل « ومن يكفر بالآيات » أو من يكفر بآياته بل نص على إظهار اسم الله فقال : ﴿ **ومن يكفر بآيات الله** ﴾ وذلك لبيان المهابة وإدخال الروعة وتعظيم الأمر . وفى هذه الآية من العظات ما ينبغى الوقوف عندها فإن الواجب علينا أن نبتعد عن مواطن الخلاف فى الدين وألا نتفرق شيعا وأحزابا فإن نهاية التفريق الخذلان ﴿ **فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن** ﴾ أى إن جادلوك بعد بيان الحق واقامة الأدلة والبراهين الساطعة ﴿ **فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن** ﴾ أى أقبلت عليه بكليتى ، وإنما عبر بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس ﴿ **فإن أسلموا فقد اهتدوا** ﴾ حيث أخرجوا أنفسهم من الظلمات إلى النور ومن الجهالة والضلالة إلى العلم والهداية . أما إذا أعرضوا فإن إعراضهم لا يضيرك فى شىء فما على الرسول إلا البلاغ والله تعالى هو البصير بعباده يعلم المهتدى منهم فيكون له الوعد جزاء هدايته ، ويعلم الضال منهم فيكون له الوعيد على ضلاله ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم** ﴾ ؟ استفهام للتقريع . .

وفى هذه الآية ما يدل على أنه ليس عليهم بمسيطر وأنه لا يكره أحدا على الدخول فى الدين ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾ . . وقد روى فى سبب نزول هذه الآية أنه كان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث الرسول ﷺ ثم قدما المدينة فى نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما أبوهما وقال : لا أدعكما حتى تسلما ، فاختصموا إلى النبى ﷺ وقال : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ .

والناظر إلى الدعوة الإسلامية وسيرها عبر التاريخ يجد أنها قامت بدعوة الناس إلى الإسلام ، وأن الرسول ﷺ لم يكره أحدا ولم يحمل السلاح على أحد للدخول فى الإسلام بل كان يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة .

إعـداد القـوة لمجـابهة الأعداء

هناك عامل من أهم عوامل النصر وهو إعداد القوة التى أمر بها القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ . .

وإعداد القوة يعنى الاستعداد الكامل بكافة القوى المادية والمعنوية ، وفى ذلك تأهب للزحف المؤمن بكل جنوده الصابرين المحتسبين حتى يحقق الله تعالى النصر الذى وعد به عباده المخلصين . . قال تعالى : ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين** ﴾ . .

والقوة تشتمل على قوة المبدأ وقوة الإعداد والسلاح وقوة المواجهة . .

أما قوة المبـدأ : فهى تعنى عدالة القضية التى وضح حقنا فيها أتم وضوح أليس واجبنا محتما أن يهب صاحب الحق باسترداد حقه وإرجاع أرضه السليبة ؟

لذا كانت المعركة التى نخوضها الآن معركة دينية قومية إنسانية . والإيمان القوى بالمبدأ القوى يقتضى الثبات عليه والشجاعة والدفاع عنه والقوة التى تتمثل فى المبدأ هى الروح المتضافرة التى يتصل شريان الحياة فيها بكل أعضاء الأمة ويتجلى صمودها فتأبى المساومة والمراوغة .

ولقد ضرب الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه مثلا عليا فى ذلك حيث بعث أعداء الدعوة إليه أحد ساداتهم عتبة بن ربيعة يساومه ويقول له : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة والمكان فى النسب وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فأجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه : قل يا أبا الوليد اسمع . قال عتبة : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت

تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده من نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانتظر حتى انتهى ثم قال له : أوقد فرغت يا أبا الوليد فقال عتبة : نعم . . فقال الرسول ﷺ : فاسمع منى : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذانناوقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين** ﴾ إلى أن بلغ قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ فخر ساجدا وعاد إلى القوم ينصحهم بأن يتركوا الرسول وصحبه فسيكون له شأن عظيم وأنه على الحق المبين . وهكذا رسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه قوة المبدأ وعلم أمته كيف يكون احترام اقتناع المرء لمبدئه ما دام على حق مهما كلفه ذلك من جهد وعناء . .

إنه الذى رفع الشعار المشرق بذلك فى قولته المشهورة المأثورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وأما قوة الإعداد والسلاح : فهى تشمل ما تحشده الأمة من عدد وعدد فحيث يكون النفير العام فواجب كل مكلف مستطيع للقتال ألا يتخلف عنه وإنما يعد نفسه جنديا ينتظم فى صفوف المجاهدين والمرابطين ، وأن يقدم الجهاد على محبة كل ما فى حياته من أهل ومال دفاعا عن عقيدته وأمته ، وقد توعد الله أولئك الذين يفضلون محبة الأهل أو المال عن الجهاد كما يجب حشد كل ما تستطيعه الأمة من أسلحة قوية تتكافأ وتتناسب مع الزمان والحال ، والآية الشريفة حينما طالبت بالإعداد لم تحدد نوع القوة وإنما أطلقتها حسب الاستطاعة ثم عطفت عليها ما كان متناسبا مع الزمن ﴿ **وأعدوالهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾ .

ومن المعلوم أن القوة تختلف باختلاف الزمان وقد روى مسلم فى صحيحه عن عقبة ابن عامر أنه سمع النبى ﷺ وقد تلا هذه الآية على المنبر يقول : ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى ، وإطلاق كلمة الرمى بهذا العموم يشمل كل ما يرمى به من مختلف أنواع الأسلحة وأدوات القتال من سهم أو رصاصة أو قذيفة حسب ما يتناسب مع استطاعة الجيش فى الزمان والحال ، ومن هنا كان من الواجب تعلم كل أنواع الفنون

الحربية ، والصناعات اللازمة لذلك من باب ما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب ، وقد أثر فى الصدر الأول وعند سلفنا أنهم استعملوا المنجنيق فى بعض الغزوات كغزوة خيبر وغيرها .

وفى سبيل إعداد القوة يجب بذل المال فى سبيل الله وقد تكفل الله تعالى بجزاء من ينفق فى سبيله : ﴿ **وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ . . وذلك لأن الانفاق فى سبيل الله يعمل على تأمين جبهة المسلمين لتقوية العدة التى يقاومون بها عدوهم ، وفى هذا أمان للدعوة وأمان للوطن ، أما عدم الانفاق ففيه تعريض الأمة للهلاك كما قال تعالى : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ .

وأما قوة المواجهة : فهى تشمل الثبات فى ساحة القتال وقوة الثقة فى الله فتكون كثرة ذكر الله تعالى . . حتى لا يتسرب الغرور إلى جو القتال وحتى لا يجد اليأس طريقه إلى المجاهدين من وساوس الشيطان . .

إذن فالأمران ضروريان للمجاهد وهما معا يمثلان قوة المواجهة فالثبات ضرورى فقد حرم الله تعالى التولى يوم الزحف ، ولم يبحه سبحانه إلا بسبب التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة من المسلمين . .

والتولى هذا من السبع الموبقات التى تهلك صاحبها وتهوى به فى النار قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : ما هى يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . .

فبالثبات تظهر القوة وتتخلخل صفوف العدو ، ويتمكن المجاهد من تحقيق النصر ومن الدفاع عن كيانه وأمته . ولا يمكن أن يكون الثبات بدون إيمان يسنده وثقة تدعمه ومن أبرز خصائص الإيمان والثقة ومن أوضح السمات لهما هو ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا .

لهذا نرى أن الله تعالى حين أمر المسلمين بالثبات عند لقاء العدو أمرهم أيضا بذكر الله كثيرا رجاء أن يتحقق لهم الفلاح . . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ .

الفهـــــرس

الموضـــوع | الصفحة

الفصـــل الثـــالث :

الفصـــل الرابـــع :

الفصـــل الخـــامس :

رقم الإيداع ٢١٤٦ / ٩٠
الترقيم الدولى ٧ - ٢٥٥ - ١٧٢ - ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هـذا الكتـاب

توضيح لما تميزت به الدعوة الإسلامية بالسماحة والعالمية .

وقـدوة الدعاة ، هو رسول الله ﷺ الرحمة جوهر رسالته ، والتيسير عنوان شريعته « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

هذا بعض ما اشتمل عليه الكتاب من قيم إسلامية ، ومعالم للدعوة الإسلامية ، ونماذج من أساليب الدعوة ، وعناصرها من أساليب الدعوة ، وعناصرها وتوجيهاتها فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

عبد الحميد أحمد غريب

دار غريب للطباعه

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهره

ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩